• عدد ممتاز •

الكتاب الذهبي

البرتو مورافيا



المراهقان

www.library4arab.com/vb

الكتـــاب الذهبى

سبتمبر ١٩٧٣

العــــدد ٢٠٦

www.library4arab.com/vb

المراهقان

البرتو مورافيا

ترجمة : زغلول فهمي

www.library4arab.com/vb

الغلاف بريشة الفنان جمال كامل

آجو ستينو

ـ ١ ـ

تعـود آجو ستينو وامه فى بواكير ذلـك الصيف أن يستقلا الطوف كل صباح ويخرجا للنزهة فى البحر ·· وكانت الام فى المرات القليلة الاولى تصطحب بحارا ولـكن آجـو ستينو كشف عن ضيقه بالرجل على صورة واضحة ومنذ ذلك الحين صار يعهد اليه هو بمهمة التجديف ، ولشد ماكان يمتـعه أن يدفع الطوف على صفحة البحر الهادىء الشـفاف فى تلـك الساعة المبكرة من الصباح بينما تجلس أمه فى مواجهته مرحة هادئه كالبحر والسماء وتخاطبه فى صوت رقيق كما لو كان رجلا لا صبيا فى الثالثة عشرة من عمره · وكانت أم آجـو ستينو امرأة طويلة جميلة لا تزال فى شرخ الشباب ، أما آجو ستينو فقد كان يراوده احساس بالفخر كلما صاحبها فى تلك الرحلات الصباحية · وكان يبدو له أنهما محط أنظار جميع المستحمين الذين يعجبون بأمه ويغبطونه على سعادته · وكان يخيل له ان صوته يزداد قوة لاقتناعه بأن جميع الانظار متجهة نحوهما كما بدا له ان جميع حركاته كانت تتسم بشيء مـن

الرمزية كما لو كانت جزءا من مسرحية وكأنه هو وامه لايقفان على الشاطىء بل على المسرح حيث تركزت عليهما عيون مئات الشاهدين • وكانت امه أحيانا تظهر في ثوب جديد فلا يسعه الا ان يعلق عليه بصوت مرتفع راجيا بينه وبين نفسه ان يسمعه غيره من الناس • وأحيانا كانت أمه ترسله الى كابينة الاستحمام للبحث عن شيء أو آخر بينما تقف هى فى انتظاره بالقرب من القارب فيطيع أمرها يراوده سرور خفى لامكانه تأخير رحلتهما ولو بضع دقائق • واخيرا يستقلان الطوف فيمسك آجو ستينو بالمجدافين ويقوم بالتجديف الى عرض البحر • ولكنه يظل خاضعا لخيلاء البنوة وتأثيرها المقلق فترة طويلة • وما ان يبتعد عن الشاطىء بعض الشيء حتى تأمره أمه بالتوقف عن التجديف لتضع غطاء الرأس المطاط الخاص بالاستحمام وتخلع نعليها ثم تنزلق الى الماء • ويتبعها آجو ستينو ثم يسبحان حول الطوف الخالى وقد طفا مجدافاه فوق صفحة الماء وهما يتحدثان فى مرح فيدوى صوتاهما فى وضوح وسط سكون البحر الهادىء الذى تفترشه الشمس • وكانت أمه أحيانا تشير الى قطعة من الفلين لا تفتأ تظهر ثم تختفى على مقربة منهما وتتحداه ان يسابقها اليها • وتسمح له بأن يتقدمها قبل بدء السباق ببضع ياردات ثم يأخذان فى السباحة بكل قوتهما نحو قطعة الفلين او يتنافسان فى الغوص من فوق حافة الطوف فيتطاير رذاذ الماء الهادىء وهما يغوصان فيه • ويرقب آجو ستينو جسد امه وهو يغوص فى الاعماق خلال زبد من الفقاعات الخضراء • وفجأة يغوص فى أثرها متحمسا لتعقبها حيثما تذهب ولو الى قاع البحر • وكان يبدو له عندما يلقى بنفسه فى اللج الذى مخرته أمه عند غوصها فيه انه على الرغم من برودته وكثافته •• فلا ريب ان جسدها الحبيب قد ترك فيه أثرا ما عند مروقه خلاله • وما ان يفرغا من حمامهما حتى يتسلقا ظهر الطوف ثم تقول امه وهى تحملق حولها فى البحر الهادىء الطفى فى جميع الاتجاهات — ما أجمله ! أليس كذلك ؟ • ولكن آجو ستينو لا يجد جوابا لاحساسه بأن متعته الخاصة بجمال البحر والسماء انما ترجع فى الحقيقة الى شعوره

العميق بارتباطه بأمه قبل كل شيء •• وكان يتساءل أحيانا : «ماذا يتبقى من كل ذلك الجمال لو لم تكن هناك تلك الرابطة الوثيقة» • وكانا يمكثان وقتا طويلا ليجففا جسديهما في الشمس التي تشتد حرارتها قرب الظهيرة ثم ترقد أمه متمددة بين لوحي الخشب حيث تأخذها سنة من النوم وقد تدلى شعرها الطويل في الماء وأغمضت عينيها • ويظل آجو ستينو يراقبها من فوق مقعده وقد تركزت عليها عيناه وهو لا يكاد يتنفس خشية أن يزعج نومها • وفجأة تفتح عينيها قائلة ، ماأمتعه من تجديد ان يرقد الانسان على ظهره مغمضا عينيه فيحس بالماء وهو يهتز من تحته • او تطلب الى آجو ستينو ان يعطيها علبة السجائر او ان يشعل لها سيجارة ثم يناولها اياها • وكان يقوم بكل ذلك في حرص شديد وقد تولته الرجفة • وبينما تأخذ الام في التدخين يتكيء آجو ستينو الى الامام موليا ظهره ولكنه ينحرف برأسه جانبا حتى يتمكن من رؤية سحب الدخان الأزرق التي تشير الى حيث اضطجع رأسها وقد انتشر حوله شعرها فوق صفحة الماء • ولما كانت لا تمل الشمس قط فانها كانت تطلب الى آجو ستينو أن يواصل التجديف بينما تخلع هي حمالتها لتعرض جسدها كله لضوء الشمس ، ويواصل آجو ستينو تجديفه فخورا بتحذيرها اياه من النظر الى الخلف وكأنه قد أتيح له الاشتراك في أحد الطقوس • وفضلا عن أنه لم يخطر بباله قط ان ينظر الى الوراء فانه كان يشعر بأن جسدها الممدد خلفه عن قرب عاريا في ضوء الشمس كانت تحيط به هالة من الغموض أشد ما كان يدين لها بالخشوع والاحترام •

وذات صباح كانت الام جالسة كعادتها تحت المظلة الكبيرة وبجانبها آجو ستينو مفترشا الرمل في انتظار اللحظة التي يبدآن فيها نزهتهما اليومية • وفجأة سقط على الأرض ظل طويل فحجب عنه ضوء الشمس • وما ان رفع اليه بصره حتى رأى شابا اسمر لفحته الشمس يصافح امه • ولم يهتم به كثيرا ظنا منه انه أحد معارف أمه العابرين • فانسحب الى الخلف قليلا الى ان ينتهي الحديث • ولكن الشاب لم يقبل

دعوتها اياه للجلوس بل أشار الى طوف أبيض جاء به ودعا الام الى نزهة فيه • وكان آجو ستينو واثقا ان أمه لن تقبل تلك الدعوة كما سبق لها ان رفضت كثيرا من الدعوات • ولكنه اشتد ما دهش عندما رآها تقبل فى الحال وتقوم بجمع حاجياتها على الفور ـــ نعليها وغطاء رأسها وكيس نقودها ـــ ثم تنهض من مقعدها • قبلت أمه دعوة الشاب بنفس التلقائية والود الصافى اللذين كان يمكن أن تكشف عنهما لابنها • ثم استدارت نحو آجو ستينو وكان جالسا مطأطىء الرأس والرمال تنساب من بين اصابعه واوصته بنفس البساطة ان يأخذ حماما شمسيا لقيامها بجولة قصيرة فى القارب لا تلبث أن تعود منها • وكان الشاب فى اثناء ذلك قد ذهب فى اتجاه الطوف وكأنه واثق من نفسه بينما سارت المرأة فى أعقابه باستسلام وهى تختال فى هدوئها المعهود • ولم يسع ابنها وهو يراقبهما الا أن يحدث نفسه قائلا «لاريب أن هذا الشاب يراوده الان ذلك الشعور بالفخر والزهو والاضطراب الذى كان لا يفتأ يخالجه كلما انطلق مع أمه فى القارب» راقبها وهى تستقل الطوف بينما اتكأ الشاب الى الخلف حيث أخذ يدفع الطوف مستندا بقدميه الى القاع الرملى • وأمكنه ببضع ضربات قوية بالمجدافين أن ينقل الطوف بعيدا عن المياه الضحلة القريبة من الشاطىء • عندئذ أخذ الشاب يجدف بينما جلست الام فى مواجهته قابضة على المقعد بكلتا يديها وهى تتجاذب معه أطراف الحديث • واخذ الطوف يتضاءل ثم يتضاءل الى ان دخل دائرة ضوء الشمس الباهر على صفحة الماء ثم اختفى فى طياته رويدا رويدا •

وعندما خلا آجو ستينو الى نفسه تمدد على مقعد أمه القماش حيث وضع احدى ذراعيه خلف رأسه ثم شخص ببصره الى السماء وقد بدا عليه الاستغراق فى التفكير وعدم الاكتراث بكل مايحيط به • كان جميع المستحمين على الشاطىء يلاحظونه وهو يصطحب أمه كل يوم • ولهذا فلا يمكن أن يكون قد فاتهم ان يلاحظوه يومئذ وقد تركته امه وحيدا وذهبت مع ذلك الشاب صاحب الطوف • لذا فقد صمم على اخفاء كل اثر لخيبة الامل التى قد تكون تملؤه بالمرارة • ولكنه أحس فى نفس الوقت رغم كل ما بذل من جهد جهيد للاحتفاظ

بمظهره الهادىء بأن أحدا لا يمكن أن تفوته ملاحظة مظهره ومدى ماكان عليه من تكلف . ولم يؤله ايثار أمه صحبة ذلك الشاب على صحبته بقدر ما آلمه ذلك السرور والاستعداد اللذين قبلت بهما أمه الدعوة كما لو كانت تكاد تتوقعها . فقد بدت وكأنها قد استقر رأيها من قبل على الا تضيع الفرصة وأن تقبلها بلا تردد حالما تسنح لها . كما خيل له انها كانت فى الحقيقة لا تجد مايثيرها طوال أوقات صحبتها اياه وحدهما فى نزهاتهما بالطوف وكأنها لم تكن ترافقه الا لافتقارها الى من هو خير منه . ثم عاوده خاطر زاد من ضيقه . لقد حدث ذلك فى حفل راقص ذهب اليه فى صحبة أمه وكانت معهما ايضا ابنة عمه التى قبلت أن تراقصه مرة أو مرتين بعد مايئست من أن يطلبها احد للرقص رغم انه كان صبيا يرتدى السراويل القصيرة . ولكنها راقصته على مضض وقد بدا عليها الغضب والضيق . وكان آجو ستينو رغم اهتمامه الشديد بخطواته لايفتأ يحس بمشاعر الاحتقار والجفاء التى كانت تراودها نحوه . ومع ذلك فقد طلب اليها أن تراقصه مرة أخرى ولشد مادهش عندما رآها تبتسم فجأة وتقفز من مقعدها وهى تهز ثنايا ثوبها بكلتا يديها . ولكنها بدلا من أن تندفع الى ذراعيه اذا بها توليه ظهرها وتتجه نحو شاب كان قد أشار اليها من فوق كتف آجوستينو . ولم يستغرق ذلك اكثر من خمس ثوان ولم يلحظ احد ما حدث سوى آجوستينو نفسه . ومع ذلك فلشد ما أحس بالمهانة وتأكد لديه أن الجميع قد رأوا كيف صدته فى جفاء شديد .

واذا به عندئذ بعدما ذهبت امه فى صحبة ذلك الشاب يقارن بين الواقعتين ويرى وجه الشبه بينهما . فقد كانت أمه كابنة عمه لا تنتظر سوى سنوح الفرصة لتذهب وتتركه اذ انها بادرت بقبول أول دعوة أتيحت لها بنفس السرعة المغالى فيها ، وكان مقدرا له فى كلتا الحالين أن يسقط من علياء أوهامه ويهوى الى القاع مثخنا بالكدمات والجراح .

وطالت غيبة أمه عنه يومئذ حوالى ساعتين . ثم رآها من تحت المظلة الكبيرة وهى تخطو الى الشاطىء مصافحة الشاب

www.library4arab.com/vb

ومتجهة فى بطء نحو كابينة الاستحمام وقد انحنى ظهرها قليلا أثناء سيرها تحت شمس الظهيرة الساخنة ، عندئذ كان الشاطىء قد أقفر من الناس مما خفف عن آجو ستينو لاعتقاده دائما أن أنظار الناس جميعا مسلطة عليهما . وسألته أمه قائلة بطريقة عارضة « ماذا فعلت » ؟ فقال آجو ستينو : « لشد مالهوت » ثم نسج قصة روى فيها كيف انه هو أيضا كان يسبح مع الصبية المقيمين فى الكابينة المجاورة ولكن أمه لم تصغ اليه بل اسرعت الى الداخل لترتدى ملابسها . وقرر آجو ستينو انه ماأن يرى الطوف الأبيض فى اليوم التالى حتى يبادر باختلاق المعاذير للرحيل ليتجنب ما يعانيه من مهانة عندما تتركه وحيدا . ولكنه ما كاد يهم بالانصراف فى اليوم التالى حتى سمع امه تناديه . قالت وهى تنهض من جلستها وتجمع حاجاتها « هيا فاننا ذاهبان معاللاستحمام . » فتبعها آجو ستينو معتقدا أنها تنوى ان تطرد الشاب وترافقه هو وحده . وكان الشاب ينتظرها واقفا فى طوفه الأبيض . فحيته قائلة فى بساطة : « سأصحب ابنى معى ايضا . » فوجد آجوستينو نفسه رغم كرهه الشديد لذلك جالسا بجانب أمه فى مواجهه الشاب الذى كان يقوم بالتجديف .

كان آجوستينو لايفتأ يرى أمه فى ضوء معين ـ هادئة وقورا متحفظة ، فاذا به يصدم أثناء تلك النزهة عندما رأى ما طرأ عليها من تغير لا فى اسلوب حديثها فحسب بل فيها هى ذاتها حتى ان العين لا تكاد تصدق انها هى نفسها . وماكادوا يخرجون الى البحر حتى علقت أمه تعليقا شخصيا جارحا لم ينتبه اليه آجوستينو ثم دار بينهما حوار غريب خاص . وكان الحديث بقدرما تبين آجوستينو يخص سيدة من صديقات الشاب كانت قد صدت محاولاته للتقرب اليها مؤثرة عليه منافسا له . ولكن ذلك لم يكن سوى تمهيد لموضوع حديثهما الحقيقى الذى بدا فيه على التوالى التلميح ثم الاصرار ثم الاحتقار ثم المشاكسة . وقد بدت أمه اكثر الطرفين هجوما وانفعالا . اما الشاب فكان يقنع بالرد عليها فى صوت هادىء ساخر وكأنه واثق من نفسه

كل الثقة • وأحيانا كانت أمه تبدو ساخطة بل غاضبة فعلا من ذلك الشاب ، وعندئذ يحس آجو ستينو بالسرور ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن تخيب أمله بعبارة رقيقة مجاملة تقضي على كل أوهامه ، أو تخاطب الشاب بلهجة مستاءة وتمطره بوابل من التقريع الغامض • ولكنه بدلا من ان يغضب يرى آجوستينو وجهه وقد أشرق بالزهو الاحمق فيكتشف أن ذلك التقريع لم يكن الا ستارا لمعنى عاطفي لم يستطع هو ان يدرك كنهه • اما هو فقد بدا له انهما لا يحسان بوجوده • فلم يكن ثمة فارق بين وجوده وعدمه . بل لقد نسيته أمه تماما حتى انها قالت للشاب ان مصاحبتها اياه وحدها فى اليوم السابق كان خطأ لاتنوى ان تعود اليه وانه ينبغى عليها دائما بعد ذلك أن تصحب ابنها • واحس آجوستينو أن فى ذلك اهانة له لاشك فيها فقد كانت تتحدث عنه وكأنه مسلوب الارادة أو كأنه لا يعدو أن يكون أداة تتصرف فيها هى حسبما يتفق مع هواها وراحتها .

ولم يبد أن أمه قد لاحظت وجوده سوى مرة واحدة وذلك عندما ترك الشاب المجدافين لحظة واتكأ الى الامام يعلو وجهه تعبير خبيث للغاية ثم تمتم بشىء ما فى صوت خفيض لم يستطع آجو ستينو أن يتبينه • وجفلت الام متظاهرة بأنها صدمت صدمة شديدة ثم صاحت مشيرة الى آجو ستينو الجالس الى جوارها وهى تقول «لنرحم هذا البرىء على الاقل! » فارتجف آجو ستينو من الغضب عندما سمع أمه تدعوه «بريئا» أحس وكأنها قذفته بخرقة بالية لم يمكن ان يتحاشاها • وعندما توغلوا قليلا فى عرض البحر اقترح الشاب على رفيقته أن يأخذا حماما • وطالما أعجب آجو ستينو بأمه وهى تنزلق الى الماء فى يسر وسهولة فآلمه أن يرى كل تلك الحركات الشاذة التى أضافتها عندئذ الى ذلك العمل العادى • فقد ظلت واقفة تتردد وهى تغمس أصابع قدميها فى الماء الواحدة تلو الاخرى متظاهرة فى وضوح بالخوف أو الخجل بينما غاص الشاب فى الماء ثم عاد الى الظهور فوق السطح • فشد ما أثارت ضجة حول هبوطها فى الماء فأخذت تضحك وتحتج ثم تمسك بالمقعد بكلتا يديها حتى سقطت فى النهاية على جنبيها بطريقة تكاد تكون غير لائقة

وتركت نفسها تهوى بين ذراعى رفيقها فى غير ما رشاقة . وغاصا معا فى الماء ثم عادا الى الظهور فوق السطح ، ورأى آجو ستينو من فوق مقعده الذى جلس عليه منكمشا أن وجه أمه الباسم كان قريبا كل القرب من وجه الشاب الأسمر الحاد . وبدا له أن وجنتيهما تتلامسان . كما أمكنه أن يرى جسديهما وهما يلهوان فى الماء الشفاف بينما تتلامس اردافهما وسيقانهما وكأن تلك الأطراف تتمنى لو تشابكت . نظر اليهما آجو ستينو فى بادىء الأمر ثم حول بصره بعيدا الى الشاطىء النائى يراوده احساس مخجل بأنه يعترض طريقهما . وما ان لمحت الأم وجهه العابس وهى تعاود الغوص حتى صاحت قائلة له : فيم كل هذا العبوس ؟ ألا ترى جمال هذا المكان ؟ يا الهى : ياله من صبى جاد ! . وجاشت نفس آجو ستينو لهذه العبارة باحساسات الخجل والمهانة . فلم يحر جوابا واكتفى بأن أشاح بوجهه بعيدا . وطال استحمامهما فى البحر . فقد ظلا يلهوان كدرفيلين فى الماء حتى خيل له أنهما نسياه تماما . وأخيرا عادا الى الطوف الذى اعتلاه الشاب بقفزه واحدة ثم اتكأ فوق الحافة ليساعد رفيقته التى أخذت تستغيث به ليعاونها على الخروج من الماء . ورأى آجو ستينو وهو يراقبهما كيف أن الشاب قبض بأصابعه على بدنها الأسمر ليرفعها من الماء – قبض على عضدها ما بين الكتف والابط حيث تلين الذراع وتمتلىء للغاية . ثم جلست بجانب آجو ستينو وهى تلهث وتضحك مبعدة بأظافرها المدببة ثوب الاستحمام المبتل عن جسدها حتى لا يتلصق بثدييها ، وتذكر آجو ستينو أن أمه فى خلواتها السابقة كانت تقوى على الصعود الى القارب دون مساعدة من أحد وعزا استغاثتها – وأوضاع جسدها التى بدت وكأنها تجذب الانتباه الى نواحى ضعفها الأنثوى – عزا ذلك الى روحها الجديدة التى أدت فعلا الى ما طرأ عليها من تغيرات بغيضة . فلم يسعه الا ان يعتقد ان امه التى كانت بطبيعتها امرأة وقورا طويلة القامة صارت تبغض حجمها وتعده عبئا لا شك فيه تود لو تخلصت منه . كما صارت تعد وقارها عادة متعبة حاولت أن تستبدلها بارتباك صبيانى غريب الأطوار .

تغنى وهو مسلك لم يعهده فيها قط ، وكان صوتها جميلا

وعندما عاد كلاهما الى الطوف بدأت رحلة العودة ، وعندئذ عهد الى آجو ستينو بالتجديف بينما جلس رفيقاه على لوح الخشب الذى يضم العائمين ، وبدا يجدف فى هدوء تحت الشمس المحرقة وهو لا يفتأ يتساءل عن معنى تلك الاصوات والضحكات التى كان يحس بها خلف ظهره • وبدا أن أمه كانت من وقت لآخر تحس فجأة بوجوده • فتمد ذراعيها محاولة أن تربت على قفاه أو تدغدغه أسفل ذراعه وتسأله عما اذا كان قد نال منه الاعياء • فيجيبها قائلا ـ « كلا لست منعبا » وكان يسمع الشاب وهو يقول لها ضاحكا : «التجديف مفيد له» مما كان يجعله يضرب بالمجداف فى الماء بوحشية • وكانت أمه تجلس مستندة الى مقعد وقد تمددت ساقاها الطويلتان • كان يدرك ذلك • ولكنه بدا له أنها لم تحتفظ بهذا الوضع • فقد خيل له فى وقت من الاوقات أن مناوشة قصيرة قد نشبت بينهما ثم أطلقت أمه صيحة مكتومة وكأن شخصا ما يخنقها فمال الطوف على أحد جنبيه • ولامست وجنته جسد امه الذى بدا له ضخما ـ كالسماء طولا وعرضا ـ نابضا بحياة لا يمكنها التحكم فيها ـ ثم نهضت واقفة وقد انفرجت ساقاها وأمسكت بكتفى ابنها قائلة : لن أعاود الجلوس الا اذا وعدتنى بأن تكون مهذبا •• فرد عليها الشاب فى رزانة ساخرة قائلا : أعدك بذلك • وعاوت جلستها فى غير ما رشاقة على لوح الخشب وعندئذ لامس جسدها وجنة ابنها • وظل يحس على وجنته بأثر البلل الذى تركه جسدها المتشح بثوب الاستحمام المبتل • ولكن حرارة بدنها بدت وكأنها قد تغلبت على ذلك البلل • وعلى الرغم من احساسه المضنى بالضيق بل بالنفور فقد أبى فى اصرار ان يجفف ذلك الأثر •

وعندما اقتربوا من الشاطىء وثب الشاب فى خفة الى مقعد التجديف وأمسك بالمجدافين وهو يدفع آجو ستينو بعيدا مرغما اياه على أخذ مكانه الخالى بجانب أمه التى ما لبثت أن أحاطت حصره بذراعها وسألته عن مشاعره وعما اذا كان سعيدا ، أما هى فقد بدت فى أسعد حالاتها حتى انها بدأت فجأة

بثت فيه بعض الاختلاجات العاطفية التى ارتجف لهـا بدن آجو ستينو • وظلت ممسكة به وهى تضمه اليها أثناء غنائها مبللة اياه بثوب استحمامها الذى بدا له انه يشيع سخونة حيوانيةعنيفة ـ وهكذا بلغوا الشاطىء والشاب يجذف والمرأة تغنى وتدغدغ ابنها الذى استسلم لها يراوده شـعور بالملل الشديد فكون ثلاثتهم صورة أحس آجو ستينو انهـا زائفة مفتعلة للمحافظة على المظهر اللائق •

وفى اليوم التالى عاد الشاب الى الظهور • وأصرت الام على اصطحاب ابنها أيضا • وتكررت مناظر اليوم السابق • وبعد انقطاع ظل بضعة أيام عاودا الخروج للنزهه فى البحر • واخيرا مع توثق الصلة بينهما وهو أمر لم يخف على أحد صار يأتى لاصطحابها يوميا وكان آجو ستينو أيضا يضطر الىمرافقتهما والانصات الى حديثهما والى مراقبتهما وهما يستحمان ، وكان يمقت تلك الرحلات حتى بدأ فى النهاية يختلق ألوف المعاذير لاعفائه منها • فكان يختفى عـن الانظار ولا يظهر حتى تنجح أمه أخيرا فى اكتشافه وذلك بعد ان تناديه مرارا وتبحث عنه فى كل مكان • ولكنه كان لا يأتى اليها استجابه لنداءاتها بل اشفاقا عليها من وقع الخيبة والغضب لاختفائه ـ وكان يلتزم الصمت التام أثناء وجوده معهما فى الطوف راجيـا أن يدركا مايدور بخلده ويتركاه وحيدا . ولكنه كان لا يفتـأ يثبت فى النهاية انه أضعف منهما واكثر تأثرا بالشفقة • لم يكن يعنيهما سوى وجوده هناك • أما عن مشاعره فلم يلبث أن اكتشـف أنهـا لا تعنى شـيئا فى نظرهما • وهكذا فقد استمرت تلك الرحلات على الرغم من جميع محاولاته للهرب منها •

ـ ٢ ـ

وذاتيوم كانآجو ستينو جالساعلىالرمال خلفمقعد والدته فى انتظار ظهور الطوف الأبيض فى البحر وتلويح أمه بيدها تحية للشاب ومناداته باسمه ، ولكنه تأخر عنموعده المعهود وكان تعبير أمه عن الخيبة والغضب يدل بوضوح على انها فقدت كل امل فى مجيئه • وطالما فكر آجوسـتينو فيما يكون عليه شعوره فى مثلهذه الحال ، وكان لا يفتأ يخيل له أن سروره

بذلك لن يقل بحال عما تشعر به أمه من خيبة الأمل • غير أنه دهش عندئذ لأنه احس بخيبة امل غامضة وادرك فى الحال ان كل ما كان يحس به من مهانة واستياء أثناء تلك الرحلات أوشك أخيرا أن يكون ضرورة من ضرورات الحياة بالنسبة له • ولهذا فانه سأل أمه أكثر من مرة مدفوعا الى ذلك برغبة مضطربة لا واعية فى ايلامها عما اذا كانا سيخرجان فى نزهتهما المعتادة، وكانت تجيبه فى كل مرة بأنها لا تعلم أو بأنه من المحتمل ألا يخرجا يومئذ للنزهة • كانت تضطجع فى مقعدها وفى حجرها كتاب مفتوح ولكنها لم تكن تقرأ بل لا تفتأ عيناها تتطلعان الى البحر وكأنهما تبحثان عن شىء معين بالذات بين القوارب العـــديدة وجمـــوع المســـتحمين الذين يعج بهم البحر • وبعـــد ما طالت جلسة آجوستينو خلف مقعد والدته وهو يرسم الزخارف على الرمال جاء اليها قائلا فى لهجة أحس هو بما فيها من مشاكسة بل سخرية • « اماه • اتقصدين ان تقولى اننا لن نذهب اليوم للنزهة فى الطوف ؟ » ولعل امه أحســـت بما فى صـــوته من سخرية ورغبة فى ايلامها • ولعل كلماته القليلة الطائشة كانت كافية لان تطلق عنان غضبها الذى طالما كظته • فرفعت أمه يدها بحركة لاارادية وصفعته على وجنته صفعة حادة ولكنها لم تؤلمه حقا ربما لانها ندمت على فعلتها قبل توجيه الصفعة اليه، ولم ينبس آجو ستينو بكلمة بل قفز بعيدا عن الرمال فى وثبة واحدة ثم انطلق مطأطئا رأسه تجاه كابينة الاستحمام • وقد سمع اسمه يتردد مرارا « آجوستينو ! •• آجوستينو ••» ثم انقطع النداء وما أن نظر خلفه حتى خيل له انه رأى بين زحام القوارب الطوف الابيض الذى يملكه الشاب ، ولكنه لم يعد يعبأ بذلك فقد راوده احساس من عثر على كنز واسرع ليخفيه حتى يفحصه وحده • ركض بعيدا يخالجه ذلك الاحساس بالاكتشاف ليتأمل الاساءة التى لحقته فقد كانت شيئا جديدا لم يعهـــده قط من قبل حتى كادت تبدو غير مصدقة •

آلمته وجنته وأغرورقت عيناه بالدموع التى لم يســـتطع أن يحبسها • جرى وهو محنى الظهر تماما خشية أن ينفجر فى البكاء قبل ان يلوذ بمكان ناء عن الأنظار • وعندئذ جاشت

نفسه بكل ما تراكم فيها من مرارة تلك الايام التى أرغم فيها على اصطحاب الشاب وأمه · وكاد يحس انه لواستطاع ان يجهش بالبكاء لأفرج عن شيء مما فى نفسه ولاستعان بذلك على أدراك ماتعنيه كل تلك الاحداث الغريبة ، وبدا له أنه ليس أبسط من ان يحتبس فى كابينة الاستحمام · ولعل أمه قد أستقلت القارب فعلا فلن يزعجه أحد ، صعد آجو ستينو الدرج مهرولا ثم فتح الباب وتركه مواربا واتجه الى احدى زوايا الكابينة حيث جلس على مقعد بلا ظهر ·

أقعى على الارض وقد أسند رأسه الى الحائط وأخذ يبكى فى صدق ممسكا بوجهه بين يديه بينما ظلت الصفعة التي تلقاها ترتفع أمام عينيه ، ثم تساءل لماذا كانت يد أمه رقيقة مترددة للغاية فى حين بدت الصفعة قوية عنيفة · لقد اختلط احساسه المرير بالمهانة من أثر الصفعة بآلاف الاحاسيس الاخرى التى كانت تفوقه بغضا الى نفسه والتى ظلت تجرح مشاعره خلال تلك الأيام الاخيرة كلها · وكان من بينها جميعا احساس واحد لايفتأ يعاود ذاكرته ــ احساسه بجسد أمه متشحا ببدلة الاستحمام المبتلة وهو يضغط على وجنته مختلجا بحيوية عاتية مستبدة . وقد ثار فى نفسه مرة أخرى على أثر الصفعة التى نزلت بوعيه الأليم المرتبك ذلك الاحساس بجسد أمه وهو يضغط على وجنته تماما كما تتصاعد سحب الغبار الكثيفة من الملابس القديمة عندما تنفض · حقا كان يبدو له ان ذلك الاحساس يقوم تارة مقام الصفعة . وتارة أخرى يختلط الاحساسان على نحو يشعر معه باختلاج بدن امه وبالصفعة تتوهج كالنار التى تخمد تدريجيا فقد استغلق على فهمه السر فى ذلك الالحاح الشديد الذى لم يفتأ يعاوده به احساسه الاول ، لماذا كان هو وحده دون غيره من الاحاسيس الكثيرة مسيطرا على ذهنه لايفارقه ؟ هذا هوما عجز عن تفسيره ولكنه خيل له انه لكى يستعيد الاحساس ببدنها على وجنته وبملمس النسيج الخشن لبدلة استحمامها المبتلة على وجهه مابقى على قيد الحياة فما عليه الا أن يعود بذاكرته الى تلك اللحظة .

ظل يبكى فى هدوء بينه وبين نفسه حتى لايقطع حبل ذكرياته المؤلمة وهو فى نفس الوقت لا يفتأ بأطراف أصابعه يمسح الدموع التى راحت تتساقط على وجهه بطيئة متتابعة . وكان الجو مظلما خانقا فى داخل الكابينة . وفجأة أحس بالباب يفتح وكاد يأمل أن تكون أمه وقد عضها الندم على فعلتها قد جاءت لتضع يدها فى حنان على كتفه ثم تدير رأسه نحوها . وأخذت شفتاه ترسمان فعلا كلمة « أماه » عندما سمع وقع خطوة فى داخل الكابينة كما سمع الباب وهو يجذب فى عنف دون أن تمتد يد لتلمس كتفه أو تربت على رأسه .

ثم رفع رأسه وشخص الى أعلى . فرأى على مقربة من الباب الموارب صبيا فى مثل سنه تقريبا يقف فى ترقب مرتديا سراويل قصيرة طوى طرفيها قليلا الى أعلى وقميصا بحريا فى ظهره ثقب كبير . وقد سقط شعاع رفيع من ضوء الشمس خلال كوة فى سقف الكابينة فكشف عن خصلات شعره الأصحر الكثيف حول عنقه . وكان عارى القدمين يقف مواربا الباب بكلتا يديه . أخذ يحملق بامعان فى شىء ما على الشاطىء ولم يبد متنبها لوجود آجوستينو الذى مسح دموعه بظهر يده ثم قال «مرحى . ماذا تريد؟» فاستدار الصبى نحوه ولكنه أشار اليه محذرا من الكلام . كان وجهه أنمش قبيحا ولم يكن يميزه سوى سرعة حركة عينيه الزرقاوين القاسيتين . وخيل لآجوستينو أنه تعرف عليه . فلعله ابن أحد الصيادين أو الغواصين ولعله رآه من قبل وهو يدفع القوارب الى الماء أو وهو يقوم بعمل ما فى دائرة السباحة . صمت الصبى برهة ثم قال وهو يستدير نحو آجوستينو «نحن نلعب عسكر وحرامية » فيجب الا يرونى . فسأله آجو ستينو وهو يسرع بتجفيف عينيه قائلا « وأيهما تلعب أنت ؟ » فأجابه الآخر دون أن يدير بصره نحوه « لصا بالطبع » .

وظل آجوستينو يراقب الصبى . ولم يستطع ان يقرر ماذا كان يشعر بميل نحوه ولكن صوته كان به أثر خشن للهجة معينة استثارت اهتمامه وفضوله . وفضلا عن ذلك فقد أحس بفطرته أن لجوء ذلك الصبى الى الكابينة فى تلك اللحظة بالذات

كان فرصة له ـ رغم أنه لم يمكنه أن يفسر كنه تلك الفرصة، ولكنها فرصة بلا شك ينبغى أن ينتهزها .

سأله قائلا ـ «هل تسمح لى بالانضمام اليكم فى اللعب؟» فاستدار نحوه الصبى وحدق فيه بوقاحة . ثم أسرع قائلا «كيف تنضم الينا فى اللعبة . فنحن جميعا رفاق نلعب .

فقال آجو ستينو فى الحاح صفيق ـ «حسنا . فلالعب معكم أنا أيضا . »

فهز الصبى كتفيه قائلا ـ « لقد فات الوقت الآن . فاننا نوشك أن ننتهى من اللعبة . »

ـ « حسنا . سأنضم اليكم فى الشوط التالى . »

فقال الصبى وهو يتفحصه فى شك ولكنه بدا كالمدهوش لالحاحه :

ـ لن تكون هناك أشواط أخرى . ولكننا ذاهبون بعد ذلك الى غابات الصنوبر .

ـ سأرافقكم الى هناك لو سمحتم لى بذلك .

فبدا عليه السرور وأخذ يضحك فى احتقار الى حد ما قائلا:

ـ لاشك انك فتى مهذب . ولكننا نريدك .

لم يقف آجوستينو مثل ذلك الموقف من قبل . ولكنه أوحى اليه عندئذ بفطرته التى حفزته لان يطلب الى الصبى مشاركتهم لهوهم أن يلجأ الى وسيلة قد تمكنه من أن يحوز القبول .

فقال مترددا : « انصت الى . اذا .. اذا سمحت لى بالانضمام الى جماعتكم فانى .. فانى سأعطيك شيئا ما » .

فاستدار الآخر نحوه ونظر اليه بعينين جشعتين قائلا :

ـ ماذا تعطينى ؟

ـ ما تشاء .

وأشار آجوستيو الى نموذج كبير لقارب شراعى ركبت فيه جميع أشرعته وكان ملقى على أرض الكابينة بين عدد من اللعب الأخرى .

ـ سأعطيك هذا القارب .

فأجاب الصبى هازا كتفيه ـ « وماذا يجدينى هذا ؟ »
فاقترح عليه آجوستينو قائلا ـ « يمكنك أن تبيعه . »
فقال الصبى وعلى وجهه سيماء العالم بالأمور ـ « لن يأخذوه منى . بل سيتهموننى بسرقته » .
فنظر آجو ستينو حوله فى يأس . كانت ملابس أمه معلقة على المشاجب وأحذيتها ملقاة على الارض وقد وضع على المنضدة أحد مناديلها ووشاح أو وشاحان . ولم يكن فى الكابينة مطلقا شىء يصلح لأن يكون هدية مناسبة .

فقال الصبى وهو يشاهد حيرته ـ « هل لديك سجائر مثلا ؟ »
فتذكر آجوستينو أن أمه فى ذلك الصباح بالذات قد وضعت علبتين من نوع فاخر فى حقيبتها الكبيرة التى كانت تتدلى من مشجب آخر . فأسرع باجابته بلهجة الفائز : نعم لدى هل تريد عددا منها ؟ .
فقال الآخر فى سخرية واحتقار ـ « لاأظن ذلك ! ما أغباك ! أعطنيها بسرعة . »

فأنزل آجوستينو الحقيبة من فوق المشجب وتحسس ما بداخلها ثم اخرج العلبتين . وقدمهما الى الصبى وكأنه لايدرى تماما كم سيجارة يريد .
فقال باستخفاف ممسكا بالعلبتين ـ « سآخذ العلبتين معا »
ونظر الى البطاقة وأحدث صوتا بلسانه استحسانا ثم قال : « يا الهى . لاريب انكم أثرياء . هه ؟ »
ولم يدر آجوستينو بماذا يجيبه . فأردف الصبى قائلا ـ « انى أدعى برتو . وما اسمك ؟ »

فذكر له اسمه . ولكن الآخر لم يعد ينتبه اليه . بل فتح احدى العلبتين عنوة بأصابعه الملهوفة مفتضا أختام الغلاف الخارجى للعلبة . ثم أخرج منها سيجارة وضعها بين شفتيه . وأخرج من جيبه عود ثقاب حكه بجدار الكابينة . وبعدما استنشق ملء فمه من الدخان ثم نفثه من خلال أنفه عاود وقفته المترقبة عند فرجة الباب .

ثم ما لبث ان قال لآجوستينو وهو يشير اليه ليتبعه ـ «هيا فلنذهب» فغادرا الكابينة أحدهما فى اثر الآخر • وعندما بلغا الشاطىء اتجه برتو مباشرة الى الطريق الممتد خلف صف من كبائن الاستحمام •

وفيما هما يسيران على الرمل الملتهب بين شجيرات القش والحسك الصغيرة قال له ـ ـ « نحن الآن ذاهبان الى الكهف، فقد مروا بنا •• وهم الآن يبحثون عنى بعيدا • »

فسأله آجوستينو قائلا ـ وأين الكهف ؟

فأجابه الصبى قائلا : فى بانيو فسيوتشى Bagno Vespucci

كان ممسكا بالسيجارة بين أصبعيه مباهيا بها وكأنه يستعرضها وهو يستنشق فى نهم نفثات كبيرة من الدخان • ثم سأله قائلا : « ألا تدخن ؟ »

فقال آجوستينو وقد انتابه الخجل من الاعتراف بأنه لم يحلم قط بالتدخين ـ « لست مغرما به • » ولكن برتو ضحك قائلا ـ « لم لا تقول فى صراحة أن أمك لاتسمح لك بذلك ؟ كن صادقا • » وكانت لهجته أقرب الى الاحتقار منها الى الصداقة • ثم قدم سيجارة الى آجو ستينو قائلا ـ « هيا فلتدخن أنت أيضا • »

كانا قد استقبلا البحر وهما يمشيان على الصخور المسننة بين أحواض الزهور الجافة • ووضع آجوستينو السيجارة بين شفتيه وسحب منها بضعة أنفاس مستنشقا قليلا من الدخان الذى عاد فطرده فى الحال بدلا من أن يبتلعه •

فضحك برتو فى سخرية قائلا :

ـ « أتسمى هذا تدخينا ؟ ماهكذا يدخنون • انظر • »

ثم أخذ السيجارة واستنشق دخانها فى عمق وهو لايفتأ يدير عينيه المتجهمتين وفغر فاه على سعته بالقرب من عينى آجوستينو الذى لم ير فيه شيئا سوى لسانه الملتوى الى أعلى فى آخره •

قال برتو وهو يطبق فاه مرة أخرى ـ « والآن أنظر • » ثم نفث سحابة من الدخان فى وجه آجوستينو مباشرة • فسعل

١ ـ بانيو فسيوتشى Bagno Vespucci
احدى منشآت الاستحمام

وضحك فى عصبية فى الوقت نفسه . وقال برتو ـ « والآن جاء دورك » .

ومرت بهما ترام وهو يصفر بينما تتطاير ستائره خافقة فى مهب الريح . وعاد آجوستينو فاستنشق نفسا آخر وابتلع الدخان باذلا فى ذلك جهدا كبيرا . ولكنه اخطأ الطريق فاصيب بنوبة رهيبة من السعال . فتناول منه برتو السيجارة ثم لطمه على ظهره لطمة هائلة قائلا ـ « عوفيت ! لاشك أنك مدخن . »

وبعد تلك التجربة واصلا سيرهما فى صمت أمام سلسلة كبيرة من منشآت الاستحمام وقد طليت صفوف كبائنها بألوان زاهية وأقيمت المظلات الكبيرة المخططة فى جميع الاتجاهات وأقواس النصر السخيفة . وقد ازدحم الشاطىء فيما بين الكبائن بالمصطافين الصاخبين وعج البحر اللامع المتلألىء بالمستحمين .

قال آجو ستينو الذى أرغم على السير بسرعة ليلحق بصديقه الجديد متسائلا ـ « وأين بانيو فسيوتشى ؟ »

فرد برتو قائلا ـ « انه آخر السلسلة جميعا . »

وبدأ آجوستينو يتساءل عما اذا كان يجدر به أن يعود . ولو أن أمه لم تخرج للنزهة فى الطوف قبل كل شىء فلا ريب أنها الآن تبحث عنه . ولكنه ما ان تذكر الصفعة حتى هدأت وساوسه . وكاد يشعر أنه بمصاحبته برتو كان يثأر لنفسه بطريقة غامضة لها مايبررها .

وفجأة توقف برتو قائلا ـ « ما قولك فى أن تخرج الدخان من أنفك ؟ هل يمكنك ان تفعل هذا ؟» فهز آجوستينو رأسه ولكن رفيقه الذى يمسك بعقب السيجارة بين شفتيه استنشق الدخان ثم نفثه من خلال منخريه وأردف قائلا ـ « والآن سأنفث الدخان من خلال عينى . ولكنك يجب ان تضع يدك على صدرى وتنظر مباشرة الى وجهى » . فاتجه اليه آجوستينو فى سذاجة تامة ووضع يده على صدره ثم ركز عينيه على عينى برتو منتظرا أن يرى الدخان خارجا منهما .

ولكن برتو فى حركة غادرة ضغط بالسيجارة المشتعلة فى قسوة على ظهر يده وألقى بالعقب بعيدا وهو يقفز فرحا ويصيح قائلا ــ « آه ! ايها الأبله الغبى • انك لا تعرف شيئا • »

وخطر لآجوستينو فى أول الأمر وقد أوشك الألم ان يعمى بصره ان يرتمى على برتو ويضربه • ولكن برتو وكأنه كان يتوقع ذلك وقف ساكنا قابضا يديه • وبلكمتين هائلتين فى معدة آجوستينو أوشك ان يذهب انفاسه • ثم قال فى وحشية ــ «لست من أنصار الكلام •فان شئت الضرب كان لك ما تريد• فاستشاط آجوستينو غضبا واندفع نحوه مرة أخرى • ولكنه أحس بضعف شديد وتحقق من هزيمته • فقد أمسكه برتو عندئذ من رأسه وطواه تحت ذراعه حيث أوشك أن يخنقه • ولم يحاول آجوستينو مقاومته بل توسل اليه بصوت مخنوق أن يطلق سراحه • فتركه برتو ووثب الى الخلف مثبتا قدميه على الأرض ومتحفزا للنزال • ولكن آجوستينو سمع طقطقة فقار عنقه وقد اذهلته وحشية الصبى الخارقة للعادة • وبدا له من غير المعقول او المقبول أن يعامل فجأة بمثل هذه القسوة الوحشية المتعمدة رغم رقته مع الجميع • وكان احساسه بالدهشة لتلك القسوة يفوق مشاعره الأخرى جميعا • فقد غمره ذلك الشعور ولكنه كاد فى نفس الوقت ان يفتتن به لجدته وبشاعته •

فقال له وهو يلهث : « ولكننى لم اوذك فى شىء بل اعطيتك هذه السجائر •• وانت •• » ولم يسعه أن يتم حديثه •فقد اغرورقت عيناه بالدموع • فرد برتو قائلا ــ « آه • أيها الطفل البكاء •• أتريد ان تسترد سجائرك ؟ أنا احتاج اليها •• فلتعدها الى أمك » •

فقال آجوستينو وهو يهز رأسه فى حزن ــ « لايهم هذا • قلت ذلك فقط لكى اقول شيئا • فأرجو أن تحتفظ بها • »

فقال برتو : « حسنا • اذن فلنواصل طريقنا •• لقد أوشكنا على الوصول • »

ولشد ما تألم آجوستينو من حرق يده • فرفعها الى شفتيه وهو ينظر حوله • وقد اقفر هذا الجزء من الشاطىء الا من عدد

قليل جدا من كبائن الاستحمام لا تتجاوز فى مجموعها خمسا أو ستا وقد تفرقت هنا وهناك تفصل كلا منها عن الاخرى مسافة صغيرة • كما كانت هناك أكواخ حقيرة من الخشب الخشن وفيما بينها اقفرت الرمال من الناس وكذلك خلا البحر من المستحمين ولم ير على الشاطىء سوى بضع نساء فى ظل قارب بعيد عن متناول المد وقد وقف بعضهن وتمدد البعض الآخر على الرمال وكن جميعهن يرتدين ملابس عتيقة للاستحمام طالت سراويلها التى تحدها من اسفل حاشية بيضاء • وكن جميعا مشغولات بتجفيف أجسامهن وتعريض أطرافهن البيضاء للشمس • وقد علقت لافتة مطلية باللون الأزرق كتب عليها ما يلى : « بانيو آمريجو فشيوتشى •» وثمة كوخ خفيض أخضر كان من الواضح انه يخص الغواص دفن حتى نصفه فى الرمال •• وقد امتد الشاطىء على مدى البصر فيما وراء بانيو فسيوتشى خاليا من كبائن الاستحمام أو البيوت بل مقفرا موحشا ليس به سوى الرمال التى تعصفها الريح فيما بين البحر الأزرق اللامع وأشجار الصنوبر ذات الخضرة المغبرة •

وقد اخفت الكثبان الرملية التى ارتفعت قليلا فى تلك المنطقة جانبا كاملا من جوانب كوخ الغواص ومن فوق قمة تلك الكثبان ظهرت للعيان خيمة مرقعة حمراء صدئه باهتة بدت مصنوعة من قماش شراع قديم • وقد شدت تلك الخيمة من أحد طرفيها بعمودين ثبتا فى الرمل ومن الطرف الآخر بالكوخ •

قال برتو ـ « ها هو كهفنا • »

وتحت الخيمة جلس رجل الى منضدة متداعية يشعل سيجارة • وتمدد من حوله على الرمال صبيان أو ثلاثة • ووثب برتو وثبة محلقة ثم هبط عند قدمى الرجل صائحا : « الكهف ! » واقتراب آجوستينو فى شىء من الخجل وقال برتو مشيرا اليه « هذا بيننا » وقد أدهشه أن يدعى سريعا بذلك اللقب • فانه لم يخبر برتو بأنه ولد فى بيزا الا قبل ذلك بخمس دقائق • ورقد آجوستينو على الارض بجانب الآخرين ولكن الرمل لم يكن نظيفا كما كان على الشاطىء • فقد اختلطت

به قطع من قشر جوز الهنـد ومن نشـارة الخشـب وشـظايا الخزف وجميع انواع النفايات . كما تجمد الرمل هنا وهناك في أقراص من أثر دلاء الماء القذر الذي كان يلقى به من الكوخ .

ولاحظ آجوستينو أن الصبية وكانوا أربعة في مجموعهـم قد رثت ثيابهم .. فمن الواضح أنهم كانوا مثل برتو من أبناء البحارة أو الغواصين .. وانفجـر برتو قائلا دون أن يلتقط أنفاسه . « انه كان في اسبرانزا .. ويود لو انضم الينا في لعبة عسكر وحراميه ولكننا فرغنا منها .. أليس كذلك ؟ .. قلت لك ان اللعبة ستنتهي . »

وانبعثت عندئذ صيحة تقول : هـذا ليس من العدل ! هذا ليس من العدل ! .. فتطلع اجو ستينو ببصره ورأى جماعـة أخرى من الصبية يجرون نحوهم قادمين من ناحية البحر وربما كانوا يمثلون الشرطة .. وجاء في مقدمتهم شاب مكتمل ممتلىء البنية في حوالي السابعة عشرة من عمره يرتدي ثوب الاستحمام ومن خلفه رأى اجو ستينو زنجيا فدهش لذلك ايما دهشـة ثم جاء ثالث وكان أشقر وقد لاح لآجوستينو من هيئته وجمال تكوينه أنه حظى بتربية أفضل من الاخرين .. ولكنـه عندما اقترب منهم دل ثوب استحمامه المهلهل الذي تملؤه الثقـوب وما ارتسم على وجهه الوسيم ذي العينين الزرقاوين من غلظـة وخشونة على أنه هو أيضا كان ينتمي الى نفس الطبقـة .. وفي أعقاب هؤلاء الصبية الثلاثة جاء أربعة آخرون وجميعهم في نفس السن تقريبا بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة .. أما الفتى الضخم المكتمل فكان يكبرهم بكثير حتى بدا غريبا في أول الامر أن يختلط بمثل هؤلاء الاطفال .. ولكن وجهه الشـاحب الذي كان في لون الخبز اللين وملامحه الغليظـة الخاليـة من التعبير وغباءه الذي يكاد يكـون فظا قاسيا ـ كل ذلك فسر اختلاطه بتلك الجماعة .. وغاص عنقه بين كتفيه حتى كـاد يختفي وكان بدنه الناعم الاملس يتساوى عرضه عند الخصر والردفين بعرضه عند المنكبين . صاح في برتو قائلا :

ـ لقد اختبأت في كبينة ، أتجسر على أن تنكر هـذا ؟.. والكبائن محظورة طبقا لقواعد اللعبة ..

فأجابه برتو قائلا بنفس اللهجة العنيفة : « هذا كذب » ثم أردف قائلا وهو يستدير فجأة نحو اجوستينو : أليس كذلك يابيزا ؟ .. أنا لم اختبىء فى كابينة .. أليس كذلك ؟ .. بل وقف كلانا بجانب كوخ اسبرانزا حيث رأيناكم تمرون أمامنا .. أليس كذلك يابيزا ؟ .

فقال اجو ستينو الذى عجز عن الكذب : ولكنك اختبأت فعلا فى كابينتى .. وأنت تعلم ذلك ..

فصاح الآخر قائلا وهو يلوح بقبضته أسفل أنفه :سأهشم رأسك .. أيها الكذاب .

فصرخ برتو فى وجه آجواستينو قائلا : أيها الواشى .. قلت لك أن تبقى حيث كنت .. عد الى أمك .. فهذا هو مكانك ..

واستبد به غضب جامح .. غضب وحشى حار له آجوستينو وتولته الدهشة .. ولكن الحركة التى أتاها لعقابه أسقطت احدى علبتى السجائر من جيبه .. فانحنى ليلتقطها ولكن الفتى الضخم كان أسرع منه اذ انقض على العلبة حانيا ظهره ثم رفعها ملوحا بها فى الهواء وهو يصيح فى انتصار قائلا :

ـ سجائر ! .. سجائر ! ..

فصاح برتو مرتميا عليه وهو يقول :

ـ ردها لى .. فهى ملكى .. لقد أعطانيها بيزا .. فلتردها لى ..

فخطا الآخر خطوة الى الخلف وانتظر حتى يصبح برتو فى مرمى ضرباته .. ثم أطبق بفمه على علبة السجائر وانهال عليه لكما بقبضته فى معدته بطريقة منتظمة .. وفى النهاية ركل قدميه من تحته فطرحه أرضا فى دوى واستمر برتو فى صياحه وهو يتدحرج على الرمل : فلتردها لى ! .

ولكن الفتى الضخم هتف قائلا وهو يضحك ضحكة حمقاء :

ـ لديه المزيد منها .. فلتنقضوا عليه أيها الصبية ..

وارتمى عليه الصبية فى اجماع دهش له اجوستينو .. ولبث لحظة لايرى فيها سوى كتلة من الأجساد المتعانقة التى لم تفتأ تتلوى وسط سحابة من الرمال عند قدمى الرجل وهو جالس

الى المنضدة يدخن فى هدوء .. وأخيرا تخلص من تلك الكومة ذلك الصبى الاشقر الذى بدا انه اسرعهم حركة ونهض واقفا وهو يلوح في انتصار بعلبة السجائر الثانية .. ثم نهض الباقون جميعا أحدهم في أثر الاخر وكان آخرهم برتو الذى تشنج وجهه القبيح من شدة الغضب .. ثم جأر يقول وهو يهز قبضته باكيا : أيها الخنازير .. أيها اللصوص ..

وكان انطباعا غريبا جديدا على ذهن اجو ستينو ان يرى معذبه يسام العذاب بدوره ويعامل بلا رحمة كما عومل هو منذ حين .. وصرخ برتو مرة اخرى قائلا : أيها الخنازير .. ايها الخنازير . فانبرى له الفتى الضخم وهوى على أذنه بصفعة مدوية رقص لها رفاقه طربا .. وقال له : أتطلب المزيد ؟ .. فاندفع برتو كالمجنون الى ركن الكوخ حيث انحنى ممسكا بحجر ضخم بكلتا يديه وقذف به عدوه الذى وثب جانبا ليتحاشاه وهو يصفر فى سخرية .. ثم صرخ برتو قائلا مرة أخرى وهو مازال يبكى غضبا : أيها الخنازير . ولكنه انسحب فى حكمة منزويا خلف أحد اركان الكوخ .. وكان نشيجه غاضبا مدويا وكأنه ينفس عن مرارة مخيفة .. ولكن رفاقه انصرفوا عنه .. فقدتمددوا جميعهم على الرمال مرة اخرى .. وفض الفتى الضخم احدى علبتى السجائر كما فتح الصبى الاشقر العلبة الاخرى .. وفجأة قال الرجل الذى ظل جالسا الى منضدته الصغيرة دون أن يتحرك : الى بهذه السجائر .

فنظر اليه اجو ستينو .. كان رجلا بدينا طويل القامة يناهز الخمسين منعمره ذا وجه بارد تبدو عليه طيبةخداعة. كان أصلع الرأس ذا جبهة غريبة على شكل السرج وعينين لامعتين وأنف أحمر أقنى ذى منخرين واسعين تملؤهما شعيرات قرمزية صغيرة بغيضة المنظر وله شارب مهدل يختفى تحته فم معوج يضع بين شفتيه سيجارا .. وكان يرتدى قميصا باهت اللون وسروالا قطنيا أزرق تدلت احدى ساقيه حتى مفصل قدمه وارتفعت الاخرى مطوية الى اسفل ركبته .. والتف حول بطنه حزام عريض اسود .. وثمة شيء بالذات زاد من احساس اجو ستينو الاول بالنفور هو أن « سارو » ــ فهكذا كان

يدعى ـ بلغت اصابع يده الواحدة ستا بدلا من خمس فتضخم حجمهما وبدت أصابعه كالحسكات القصـــيرة . ولم يستطع اجو سنينو أن يحول عينيه عن هاتين اليدين فلم يمكنـــه أن يقرر ما اذا كانت الاصبع السادسة سبابة أو وسطى أو بنصرا .. فقد بدت جميعها متساوية فى الطول ماعدا الخنصر التى نتأت من يده كما ينبت الغصن الصغير فى اسفل جذع شجرة معقدة .. أخرج سارو السيجار من فمه وردد قائلا فى بساطة :

ـ ماذا عن هذه السجائر ؟ .

فنهض الصبى الاشقر ووضع العلبة على المنضدة .. فقـال سارو : أحسنت ياسندرو .

وصاح الفتى الكبير فى تحد قائلا :

ـ ولنفرض اننى لم أعطك اياها ؟

فانبعثت فى الحال عدة اصوات تقول : اعطه اياها ياتورتيما .. يحسن بك أن تفعل ..

فنظر تورتيما حوله ثم التفت الى سارو الذى ركز عليـه عينيه الصغيرتين مغضيا اياهما وواضعا يده اليمنى بأصابعها الست على علبة السجائر .. ثم جاء الفتى ووضع علبته أيضا على المنضدة وهو يقول :

ـ حسنا .. ولكن هذا ليس عدلا .

فقال سارو فى صوت رقيق لطيف :

ـ والان سأوزعها .

فتح سارو احدى العلبتين وهو يزر عينيه الى اعلى دون ان يبعد سيجاره عن فمه .. وأخرج منها سيجارة بأصابعه القصيرة الغليظة العديدة التى بدت عاجزة عن أن تمسك بها ثم ألقى بها الى الزنجى قائلا : خذ ياحمص .. ثم اخرج اخرى ألقى بها الى صبى اخر وثالثة القى بها بين كفى ساندرو المضمومتين ورابعة القى بها فى وجه تورتيما الهادىء العنيد ـ وهكذا فعل مع الباقين جميعا .. وسأل جرتو الذى انقطعت شهقاته الباكية وعاد فى صمت لينضم الى الباقين قائلا : أتريد واحـدة ؟ .. فأومأ برأسه فى عبوس فألقى اليه بواحدة . وبعد ما أخذ كل سيجارته أوشـــك سارو أن يغلق العلبة التى كانت لا تزال

مملوءة حتى نصفها عندما توقف قائلا لآجوستينو ـ « وماذا عنك يا بيزا ؟ » وأراد آجو ستينو أن يرفض لولا أن برتو لكزه فى ضلوعه هامسا ـ « أطلب سيجارة أيها الأبله فسندخنها معا فيما بعد » فطلب آجو ستينو واحدة وهكذا أعطى هو أيضا سيجارة • ثم أغلق سارو العلبة •

وصاح الصبية جميعا قائلين فى صوت واحد : وماذا عن الباقي ؟ وماذا عن الباقي ؟ •

فأجاب سارو فى هدوء قائلا ـ « الباقي ستأخذونه فى يوم آخر • خذ هذه السجائر يا بيزا وضعها فى الكوخ •• وساد صمت مطبق • فتناول آجو ستينو العلبتين فى عصبية شديدة ثم اتجه الى الكوخ متخطيا أجساد الصبية الممددة على الارض وبدا له أن الكوخ يتألف من غرفة واحدة فقط وراقه صغر حجمه الذى أضفى عليه جو القصص الخرافى • وكانت الغرفة ذات سقف خفيض يتألف من عروق خشبية طليت باللون الأبيض • أما الجدران فكانت تتألف من ألواح خشبية غير مستوية او ممهدة • وقد انتشر فى الغرفة ضوء هادىء من خلال نافذتين دقيقتين تامتى الشكل بقاعدتيهما وألواحهما الزجاجية الصغيرة المربعة ومزلاجيهما وستائرهما بل ازدانتا أيضا باناء به زهرتان • وكان يشغل احدى زوايا الغرفة فراش مرتب منسق ارتدت وسادته حلة نظيفة ووضع فوقه غطاء أحمر • وفى زاوية أخرى وضعت منضدة مستديرة وثلاثة مقاعد خفيضة بلا مساند • كما وضعت فوق السطح الرخامي لخزانة كبيرة زجاجتان من ذلك النوع الذى يوضع فى داخله قوارب شراعية او بخارية • وعلقت فى خطاطيف على جدران الغرفة جميعها أشرعة كبيرة وعدد من المجاديف وبعض الادوات البحرية الاخرى • وخطر لآجو ستينو كيف أنه يود لو امتلك كوخا مريحا هادئا كهذا • واتجه الى المنضدة حيث وجد وعاء خزفيا مشروخا مليئا بأعقاب كبيرة من السجائر فوضع العلبتين وخرج مرة أخرى الى ضوء الشمس •

كان جميع الصبية منبطحين على الرمال حول سارو وهم يدخنون فى استعراض هائل لمتعتهم بينما تناول نقاشهم أمرا

بدا أنهم لم يتفقوا عليه • وكان ساندرو عندئذ يقول لهم : أقول لكم انه هو •

وقال صوت معجب : ان أمه قطعة من الجمال الحق • فهي أجمل نساء الشاطئ قاطبة • وقد تسللنا أنا وحمص ذات يوم الى أسفل الكابينة لكي نشاهدها وهي تخلع ملابسها ولكن قميصها سقط تماما فوق الشق الذى كنا نختلس النظر من خلاله فلم نستطع أن نرى شيئا على الاطلاق • ان ساقيها ـ يا الهى ـ وثدييها •••

وقال صوت ثالث : ولكن زوجها لايرى مطلقا فى أى مكان •

ـ فليطمئن بالك • فهي ترفه عن نفسها •• أتدرى مع من ؟ ذلك الشاب الذى يأتى من فيلا سوريزو •• الشاب الأسمر • فهو يصحبها يوميا فى الطوف •

فقال أحدهم فى خبث : ولكنها لاتقتصر عليه وحده • فهى على استعداد لمصاحبة أى شاب •

وقال آخر فى اصرار : ولكنى أعلم انه ليس هو •

فقال ساندرو فجأة : قل لى يابيزا •• أليست أمك هى تلك السيدة التى ترى فى اسبرانزا ؟ امرأة سمراء طويلة القامة والساقين ترتدى ثوب استحمام مخططا يتألف من قطعتين •• ولها شامة على الجانب الأيسر من فمها •

فقال آجوستينو فى عصبية : نعم •• ولماذا ؟

فصاح برتو بلهجة المنتصر قائلا : انها هى • انها هى • ثم انفجر قائلا فى حقد غيور « وانت ستارهما فحسب • أليس كذلك ؟ فأنتم جميعا تخرجون معا للنزهه انت وامك وعشيقها فأنت ستارهما أليس كذلك ؟ » •

عندئذ ضج الجميع بالضحك • حتى سارو فانه ابتسم من تحت شاربه • وقال آجوستينو وقد احمر وجهه دون أن يستوعب المعنى المقصود تماما : لست أدرى ماذا تعنى • وأراد أن يحتج لولا أن نكاتهم الفظة أثارت فى نفسه احساسا غريبا مفاجئا بالرضا السادى • وكان هؤلاء الصبية بما يقولونه على غير وعى منهم ألبتة يثأرون لما ألحقته به أمه من مهانة ومذلة طوال تلك الايام الاخيرة • وفى نفس الوقت عقد

الرعب لسانه لسعة اطلاعهم على شئونه الخاصة .
وعاد الصوت الخبيث نفسه يقول : أيها الحمل الصغير السـاذج .

ثم قال تورتيما في جدية سـاخرة : يشوقنى أن أعلم ماذا يفعلان . فهما دائما يذهبان الى عرض البحر . هيا اخبرنا ماذا يفعلان . أيقبلها . هه ؟ .
ثم رفع ظهر يده الى شفتيه وطبع قبلة مدوية .

فقال آجو ستينو وقد احمر وجهه من الخجل : حقـا فنحن نتوغل فعلا الى عرض البحر لنستحم .
فانبعثت عدة أصـوات تقول متهكمة في وقت واحـد : آه نعم لتستحموا .
ـ نعم .. فان أمى تستحم فعلا وكذلك رنزو .
فأمن الصبى على قوله وكأنه يسـتعيد خيطا مفقـودا في ذاكرته قائلا :
ـ اه نعم ـ رنزو ـ هذا هو اسـمه .. رنزو ذلك الشاب الطويل الاسمر .
فسأله برتو فجأة وقد استرد هدوءه تماما قائلا :
ـ وماذا يفعلانمعا ؟ .. رنزو وأمك .. أهذا هو مايفعلانه ؟
ثم أتى بيده حركة معبرة وأردف قائلا :
ـ وأنت تشاهدهما فحسب .. هه ؟ .
فردد اجو ستينو قائلا وهو يتلفت حوله وفى عينيه نظـرة رعب : أنا ؟ .

فأنفجر الجميع ضاحكين وكتموا ضحكاتهم في الرمال .. ولكن سارو ظل يراقبه في انتباه دون أن يتحـرك .. تلفت اجو ستينو حوله في يأس وكأنه يستجدى العون .
وبدا أن سارو قد استوقفته نظرته .. فأخرج سيجارهمن فمه قائلا :
ـ ألا ترون أنه لايدرى شيئا ألبتة .

فلم يلبث أن هدأ الضجيج في الحال .. وقال تورتيما الذى لم يفهم مقصده : ماذا تعنى بقولك انه لايدرى شيئا ؟ .

فردد سارو قوله فى بساطة قائلا :
ــ أعني انه لايدرى شيئا ..

ثم التفت الي آجوستينو وقال له فى صوت أرق : تكلم يابيزا .. الرجل والمرأة ماذا يفعلان معا ؟ ألا تدرى ؟.

فانصت الجميع وقد انبهرت أنفاسهم .. وحدق اجو ستينو فى سارو الذى ظل يدخن وهو يراقبه من خلال جفنيه المتقاربين ثم تصفح وجوه الصبية وكانت ضحكاتهم المكتومة لاتخفى عليه ثم ردد قائلا فى آلية من خلال سحابة بدا أنها تحجب بصره :
ــ الرجل والمرأة ؟ .

فقال برتو فى قسوة موضحا : نعم أمك ورنزو .
وأراد اجو ستينو ان يحذره قائلا : لاتتحدث عن أمى .. ولكن السؤال أثار فى نفسه حشدا كبيرا من الاحاسيس والذكريات فانتابه اضطراب شديد لم يستطع معه ان يقول شيئا على الاطلاق .. وفجأة قال سارو وهو ينقل سيجاره من احدى زاويتى فمه الى الاخرى .. انه لايدرى .. من منكم أيها الصبية يشرح له ؟ .. فنظر اجو ستينو حوله وهو حائر مذهول .. أحس وكأنه فى مدرسة ولكن ما أغربه من مدرس .. وما أغربهم من زملاء .. صاح الصبية جميعا فى صوت واحد قائلين .. أنا ــ أنا ــ أنا .. ونظر سارو فى شك الى جميع هذه الوجوه التي كانت تلتهب حماسا لتأخذ الكلمة .. ثم قال : انكم جميعا فى الحقيقة لاتدرون شيئا كذلك .. لاشىء سوى الاقاويل والروايات .. فليشرح له منكم من اطلع حقا على مايدور بينهما .. ورآهم اجو ستينو جميعايتبادلون النظرات فى صمت ..ثم قالأحدهم : «تورتيما» فأشرقوجه الفتى بالزهو والخيلاء .. وما كاد يهم بالنهوض حتى قال برتو بصوت تحمل نبراته الكراهية والبغض : كل مايعرفه من نسج خياله .. فلن يقول سوى اكاذيب .

فصاح تورتيما قائلا وهو يهاجم برتو : أكاذيب ؟ .. ماذا تعنى ؟ .. انك أنت الكذاب يابن الخنا ..

ولكن برتو عندئذ كان أسرع منه وأخذ يعوج له وجهه من خلف ركن الكوخ ويخرج له لسانه وقد شاه وجهه الاحمر الانمش بالكراهيــة والبغض .. واكتفى توزنيما بأن هــدده بقبضته صائحا : أتحـداك أن تعود .. ولكن تدخــل برتو أضاع عليه الفرصة بطـريقة ما وأجمع الصبية عـلى اختيار ساندرو .. فتقدم ساندرو وسيما رشـيقا الى داخــل الدائرة التى صنعها الصبية بأجسادهم الممددة على الرمل وقد عقــد ذراعيه على صدره العريض الاسمر حيث كانت تلمع شعرات ذهبية قليلة .. ولاحـظ آجواســتينو انساقيه الـقــويتين البرونزيتين بدتا وكأنهما مكسوتان بطبقة من ذرات الذهب كما ظهرت أيضا بضع شعرات من خلال فتحتى لباس الاستحمام الذى كان يرتديه .وقال فى صوت قوى واضح ان الامر بسيط للغاية. ثم أوضح لاجوستينو فى تؤدة مستعينا ببعض الحركات المعبرة فى غير ابتذال تلك الاشياء التى كان يحس هو وقتئذ انه كان دائما على علم بها ولــكنه نسيها على صورة ما كما يحدث أثناء النوم العميق ، وأعقبت شرح ساندرو ايضــاحات أخـــرى أقل اتزانا .. فقد أتى بعض الصبية حركات مبتذلة بأيديهم وردد البعض الآخر فى أذنى آجوستينو كلمات نابية لم يسمعها قط فى حياته .. وقال اثنان منهما .. سنريه ما يفعلان .. ثم قدما عرضا على الرمل الساخن وهما يتدافعان ويتلويان متعانقين وانسحب ساندرو بعيدا لينتهى من تدخين سيجارة وهو راض عن نفسه لنجاحه فى اداء مهمته .. وحالما هدأت الضجـــــة قال سارو لاجوستينو : والآن هل فهمت ؟.. فأومأ أجوستينو برأسه .. ولكنه فى الحقيقة لم يفهم الفكرة بقدر ما تشربهـا كما يتشرب الانسان الدواء أو السم الذى لايظهر مفعوله فى عقله الخاوى الحائر المعذب ، بل فى مكان آخر من كيانه ، فى قلبه المحزون أو فى اعماق صدره حيث تلقاها فى دهشـــــة .. كانت اشبه بشىء باهر متألق يخسأ دونه البصر لشدة اشعاعه فلا يسع المرء الا ان يتكهن بحجمه الحقيقى . أحس بها كشىء كان يمتلكه دائمــا ولــكنه لم يحس به فى دمــه الا فى تلك اللحظــة .

ثم سمع شخصا يقول بالقرب منه : رنزو وأم بيزا •• سأكون أنا رنزو وأنت أم بيزا •• هيا فلنجرب • فاستدار فجأة ليرى برتو وهو ينحنى لصبى اخر بحركة مرتبكة متكلفة قائلا : سيدتى هل تمنحينى شرف اصطحابك معى فى الطوف ؟ فأنا ذاهب للاستحمام وسنصحب معنا بيزا • وفجأة استبد به غضب أعمى فارتمى على برتو صائحا : اياك ان تنال من أمى •• ولكنه قبل ان يعى ماحدث وجد نفسه راقدا على ظهره فوق الرمل وقد ضغط عليه برتو بركبته وانهال على وجهه لكما بقبضته •• فأراد ان يبكى ولكنه جاهد ليحبس دموعه لادراكه أنها لن تزيد على أن تثير مزيدا من السخرية والتهكم • فغطى وجهه بذراعه ورقد ساكنا سكون الموت •• فلم يلبث أن تركه برتو •• وذهب اجو ستينو ليجلس عند قدمى سارو يراوده شعور بأنه لشد ماأسيئت معاملته وقد شغل الصبية فعلا بحديث اخر •• وقال احدهم فجأة لاجوستينو :

ـ هل أنتم من الاثرياء ؟

وذعر اجو ستينو فلم يكد يدرى ماذا يقول •• ولكنه اجاب قائلا :

ـ أظن ذلك •

ـ كم تبلغ ثروتكم ؟ •• مليونا ؟ مليونين ؟ ثلاثة ملايين ؟

فقال اجو ستينو وهو يشعر بضيق شديد : لست أدرى •

ـ وهل تملكون منزلا كبيرا ؟ •

فقال اجوستينو : نعم •

وما ان اطمأن الى حد ما الى ان الحديث قد اتخذ اتجاها اكثر مجاملة حتى حفزته كبرياء الامتلاك الى أن يردف قائلا : ولدينا عشرون غرفة •

فصاح احدهم غير مصدق قائلا : يا •• •• •• ••

ـ فلدينا غرفتان للاستقبال ثم غرفة مكتب والدى •••

فقال صوت فى احتقار : اها ! •

فأسرع اجو ستينو قائلا يراوده بعض الامل فى اثارة شىء من العطف فى نفوسهم : أو بالاحرى الحجرة التى كانت غرفة مكتبه •• فقد وافاه الاجل •

وساد الصمت لحظة ثم قال تورتيما ـ اذن فأمك أرملة ..
فانبعثت عدة أصوات تقول فى سخرية ـ حسنا .. طبعا .
فاحتج تورتيما قائلا : ولكن هذا لايعنى شيئا .. فربما تزوجت مرة اخرى .

فقال اجو ستينو ـ كلا انها لم تتزوج مرة اخرى .
ـ وهل لديكم سيارة ؟
ـ نعم .
ـ وسائق .
ـ نعم .

فصاح احدهم قائلا : قل لامك اننى على أتم استعداد لاكون سائقها .

فسأله تورتيما الذى بدا مأخوذا بقصة اجو ستينو اكثر من أى شخص اخر قائلا :

ـ وماذا تفعلون بغرف الاستقبال .. هل تقيمون حفلات راقصة .

فأجابه آجوستينو قائلا ـ «نعم» فأمى تقيم حفلات استقبال .

فقال تورتيما وكأنه يحدث نفسه ـ « حيث يذهب كثير من الحسناوات بالطبع . كم يبلغ عدد المدعوين ؟ »

ـ « لست ادرى حقيقة . »
ـ « كم ؟ »

فقال آجوستينو الذى كان يحس عندئذ بالراحة التامة وقد سر لنجاحه الى حد ما ـ « عشرين او ثلاثين مدعوا ؟ »

ـ « عشرين او ثلاثين .. وماذا يفعلون ؟ »

فقال برتو متهكما ـ « وماذا تتوقع ان يفعلوا ؟ أعتقد انهم يرقصون ويلهون .. فهم أغنياء .. وليسوا مثلنا . كما اعتقد انهم يمارسون الحب . »

فقال آجوستينو فى صدق لكى يظهر لهم انه على علم تام بمقصدهم :

ـ « كلا انهم لا يمارسون الحب . »

وبدا ان تورتيما كانت تساوره فكرة لم يوفق فى التعبير عنها . وأخيرا قال : « ولكن لنفرض اننى ظهرت فى احد هذه

الاستقبالات قائلا : هأنذا قد جئت أيضا · فماذا انت فاعل ؟
وفيما هو يتكلم نهض واقفا وتقدم فى وقاحة واضعا يديه على حقويه وقد برز صدره · فانفجر الصبية ضاحكين · وقال آجوستينو فى بساطة وقد شجعه ضحك الصبية ـ « اطلب اليك ان تنصرف · »

ـ « ولنفرض اننى رفضت · »

ـ « اكلف رجالنا بطردك · »

ـ « هل لديكم خدم من الرجال · »

ـ « كلا · ولكن امى تستأجر السقاة عندما تقيم حفل استقبال · »

١

فقال احدهم لصبى آخر وكان واضحا انه ابن احد السقاة : « كأبيك تماما · »

فقال تورتيما مهددا فى اصرارا وهو يتقدم نحو آجو ستينو مديرا قبضته فى الهواء مرارا وتكرارا وكأنه يريد أن يشم رائحتها : « ولنفرض اننى قاومت وجدعت أنف هذا الساقى ثم تقدمت الى وسط الغرفة وصحت قائلا ـ « انتم حفنة من الأوغاد والعواهر جميعكم دون استثناء · فماذا تقول ؟ » ولكن الصبية جميعا انقلبوا عندئذ على تورتيما لا رغبة منهم فى حماية آجوستينو بل فى استزادته ليروى لهم مزيدا من التفاصيل عن ذلك الثراء الأسطورى ·

فانبعثت الصيحات من كل جانب قائلة ـ « دعه وشأنه ·· عندئذ يقذفون بك الى الخارج · وحسنا يفعلون · » وقال برتو ساخرا ـ « وما شأنك بهذا ؟ فأبوك ملاح وسوف تحذو حذوه ولو فرض انك ظهرت فعلا فى منزل بيزا لما سمع لك صوت بالطبع » ثم أردف قائلا « بل يمكننى أن أتمثلك · » ثم نهض مقلدا تورتيما كما يتصوره فى منزل آجو ستينو وقد ضربت عليه الذلة قائلا : « ·· معذرة · هل السيد بيزا هنا ؟ معذرة ·· لقد جئت لتوى ·· آه لا يمكنه مقابلتى ·· لايهم ·· ارجو المعذرة ·· آسيف للغاية ·· سأحضر مرة أخرى ·· ·· آه ! يمكننى انأتمثلك ·· فستبلغ هامتك الارض وانت تنحنى مودعا · »

فانفجر الصبية جميعاضاحكين • ولما كان تورتيما غبيابقدر ما كان قاسيا فانه لم يجسر على الصمود لسخرياتهم اللاذعة • ولكنه كي يثأر لنفسه قال لآجوستينو : «اتباريني فى لعبة الذراع الحديدى ؟ »

فردد آجوستينو قائلا ــ « الذراع الحديدى ؟ »

فقالت عدة اصوات فى استهزاء ــ « انه لايعرف ماهو الذراع الحديدى »

فجاء ساندرو وامسك بذراع آجوستينو وثناه الى اعلى ثم أمره ان يبقى فى مكانه واضعا مرفقه على الرمال ورافعا يده الاخرى فى الهواء بينما انبطح تورتيما على الرمل واضعا ذراعه بنفس الطريقة ثم قال ساندرو « انت تدفع من جانب وتورتيما من الجانب الآخر • »

فأمسك آجوستينو بيد تورتيما الذى اسقط ذراعه بدفعة واحدة ثم نهض منتصرا •

فقال برتو ــ «فلأجرب قوتى معه • » واسقط ذراع آجوستينو بنفس السهولة ثم نهض بدوره وصاح الآخرون جميعا قائلين ــ « وانا ايضا ! وانا ايضا ! » وتغلبوا عليه واحدا فى اثر الآخر • واخيرا جاء دور الزنجي وقال احدهم « اذا تغلب عليك حمص فلا ريب ان ذراعك من عجين • » وصح عزم آجوستينو على مقاومة الزنجي •

وكانت ذراعا الزنجى نحيفتين فى لون البن المحمص • وخيل لآجوستينو ان ذراعيه تفوقانهما قوة • قال حمص فى شجاعة مفتعلة وهو راقد على الرمل فى مواجهته ــ« هيا يابيزا » كان صوته ضعيفا كصوت المرأة • وعندما دنا بوجهه من وجه آجوستينو حتى صار على بعد بوصة واحدة منه لاحظ الأخير ان انفه لم يكن افطس كما هو متوقع بل كاد أن يكون معقوفا ومنطويا على نفسه كحنية من اللحم الاسود اللامع ، وقد علت احد منخريه شامة شاحبة يميل لونها الى الصفرة • كما لم تكن شفتاه عريضتين سميكتين كشفتى الزنجى بل رقيقتين فى لون البنفسج • وقد بدت هامته البارزة المكسوة بالصوف الأسود وكأنها تضغط على عينيه المستديرتين الواسعتى البياض • قال

www.library4arab.com/vb

وهو يضع يده الرقيقة بأصابعها النحيلة ذات الاظافر الوردية في يد آجوستينو ـ « هيا يابيزا ـ فلن اوذيك • » ورأى آجوستينو انه لو رفع نفسه قليلا متحاملا على كتفه امكنه بسهولة ان يضغط بثقله كله على يده • وبذلك استطاع ان يسيطر على حمص فى بادىء الامر • فقد ظلا يصطرعان فترة طويلة دون ان يتغلب احدهما على الآخر وقد اصطف الصبية المعجبون حولهما فى دائرة •• وارتسم على وجه آجوستينو تعبير ينبىء عن شدة التركيز فقد اودع ما يبذله من جهد قوته كلها بينما راح الزنجى يأتى بوجهه حركات مخيفة وهو يطحن اسنانه البيضاء ويزر عينيه الى أعلى • وفجأة انبعث صوت مدهوش يعلن قائلا : « الفوز لبيزا • » ولكن آجوستينو احس عندئذ بألم مبرح ينتقل من كتفه الى ذراعه • فلم يسعه ان يحتمل اكثر من ذلك واستسلم قائلا ـ « كلا • انه اقوى منى • » فقال الزنجى فى صوت معسول بغيض وهو ينهض عن الأرض « ولكنك ستهزمنى فى المرة القادمة •» وسخر تورتيما قائلا ـ « تخيل ان حمص ايضا يهزمك • انك لاتصلح لشىء • » ولكن الصبية الآخرين بدوا انهم سئموا التهكم على آجوستينو فقال احدهم « ما رايكم فى أن نأخذ حماما ؟ » فصاحوا جميعا قائلين ـ « نعم • البحر » وتبعهم آجوستينو عن بعد فرآهم يتقلبون فى الهواء ثم يغوصون كالسمك فى الماء الضحل وهم يطلقون صيحات الفرح وصرخات السرور • وعندما بلغ اجوستينو حافة الماء برز له تورتيما فوق سطح البحر تسبقه عجيزته ، كما لو كان حيوانا بحريا ضخما وصاح قائلا : « فلتغص يابيزا • ماذا تفعل هناك ؟ »

فقال آجوستينو : « ولكننى فى كامل هندامى • »

فرد عليه تورتيما غاضبا : « اذن فلتخلع ملابسك • »

وحاول آجوستينو الهرب ولكن الفرصة فاتته فقد امسك به تورتيما وجذبه نحو الماءوهو لايفتأ يقاوم معذبه ويجذبه معه • ولكنه لم يطلق سراحه الا عندما اوشك على خنقه تحت الماء ثم سبح بعيدا وهو يقول «وداعا يابيزا •» وعلى مسافة قريبة منه امكنه ان يرى ساندرو وقد استقل طوفا وقف فيه وقفة رشيقة وسط

حشد من الصبية كانوا يحاولون ان يتسلقوا العائمتين • وعاد آجوستينو الى الشاطىء لاهثا مبتلا ثم وقف هو وحيدا تحت ضوء الشمس الباهر • ثم اسرع يمشي فوق الرمل المصقول عند حافة الماء عائدا ادراجه الى بانيو سبرانزا •

- ٣ -

لم يتأخر به الوقت كثيرا كما كانت تحدثه مخاوفه • فأمه لم تكن قد عادت بعد عند وصوله الى مكان الاستحمام • وكان الشاطىء قد بدأ يخلو من الناس ولم يبق به سوى فلول من المستحمين الذين مازالوا يتلكأون متفرقين فى الماء الساطع الذى يخطف الأبصار • اما غالبية الناس فكانوا يسيرون متثاقلين فى صف واحد تحت شمس الظهيرة مجتازين الممر المرصوف المؤدى الى الطريق • وجلس آجوستينو تحت المظلة الكبيرة فى انتظار أمه • وخيل له عندئذ ان أمه قد طالت غيبتها اكثر من المعتاد • ونسى ان الشاب قد جاء بطوفة متأخرا عن ميعاده للغاية وان أمه لم تكن ترغب فى الخروج للنزهة وحدها بل هو الذى اختفى • وحدث نفسه قائلا ان أمه وصديقها قد انتهزا فرصة غيابه ليفعلا ما اوحى به سارو والصبية • ولكنه لم يعد يحس بالغيرة من ذلك بل صارت تعتريه هزة فضول غريبة جديدة كما اخذ يخالجه رضا خفى وكأنه هو نفسه شريك فيما يدور • كان طبيعيا للغاية ان تسلك أمه على هذا النحو مع ذلك الشاب وان ترافقه يوميا فى الطوف ثم تلقى بنفسها بين ذراعيه عندما يصيران فى مأمن من العيون المتلصصة • كان ذلك طبيعيا كما صار فى مقدوره الآن ان يتقبل هذه الحقيقة • مرت بذهنه هذه الخواطر وهو جالس ينعم النظر فى البحر منتظرا عودة العاشقين • وأخيرا ظهر الطوف كبقعة لامعة فى البحر • وكلما دنا مسرعا امكنه ان يرى أمه وهي تهبط الى الأرض وان يكتشف بعض مظاهر تلك العلاقة الوثيقة التى طالما شاهد نموها دون ان يفهم شيئا والتى لم يشك فى ان سلوك أمه سيكشف عنها فى وضوح طبقا لايحاءات سارو والصبية • وما ان اقترب الطوف من الشاطىء حتى لوحت له أمه ثم وثبت الى الماء فى مرح ولم تلبث ان

صارت الى جانبه قائلة : « هل انت جائع ؟ سنذهب فى الحال لتناول شىء من الطعام ٠ » ثم اردفت تقـول فى صـوت حان رقيق وهى تستدير لتلوح للشاب ـ « ٠٠ وداعا وداعا ٠ الى الغد ٠٠ » ولاح لأجوستينو انها كانت تبدو اكثر بشرا وسعادة عن مألوف عادتها ٠ وبينما كان يسير فى اثرها عبر الشاطىء لم يسعه الا ان يرى ان وداعها للشاب كانت تتخلله نبرة من نشوة المرح وكأنه قد تم فعلا يومئذ ما كان يحول دون وقوعه حتى ذلك الحين وجودابنها فى صحبتها ٠ ولكن ملاحظاته ووساوسه وقفت عند هذا الحد لأنه بغض النظر عـن مرحهـا الساذج الذى لشد ما كان يتناقض مع وقارها المألوف لم يمكنه ان يتمثل حقا ما كان يرجح وقوعه اثناء نزهتهما او يتخيـل حقيقة العلاقة بينهما ٠ ومع انه تفحص وجهها وعنقها ويديها وجسدها بادراك قاس جديد فقد بدت لعينيه خالية من كل أثر للقبل او المداعبات ٠ وكان آجوستينو يزيد ضيقا وتبرما كلما راقب أمه ٠ فقال لها وهما يقتربان من الكابينة ـ « كنتما اليوم فى خلوه ٠٠ بدونى » قال ذلك والامـل يكاد يراوده فى أن تقـول له أمه « نعم ٠ وهكـذا امكننا اخيرا ان نمارس الحب » ولكن امه بدت انها لم ترفى هذه العبارة سوى انهـا تلميح للصفعة التى وجهتها اليه ثم ركضه بعيدا ٠ فتوقفت عن السير واضعة ذراعها حول كتفيه وهى تنظر اليه بعينيها الضاحكتين الثائرتين قائلة ـ « فلنكف الان عن هذا الحديث ٠ فأنا أعلم انك تحبنى ٠ اعطنى قبلة ولنكف عن الحديث فى هذا الموضوع هه ؟ » وفجأة احس آجوستينو بشفتيه تلثمان عنقها ـ الذى لشد ما استهواه دفؤه وعطره العف ٠ خيل له عندئذ انه احس تحت شفتيه بأثر واهن ضعيف لاختلاج شىء جديد وكأنه رعشة رد فعل حادة لقبل الشاب ٠ ثم ركضت صاعدة درج الكابينة ورقد هو على الرمل يحرق وجهه خجل لم يمكنه ادراك مصدره ٠

واذا به بعـد ذلك وهما فى طريق العودة يقلب فى ذهنـه المضطرب تلك الاحاسيس الغامضة الجديدة ٠ فبينما كانت علاقة أمه بالشاب تبدو له من قبل عنـدما كان يجهل الخير والشر مخضبة بالاثم على صورة غامضة صـار عندئذ بعـد ما فتحت

عيناه على يدى سارو وتلامذته نهبة للشك والفضول الذى لايشبع . وفى الواقع فقد كانت غيرته الصريحة على حبه الصبيانى لأمه هى التى اثارت مشاعره فى أول الأمر . اما الآن فان هذا الحب الذى لم تقل قوته ابدا قد حل محله فى ضوء النهار الواضح القاسى فضول مرير مجرد من الوهم بدت الى جانبه تلك الشواهد القديمة الباهتة تافهة غير كافية . فبينما كان فى الماضى يتأذى من كل كلمة او كل حركة يستشعر نبوها دون ان تكشف له عن شيء ويود لو انه لم يرها اذا بهذه الحركات الصغيرة السخيفة التى كانت تشينه وتصدمه وقد عاد اليها بذاكرته تبدو له الآن امورا تافهة فحسب . وكاد يتمنى لوامكنه ان يفاجيء امه فى بعض المواقف الفاضحة التى اطلعه عليها اخيرا سارو والصبية .

وانه ما كان ليصل قط بهذه السرعة الى التفكير فى التجسس على أمه منتويا تحطيم تلك الهالة من الوقار والاحترام التى كانت تحيط بها نفسها حتى ذلك الحين لولا ان الصدفه دفعته يومئذ بالذات الى اتخاذ خطوة فى هذا الاتجاه . فعندما بلغا المنزل تناولت الام وابنها غداءهما فى صمت تام تقريبا . وقد بدت الام شاردة ذاهلة بينما لزم آجوستينو الصمت على غير عادته اذ امتلأ ذهنه بأفكار جديدة كان لايمكن تصديقها فى نظره .. ولكنه بعد الغداء راودته فجأة رغبة لاسبيل الى مقاومتها فى الخروج والعودة الى جماعة الصبية . وقد اخبروه انهم كانوا يجتمعون على شاطىء فسيوتشى فى ساعة مبكرة من الأصيل لوضع الخطة لمغامرات اليوم التالى . وما ان تغلب على خوفه ونفوره الاول من تلك الجماعة حتى بدأت صحبة هؤلاء الافاقين الصغار تجذبه فى غموض . كان راقدا فى فراشه وقد اغلقت النافذة فشاع الدفء والظلام . وراح يعبث كعادته بمفتاح النور الخشبى بينما تبلغ سمعه من الخارج بضعة اصوات تحدثها عجلات عربة وحيدة وصلصلة صحاف واكواب كانت تأتيه من خلال النوافذ المفتوحة فى المنزل المواجه وكأنها منعزلة عن بقية الاصوات لتناقضها فى الصيف مع سكون الاصيل .. فسمع امه تدخل الغرفة المجاورة وهى تدق الأرض بعقبيها . اخذت تذرع الغرفة جيئة وذهابا وهى تفتح الأدراج وتغلقها

www.library4arab.com/vb

وتحرك المقاعدهنا وهناك وتمر بيدهاعلى هذا وذاك من الاشياء. واذا به يحدث نفسه قائلا وهو يطرد النعاس الذى كان يغشى جوانحه رويدا رويدا : «لقد ذهبت لتضطجع ولن أستطيع ابلاغها رغبتى فى الخروج الى الشاطىء» فوثب منزعجالهذا الخاطر وخرج الى بسطة الدرج. كانت غرفته تطل على الشرفة المواجهة للدرج وبجوارها غرفة أمه . فذهب الى بابها وما ان وجده مواربا حتى دفعه فى رفق بدلا من ان يطرقه كما تعود ان يفعل . وربما ساقته الى ذلك رغبة لاواعية فى التجسس على امه وهى فى غرفتها الخاصة وكانت اوسع من غرفته بكثير حيث كان الفراش على مقربة من الباب وكانت تقوم فى مواجهة الباب مباشرة خزانة للملابس تعلوها مرآة كبيرة . وعندما دخل الغرفة وقع بصره فى اول الامر على امه اثناء وقوفها امام خزانة الملابس ولكنها لم تكن عارية كما كان يخيل له وكما كان يرجو ان تكون عندما دلف فى هدوء الى الداخل . بل كانت قد خلعت بعض ملابسها ، وبدأت تنزع قلادتها وقرطها امام المرآة مرتدية غلالة رقيقة لاتتجاوز خصرها الا بقليل . وقد ارتفع احد ردفيها عن الآخر وظهر بارزا اثناء وقوفها متكئة فى استرخاء على احدى فخذيها المصمتتين الرشيقتين . وقد امتدت فى اسفلهما ساقاها النحيلتان اللتان استدق طرفاهما عند رسغيها الرقيقين . وقد رفعت ذراعيها لتفتح بيديها مشبك قلادتها خلف عنقها وكانت هذه الحركة ذات اثر محسوس على ظهرها كله من خلال ثوبها الشفاف. فقد تغيرت معالم جسدها على صورة غريبة . وبدا له ابطاها ـ وهى رافعة يديها على هذا النحو ـ وكأن كلا منهما فكا ثعبان برزت من خلالهما كالألسنة الرفيعة السوداء شعرات طويل ناعمة بدت مغتبطة بافلاتها من ضغط اطرافها الثقيلة . وبدا جسدها الرائع الضخم لعينى آجوستينو المفتونتين وكأنه قد فقد صلابته وراح يتمايل مختلجا فى ضوء الحجرة الخافت وكأن العرى كالخميرة قد اعاره قدرة غريبة على التمدد حتى انه كان يبدو له تارة مائجا فى حنايا لا حصر لها وتارة اخرى مستدقا الى اعلى شامخا فى ارتفاعه يملأ الفراغ بين الارض والسقف .

وكان اول ما خطر لأجوستينو ان يهرول عائدا الى غرفته ولكنه تذكر فجأة « انها امرأة » كما اوحى اليه اخيرا فتسمر فى مكانه مفتوح العينين ممسكا بمقبض الباب فى قوة • احس بروح البنوة تتمرد على هـذا الجحود وتحاول ان تجـذبه الى الخلف • ولكن عقله الجديد الذى سيطر عليه فى قـوة رغم خجله بعض الشىء قد ارغم عينيه المحجمتين على التحديق دون رحمة او شفقة فيما كان حتى اليوم السابق لايجسر على التطلع اليه • وفى اثناء ذلك الصـراع بين النفور والانجـذاب وبين الدهشـة والمتعة برزت له جميـع دقائق الصـورة التى كان يتأملها فى مزيد من الوضوح والقسر : حركات ساقيها وانحناء ظهرها المسترخى والمنظر الجانبى لابطيها وقد بدت جميعها مطابقة تمـاما لتفكيره الجـديد الـذى كـان ينتظر تلك الشـواهد لتتحقق له السـيطرة التـامة عـلى خياله • وفيما هو يهوى منـدفعا من قمة احترامـه لامه وخشـوعه لها الى نقيض ذلك تماما كاد يتمنى لو رأى مباذل عريها اللاواعى تتطور امام عينيه الى خلاعة تعيها وتدريهـا وتحولت الدهشة فى عينيه الى فضول • اما الانتباه الذى شد عينيه والذى خيل اليه انه علمى فقد كانت موضوعيته الزائفة ترجع فى الحقيقة الى قسوة العاطفة التى تحكمت فيه • وبينما كان الدم يصعد الى رأسه ظل يردد قائلا لنفسه • « انها امرأة ولا شىء غير ذلك • » واحس على نحو ما ان تلك الكلمات كانت اشبه بأسواط من المهانة والاحتقار تجلد ظهرها وساقيها •

وما ان خلعت أمه قلادتها ووضعتها على السـطح الرخامى لخزانة الملابس حتى شرعت تنزع قرطها بحركـة رشـيقة من يديها • كما مالت قليلا برأسها مبتعدة عن المرآة الى حد ما • وخشى اجو ستينو ان تلمحه امه فى المرآة الكبيرة القائمة عند المشربية على مسافة قريبة منها فقد امكنه ان يرى صورته فيها وهو واقف يختلس النظر داخل الباب • فرفـع يده جاهـدا وطرق عمود الباب قائلا « هل تسمحين لى بالدخول ؟ » فقالت أمه فى هدوء « لحظة واحدة ياعزيزى • » فـرآها آجوسـتينو وهى تختفى عن بصره ثم لم تلبث ان عـادت الى

الظهور بعد قليل من البحث والتنقيب هنا وهناك وقد ارتدت عباءة حريرية زرقاء طويلة ٠

قال آجوستينو دون ان يرفع عينيه عن الارض : اماه ٠ انى ذاهب الى الشاطىء ٠

فقالت أمه في شرود ـ « الآن ؟ ولكن الجو شديد الحرارة ٠ الا يحسن بك اولا ان تنام قليلا ؟» ثم مدت احدى يديها وربتت بها على وجنته بينما راحت بيدها الأخرى تعيد خصلة تائهة من شعرها الاسود الناعم الى مكانها ٠

وفجأة عاد آجوستينو الى طفولته ولم ينبس ببنت شفة بل ظل واقفا فى مكانه عنيدا فى صمته خافضا بصره وقد التحم ذقنه بصدره كما كان يفعل دائما عندما يرفض له طلب ما ٠ وكانت أمه تعرف هذه الحركة جيدا ففسرتها بطريقتها المألوفة قائلة له ـ « حسنا ٠ ان كنت حقا راغبا في ذلك فيمكنك ان تذهب الى المطبخ اولا وتطلب اليهم ان يعدوا لك شيئا من الطعام لتأخذه معك ٠ ولكن اياك ان تأكله الآن ٠٠ بل ضعه فى الكابينة وحذار ان تستحم قبل الخامسة بعد الظهر ٠ وفضلا عن ذلك فسأضم عندئذ اليك ونستحم معا » كانت هذه دائما هى أوامرها اليه ٠

فلم يحر آجوستينو جوابا بل ركض هابطا الدرج الحجرى عارى القدمين ٠ وسمع باب غرفة أمه يغلق من خلفه فى هدوء ٠ وفى البهو ارتدى نعليه ثم خرج الى الطريق حيث لفحته شمس الظهيرة بلهيبها الابيض فى مظهرها الصامت ٠ وفى نهاية الطريق كان البحر الساكن يتلألأ فى الجو النائى المرتعش ٠ كما كانت جذوع اشجار الصنوبر الحمراء فى الناحية الأخرى تنحنى تحت ضغط اكوازها الثقيلة الخضراء ٠

اخذ يسائل نفسه عن الطريق الذى يسلكه الى بانيوفسيو تشى اهو طريق الشاطىء ام طريق الغابة ٠٠ ولكنه اختار الاول لانه رغم زيادة تعرضه للشمس فانه لن يخاطر فيه بالبعد عن وجهته ٠ وتابع الطريق ببصره على طول امتداده بجانب البحر ثم حث الخطى ما امكنه محاذيا الجدران ٠ كان يدفعه الى بانيوفسيو تشى على غير وعى منه بغض النظر عن

صحبته الجديدة لهؤلاء الصبية ماسمعه عن امه وعن صبواتها المزعومه من تعليقات فظة نابية . واحس ان نزعته الأولى اخذت تتحول الى شعور يختلف عنها كليا .. شعور اشدقسوة واكثر موضوعية . وخيل له انه لما كانت سخرياتهم السمجة القبيحة تعجل بهذا التغيير فانه ينبغي ان يسعى اليها ويذكيها . ولكنه لو سئل عن الباعث على رغبته الشديدة في ان ينأى بنفسه عن حب أمه بل عن السر فى كراهيته نفسه لحبه اياها لما امكنه ان يقول شيئا . لعله ذلك الاحساس بأنه خدع لاعتقاده انها كانت تختلف عما هى عليه فى الحقيقة . أو لعله عندما لم يجد فى نفسه القدرة على مواصلة حبها فى سذاجة وبراءة كما كان يفعل من قبل آثر أن ينأى بنفسه عنحبها نهائيا وان ينظر اليها كامرأة عادية فحسب . كان يحاول بغريزته ان ينفض عن نفسه نهائيا عبء حبه القديم البرىء الذى خيل له انها خانته على صورة مخجلة مخزية . فقد بدا له عندئذ ان حبه هذا لم يكن سوى حماقة وجهل .. وعلى ذلك فان تلك الجاذبية القاسية التى شدت عينيه الى ظهر أمه قبل ذلك بدقائق معدودات هى التى كانت تدفعه الآن لأن ينشد هؤلاء الصبية وصحبتهم الفظة المهينة . فلعل تعليقاتهم الساخرة المستهزئة تعينه كماأعانه عريها النصفى على تحطيم علاقة البنوة القديمة التى لشد ما صار يبغضها . وما ان راى بانيوفسيو تشى حتى ونيت خطاه وتظاهر بعدم الاكتراث رغم ان قلبه كان يخفق فى عنف حتى كادت انفاسه ان تبهر .

كان سارو جالسا كما رآه من قبل الى منضدته المتداعية وقد علتها زجاجة نبيذ ملئت حتى نصفها وكوب واناء كبير يحتوى على بقايا حساء السمك . ولكنه بدا له وحيدا حتى اذا ما دنا من الكوخ فتحت الستار ورأى هناك الفتى الزنجى حمص بجسده الأسود راقدا على الرمل الأبيض .

ولم يلتفت سارو قط الى الصبى الزنجى بل واصل التدخين فى تأمل بينما ضغطت على احدى عينيه قبعة قديمة مهشمة . قال أجوستينو فى لهجة تعبر عن خيبة الرجاء ــ « أليسوا

هنا ؟ » فتطلع اليه سارو وراقبه لحظة ثم قال ــ « لقد ذهبوا الى ريو . » وكانت ريو جزءا مقفرا من الشاطىء يقع على مسافه بضعة كيلومترات حيث كان يتدفق الى البحر مجرى صغير تحف به من ناحية ضفاف رملية ومن الناحية الأخرى غاب وأعشاب .

فقال آجوستينو فى أسف ــ « يالله .. ذهبوا الى ريو .. ولكن لماذا ؟ »

فأجابه الزنجى قائلا وهو يضع يده على فمه بحركة معبرة : « ذهبوا الى هناك للنزهة . » ولكن سارو هز رأسه قائلا ــ «لن يهدأ لكم بال أيها الصبية حتى يخرق الرصاص أبدانكم » فكان من الواضح ان نزهتهم ما هى الا ذريعة لسرقة الفاكهة من البساتين . أو على الاقل هذا هو ما بدا لآجوستينو .

قال الزنجى فى تذلل وكأنه يسترضى سارو ــ « ولكنى لم أذهب معهم . »

فقال سارو فى هدوء ــ « لم تذهب معهم لأنك لم تشأ ذلك ».

فتدحرج الزنجى فى الرمل محتجا وهو يقول ــ « بل لأنى آثرت البقاء معك . (١) »

كان يتكلم فى صوت منغم معسول . فقال سارو فى احتقار ــ « وما دلك على أيها الزنجى الصغير ؟ فلسنا أخوين فيما أعلم . »

فقال الآخر بلهجة هادئة بل ظافرة وكأنه أحس لقوله برضا عميق ــ « نعم لسنا أخوين . »

فقال سارو ــ « اذن فعليك ان تلزم حدودك . »

ثم التفت الى آجو سيتنو قائلا ــ « لقد ذهبوا ليسرقوا بعض الذرة .. هاهى حقيقة نزهتهم » .

فسأله آجو ستينو قائلا فى قلق ــ « وهل هام عائدون ؟».

فلم ينبس سارو ببنت شفة بل شخص ببصره الى آجو ستينو وقد بدا عليه انه يقلب فى ذهنه شيئا ما . ثم اجابه قائلا فى بطء ــ « انهم لن يتعجلوا العودة . فهم يمكثون هناك حتى

١ ــ يستعمل « حمص » صيغة الخطاب التى لا تكلف فيها .

ساعة متأخرة ، ولكنك ان شئت لحقنا بهم . »

ـ ولكن كيف ؟

فقال سارو ـ في القارب .

فقال الزنجي ـ « آه نعم . فلنذهب في القارب . »

ثم وثب في حماس شديد وهو يقترب من سارو . ولكن هذا الاخير لم يعره التفاتا . ثم قال : « عنــدى قارب شراعى ... يحملنا الى ريو في حوالى نصف ساعة اذا كانت الريح مواتية » .

فقال آجو ستينو في سعادة ـ « نعم . فلنذهب . ولكننا كيف نعثر عليهم اذا كانوا في الحقول ؟ »

فقال سارو وهو ينهض من مقعده لاويا الحزام المحيط ببطنه : « لا تخش شيئا . فلا ريب اننا سنعثر عليهم . » ثم التفت الى الزنجي الذى كان يراقبه في تشوق وأردف قائلا ـ « هلم بنا أيها الزنجي . أعنى على حمل الشراع والسارية . »

فأجابه الزنجي قائلا في فرح ـ « انى قادم ياسارو ـ انى قادم . » ثم تبعه حتى بلغا القارب .

وبقى آجو ستينو وحده فوقف ينظر حوله ـ كانت قد هبت من الشمال الغربي ريح معتدلة وحال لون البحر الى ما يقارب الزرقة البنفسجية وقد اكتسى سطح الماء عندئذ بتمــوجات صغيرة ـ أما الشاطىء فقد اكتنفته على مدى البصر غلالة مبهمة من الشمس والرمال . وكان آجو ستينو لا يعرف أين تقع ريو فتابع التضاريس المتقلبة للساحل المقفر بعين مشتاقة . أين كانت ريو ؟ وخيل له انها هناك حيث تلتقى الارض والســماء والبحر في سواد مضطرب تحت لهيب الشمس القاسية . لشد ماهفت نفسه الى الرحلة وما كان ليضيع هذه الفرصـــة ولو أعطى الدنى جميعها .

وأوقظ آجو ستينو مفزوعا من خواطره على صوت رفيقيــه عند خروجهما من الكوخ . كان سارو يحمل باحدى ذراعيــه كومة كبيرة من الحبال والاشرعة بينما احتضن بالأخرى زجاجة ومن خلفه سار الزنجي ملوحا بســارية طويلة كالحربة طلى نصفها باللون الأخضر . وقال سارو وهو ماض في طريقــه

على الشاطىء دون أن ينظر الى آجو ستينو « حسنا · فلنقلع »
وبدا لآجو ستينو أنه يتعجل الأمور على صورة غريبة تختلف
تماما عن مألوف عادته · كما لاحظ أيضا شدة احمرار منخريه
المنفرين والتهابهما اكثر من المعتاد وكأن شبكة الشعيرات
الدقيقة المتفرعة كلها قد انتفخت فجأة بالدم المندفع فيها ·
وترنم الزنجي قائلا من خلف سارو وهو يرتجل نوعا من
الرقص على الرمال واضعا السارية تحت ذراعه «siva .. siva»
ولكن سارو عندئذ كان قد اقترب من الاكواخ فتمهل الزنجي
انتظارا لآجو ستينو · وعندما دنا منه أشار اليه الزنجي
بالوقوف · ففعل ·

ثم قال الزنجي متظاهرا بالألفة ـ « انصت الى · ثمة أمر
يجب ان اتحدث فيه الى سارو ·· فأرجو ان تمن على ·· من
فضلك ·· بالتخلف عن هذه الرحلة ·· فأرجو أن تنصرف »

فسأله آجو ستينو وهو في دهشة شديدة قائلا ـ « لماذا؟ »

فقال الآخر في تبرم وهو يضرب الارض بقدمه ـ « قلت لك
هناك أمر يجب أن أتحدث فيه اليه ·· نحن الاثنين فقط · »

فرد آجو ستينو قائلا ـ « ولكنني يجب أن أذهب الى ريو »

ـ « يمكنك الذهاب في وقت آخر · »

ـ « لا ·· لايمكنني ذلك » ·

فنظر اليه الزنجي · وقد كشفت عينا منخريه المرتعشتان
عن حماس عاطفي حار نفر منه آجو ستينو · قال له ـ « أنصت
يا بيزا ـ ان تخلفت أعطيتك شيئا لم تره قط في حياتك · »
ثم أسقط السارية وتحسس جيبه بيده فأخرج قذافة تتألف
من شوكة صغيرة من خشب الصنوبر وقطعتين من المطاط
أوثقتا معا · وقال الزنجي وهو يرفعها الى أعلى ـ « أليست
جميلة ؟ »

ولكن آجو ستينو كان يريد الذهاب الى ريو · وفضلا عن
ذلك فان اصرار الزنجي قد اثار شكوكه · فقال ـ « كلا ··
لا أستطيع » ·

فعاد الآخر يقول وهو يمسك بيد آجو ستينو محاولا أن
يدس فيهاالقذافة ـ « خذها · خذها وامض » ·

فرد آجو ستينو جوابه قائلا ـ « كلا • لا استطيع • »
فقال الزنجي وهو يتحسس جيبه مرة أخرى مخرجا منه رزمة صغيرة من أوراق اللعب حمراء الظهر مذهبة الحواشي « سأعطيك القذافة وهذه الاوراق ايضا • خذها جميعا وامض • فيمكنك بالقذافة ان تصيد الطيور •• أما أوراق اللعب فهي جديدة لم تمس • »

فقال آجو ستينو « قلت لك اننى لا أقبل • »

فاستدار نحوه الزنجي بعينين ارتسم فيهما الاستعطاف الحار ولمعت على جبهته قطرات كبيرة من العرق • وتقلص وجهه كله بتعبير ينبىء بالمذلة المطلقة • ثم انتحب قائلا ـ « ولكن لم لا تقبل ؟ »

فقال آجو ستينو وهو يندفع فجأة تجاه الغواص الذى كان عندئذ يقف بجانب القارب ـ « لا أريد ذلك • » وما ان لحق بسارو حتى سمع الزنجي يصيح من خلفه قائلا ـ « ستندم على هذا • » كان القارب مستقرا بالقرب من الشاطىء على بكرتين من الخشب غير الممهد • وقد ألقى سارو بالاشرعة فى القارب منتظرا فى ضجر • سأل آجو ستينو قائلا وهو يشير الى الزنجي ـ « ماذا يريد ؟ »

فقال آجو ستينو ـ « لا شىء • انه قادم • »

وجاء الزنجي فعلا وهو يركض واثبا فوق الرمل وثبات هائلة وقد وضع السارية تحت ذراعه • فقبض سارو على السارية بأصابعه الست فى يمناه ثم أقامها بأصابعه الست فى يسراه مثبتا اياها فى ثقب المقعد الأوسط ـ ثم خطا الى داخل القارب حيث أوثق السارية وحل الشراع • واستدار سارو نحو الزنجي قائلا ـ « والآن فلندفعه من أسفل » •

وقف سارو بجانب القارب ممسكا بحافة مقدمه بينما تأهب الزنجي لدفعه من الخلف • ولم يدر آجو ستينو ماذا يفعل فوقف مستطلعا • كان القارب متوسط الحجم طلى نصفه باللون الابيض ونصفه الآخر باللون الاخضر • وقد كتب على مقدمه بحروف سوداء اسم « آميليا •• » وأصدر سارو أمره

قائلا ـ « آه ٠٠ اسا ٠ » فانزلق القارب على بكرتيه الى الامام فوق الرمل ٠ وما ان تحرك بعيدا عن البكرة الخلفية حتى انحنى الزنجي وحملها بين ذراعيه وهو يضمها كالطفل الى صدره ثم ركض واثبا فوق الرمل وكأنه يؤدى رقصة جديدة من رقصات الباليه ووضعها تحت مقدمه فردد سارو أمره قائلا ـ « آه ٠٠ اسا »

عاد القارب الى الانزلاق الى الامام مسافة كبيرة وعاد الزنجي الى القفز والدوران من مؤخر القارب الى مقدمه حاملا البكرة بين ذراعيه ٠ وبدفعة أخيرة انغمس مقدم القارب فى الماء حيث طفا فوق صفحة الماء ٠ وخطا سارو الى داخله حيث وضع المجدافين فى مقبضيهما ٠ وأمسك بكل منهما فى احدى يديه ثم اشار لآجو ستينو بالوثوب الى القارب مستبعدا الزنجى وكأنه أمر متفق عليه ٠ وخاض آجو ستينو فى الماء حتى بلغ ركبتيه ثم حاول أن يتسلق الى داخل القارب ٠ وما كان لينجح فى ذلك قط لولا أن سارو بأصابع يمناه الست أمسك باحدى ذراعيه فى قوة وجذبه كالقط الى أعلى ٠ ورفع آجو ستينو بصره فرأى سارو يرفعه الى أعلى بذراع واحدة دون أن ينظر فى اتجاهه لأنه كان مشغولا بوضع المجداف الأيسر فى احكام ٠ ومضى آجو ستينو ليجلس فى مؤخر القارب مشمئزا من قبضة سارو بأصابعه تلك على ذراعه ٠ قال سارو ـ « حسنا ٠ فلتبق انت هناك ، وسأخرج به الآن الى عرض البحر ٠ »

فصاح الزنجى من الشاطىء قائلا ـ « مهلا ٠ انى قادم أيضا ٠ » ثم قفز الى الماء وقد أنهكه الجهد وأمسك بحافة القارب ٠ ولكن سارو قال له ـ « كلا ٠ فلن تأتى معنا ٠ »

فصاح الصبى فى ألم لخيبة أمله قائلا ـ « وماذا أنا فاعل ؟ ماذا أنا فاعل ؟ » فأجابه سارو واقفا فى القارب وهو يجذبه بقوة قائلا ـ « يمكنك أن تستقل الترام فتسبقنا الى هناك ٠ وسترى أننى لا أكذبك ٠ »

فانتحب الزنجى قائلا وهو يركض فى الماء بجانب القارب « ولكن لم ياسارو ؟ لم ياسارو ؟ فأنا أيضا أريد الذهاب ٠ »

فأسقط سارو المجدافين دون ان ينبس ببنت شفة وانحنى الى الأمام واضعا يده الضخمة على وجه الزنجي فغطاه بها • وقال له في هدوء ــ « قلت لك انك لن تأتي معنا » وبدفعة واحدة من يده رماه بعيدا الى الخلف في الماء • فواصل نحيبه قائلا ــ « لم ياسارو ؟ » وكان لاختلاط صوته الحزين بصوت المجدافين وهما يرشان الماء وقع بغيض في نفس آجو ستينو مما أثار في قلبه احساسا مقلقا بالشفقة • فنظر الى سارو الذي ابتسم قائلا ــ « ياله من صبي مزعج ! وما شأننا به ؟ »

كان القارب قد ابتعد قليلا عن الشاطىء عندما نظر آجو ستينو حوله فرأى الزنجي يخرج من الماء وعندئذ خيل له أنه يهز قبضته نحوه مهددا متوعدا •

أخرج سارو المجدافين في صمت ووضعهما في قاع القارب• ثم اتجه الى مقدمه حيث حل الشراع وأوثقه بالسارية • ورفرف الشراع لحظة في اضطراب وكأن الريح تهب عليه من الجانبين معا في نفس الوقت • ثم اذا به فجأة ينتفخ في مهب الريح بهدة عنيفة متكئا الى اليسار • وما ان استقر القارب في اذعان على جنبه الايسر وأخذ ينزلق فوق الامواج مدفوعا بريح معتدلة حتى قال سارو ــ « حسنا • يمكننا الآن أن نضطجع لنستريح قليلا » ثم افترش قاع القارب ودعا آجو ستينو ليرقد الى جانبه وهو يقول له موضحا « اذا افترشنا القاع سار القارب مسرعا • » فأذعن آجو ستينو للامر ورقد بجانب سارو •

وتقدم القارب مسرعا رغم ثقله وهو لا يفتأ يرتفع ويهبط مع الامواج الصغيرة كما كان من وقت لآخر يثب كالمهر الذي يحس لاول مرة بلقمة اللجام في فمه • ورقد سارو واضعا رأسه على المقعد ومادا احدى ذراعيه خلف عنق أجو ستينو موجها بها دفة القارب • وظل صامتا فترة وجيزة وأخيرا سأله قائلا « هل تذهب الى المدرسة ؟ »

تطلع اليه آجو ستينو فوجده مضطجعا وقد بدا أنه يعرض منخريه الواسعين الملتهبين لهواء البحر وكأنه يرطبهما كما فغر فاه قليلا تحت شاربه وأغمض عينيه • وكشف قميصه المفتوح

عن شعره الرمادى الاشعث القذر الذى يكسو صدره • قال آجو ستينو وهو يرتجف فجأة من الخوف :

ــ نعم •

ــ وفى أى الصفوف ؟

ــ الثالث •

قال سارو ــ « اعطنى يدك • » ثم قبض على يده قبل أن يتمكن آجوستينو من الرفض • وأحس آجو ستينو أن قبضته كانت كالمشد • فقد احاطت اصابعه الست القصيرة السميكة بيده كلها وتلامست فى أسفلها • ثم أردف قائلا وهو يتمدد فى مزيد من الارتياح مستغرقا فى نوع من النشوة ــ « وماذا يعلمونك ؟ »

فتلعثم آجو ستينو قائلا ــ « اللاتينية •• والايطالية ••• والجغرافيا •• والتاريخ •• »

فسأله سارو قائلا فى صوت خفيض ــ « وهل يعلمونك الشعر •• الشعر الجميل ؟ »

فقال آجو ستينو : نعم • والشعر أيضا •

ــ أنشدنى شيئا منه •

وغاص القارب فحرك سارو الدفة دون أن يغير من حالة اغتباطه • فقال آجو ستينو وقد عراه مزيد من الارتباك والذعر ــ « لست أدرى ماذا ••• فانى احفظ كثيرا من الشعر •• كاردوتشى • »

فردد سارو قائلا بطريقة آلية ــ « آه •• نعم • كاردوتشى أنشدنى قصيدة لكاردوتشى • »

فاقترح آجو ستينو قائلا وهو فى رعب من يده التى تأبى أن تطلق سراحه والتى لم يفتأ يحاول التخلص منه رويدا رويدا ــ Le Fonti del Clitunno.

فقال سارو فى صوت حالم ــ « نعم •

Le Fonti del Clitunno.

وبدأ آجو ستينو يتلو الشعر بصوت مرتعش :

Anchor dal monte che di foschi ondeggia.
Frassini al vento mormoranti e lunge.

ظل القارب يسير مسرعا بينما راح سارو يهز رأسه الى أعلى والى أسفل وكأنه يزن أبيات الشعر وهو لايزال ممددا بطوله وقد أغمض عينيه وعرض أنفه للريح . وتذرع آجوستينو بالشعر الذى لم يجد ما يتوسل به سواه للهرب من حديث أحس ببديهته أنه خطير ومعرض للشبهة فواصل تلاوته فى بطء ووضوح . ولم يفتأ يحاول أن يخلص يده من أسر أصابعه الست القابضة عليها ولكنه كان يشدد قبضته عليها أكثر من أى وقت مضى . ورأى آجو ستينو فى فزع أنه يدنو رويدا رويدا من نهاية القصيدة . ولما لم يدر ماذا يفعل فقد ضم الى البيت الاول من قصيدة Le Fonti del Clitunno

Davanti a san Guido

مما يدل على ان سارو لم يكن يهتم مطلقا بالشعر ان كانت هناك حاجة الى دليل . بل كان يضع نصب عينيه هدفا يختلف تمام الاختلاف ، ولكن ماذا ؟ هذا هو ما لم يستطع آجوستينو أن يدركه ونجحت التجربة فقد بدأ فجأة يقول :

J ciprcssi che a Bolgheri alti eschietti

دون ان تبدو على سارو أقل علامة تشير الى ملاحظة ما حدث من تغير . ثم انقطع آجو ستينو عن تلاوته قائلا بصوت ساخط متبرم — « أرجو أن تترك يدى . » محاولا فى نفس الوقت أن يسحب يده بعيدا عنه تماما .

فجفل سارو ثم فتح عينيه ملتفتا اليه دون أن يترك يده . ولا ريب انه قرأ على وجه آجو ستينو نفورا عنيفا ورعبا واضحا مما جعله يدرك فجأة ان خطته التى لم يكن ثمة شك فى وجودها قد باءت بالفشل الذريع . ثم أخذ يسحب أصابعه رويدا احداها تلو الاخرى بعيدا عن يد آجو ستينو المتألمة وهو يقول فى صوت خفيض وكأنه يحدث نفسه — « مم انت خائف ؟ اننا الآن نتجه نحو الشاطىء »

وجر نفسه ليقف على قدميه ثم ادار الدفة ، فاستدار القارب بمقدمه صوب الشاطىء .

ونهض آجو ستينو من قاع القارب دون أن ينبس بكلمة ثم ذهب ليجلس فى مقدمه وهو مازال يفرك أصابعه المتقلصة . عندئذ كان القارب يسير غير بعيد من الشاطىء فأمكنه أن يراه بأكمله حيث الرمال البيضاء التى امتدت فسيحة وواسعة عند

هذه النقطة كانت قد صبغتها الشمس باشعتها الناصعة وظهرت من وراء الشاطئ أشجار الصنوبر الخضراء الكثيفة المخيمة ·
وكانت ريو تقوم عند فجوة نحتت في الكثبان العالية تشرف عليها كتلة من الغاب الأزرق المائل الى الخضرة · ولكن آجو ستينو رأى على الشاطئ قبل بلوغهما ريو جماعة من الناس يتصاعد من وسطها خيط طويل من الدخان الأسود · فاستدار نحو سارو الذى كان جالسا في مؤخر القارب يوجه دفته باحدى يديه قائلا : « اهذا هو المكان الذى سننزل به ؟ » ·

فرد سارو في عدم اكتراث قائلا ـ « نعم · فها هي ذى ريو»
وبينما كان القارب يدنو رويدا من الشاطئ شاهد آجو ستينو الجماعة المحتشدة حول النار تنفض فجأة من حولها وتأخذ في الركض تجاه حافة الماء · ورأى في الحال أنها كانت جماعة الصبية · رآهم وهم يلوحون بأيديهم وربما كانوا يصيحون بأصوات تحملها الريح بعيدا · فسأل قائلا في عصبية : « هل هم هؤلاء ؟ » ·
فقال سارو ـ « نعم · هم أولئك · »
وظل القارب يقترب رويدا رويدا من الشاطئ حتى استطاع آجو ستينو ان يميز الصبية بوضوح · وكانوا جميعا هناك : تورتيما وبرتو وساندرو والباقون ـ كما كان حمص الزنجى يقفز على الشاطئ ويصيح مع الباقين · ولسبب ما احس آجو ستينو بالضيق الشديد لهذا الاكتشاف ·

واتجه القارب مباشرة الى الشاطئ حيث أدار سارو الدفة دورة سريعة بالعرض أدخلت القارب الى الشاطئ ثم ارتمى على الشراع قابضا عليه بكلتا ذراعيه وأنزله على ظهر القارب الذى دار في الماء الضحل دون أن يهتز أو يتأرجح ثم تناول سارو مرساة صغيرة كانت في القاع وألقاها في البحر · ثم قال : « فلنذهب الى الشاطئ » وتسلق حافة القارب ثم خاض الماء لملاقاة الصبية الذين كانوا ينتظرونه على الشاطئ ·

ورأى آجو ستينو الصبية يتجمعون حوله · وكان من الواضح أنهم يقدمون اليه التهانى التى تقبلها سارو بهزة من

رأسه . ودوى تصفيق أعلى تحية لوصوله هو حتى خالهم لحظة يرحبون به في صدق واخلاص . ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه فقد تبين أن ضحكاتهم ساخرة مستهزئة . وصاح برتو قائلا : « ان بيزا العزيز يجد متعة في الخروج للنزهة في البحر . » بينما وضع لورتيما أصابعه في فمه وأطلق صفيرا وقحا . وحذا الباقون حذوه . حتى ساندرو الذى كان عادة شديد التحفظ نظرا اليه في احتقار . اما الزنجي فلم يفتأ يثب هنا وهناك حول سارو الذى ظل يتقدم نحو النار التى اشعلها الصبية على الشاطىء . فدهش لذلك آجو ستينو وعراه خوف غامض . ثم ذهب ليجلس مع الباقين حول النار .

كان الصبية قد صنعوا فرنا من الرمل المبلل المضغوط . وقد اشتعلت بداخله النار في أكواز الصنوبر المجففة والاشواك الصنوبرية والأغصان الصغيرة . وتكدس في مدخل الفرن حوالى اثنى عشر كوزا من الذرة كانت تشوى وئيدا . ونثرت على جريدة بالقرب من النار كتل من الفاكهة واحدى ثمار البطيخ . وما ان اتخذ كل منهم مكانه حتى قال برتو « ان بيزا هذا فتى رقيق . أنت وحمص الآن أخوان . ويجب أن تجلسا متجاورين .. فأنتما الاثنين اخوان .. أسود وابيض .. ولا فارق بينكما سوى ذلك .. وكلاكما يحب التنزه في البحر . »

فضحك الزنجي في استحسان ضحكة مكتومة ، بينما انحنى سارو أمام النار ليقلب أكواز الذرة مرة أخرى : وضحك الباقون في سخرية واستهزاء . وتمادى برتو فدفع آجو ستينو دفعة ألقت به مباشرة فوق حمص فتلامس ظهراهما لحظة وكان أحدهما يضحك راضيا عن نفسه في فجور ضحكا مكتوما بينما استبدت بالآخر الحيرة والنفور . فقال آجو ستينو فجأة ـ « ولكنى لست أدرى ماذا تعنى . لقد ركبت القارب . وأى ضرر في هذا ؟ »

فردت أصوات كثيرة ساخرة قائلة ـ « آها . أى ضرر في هذا ؟ لقد ركب القارب . فأى ضرر في هذا ؟ » وكان البعض يمسك جنبيه من الضحك .

فردد برتو ملتفتا اليه مرة أخرى ــ « نعم • حقا ــ أى ضرر هناك ؟ لا ضرر ألبتة ! بل ان حمص يرى في هذا امرا عظيما ، أليس كذلك يا حمص ؟ »

فآمن الزنجى على قوله فى نشوة • عندئذ بدأت الحقيقة تتجلى فى غموض لعينى اجو ستينو لانه لم يسعه الا أن يرى علاقة ما بين سخرياتهم اللاذعة وبين سلوك سارو الغريب فى القارب • ثم صرخ قائلا ــ « لست أدرى ماذا تعنى • فانى لم أرتكب خطأ فى هذا القارب • لقد طلب الى سارو ان أنشده بعض قصائد الشعر • هذا هو كل ما حدث • »

فانبعثت أصوات من جميع الجوانب تقول ــ « آه • آه • هذه القصائد »

فصاح آجو ستينو قائلا وهو محمر الوجه ــ « ألست صادقا فيما أقول ياسارو ؟ »

ولكن سارو لم يجب بالنفى أو الاثبات • بل اكتفى بالابتسام وهو يراقبه طيلة الوقت فى شيء من الفضول • ففسر الصبية تظاهره بعدم الاكتراث الذى كان فى الحقيقة ستارا لغدره وغروره على اعتبار انه تكذيب لاجوستينو فصاحوا جميعا فى صوت واحد قائلين ــ « انه يسأل صاحب الدار عما ان كان النبيذ جيدا • أليس كذلك ياسارو ؟ انه فتى رائع آه ! بيزا ! بيزا » كان الزنجى يثأر لنفسه من آجو ستينو ويجد فى ذلك متعة خاصة • فاستدار آجو ستينو نحوه فجأة وهو يرتجف من الغضب قائلا ــ « ما الذى يضحكك ؟ »

فأجابه قائلا وهو ينكمش بعيدا عنه : « انى لا اضحك » •

فقال برتو ــ « والآن لاتتشاجرا معا • فلا ريب أن سارو سيضطر ان يصلح بينكما • »

ولكن ما ان بدا للصبية ان الامر قد أخذ يستقر فى هدوء حتى فقدوا كل اهتمام به وانتقلوا الى الحديث عن اشياء اخرى • كانوا يروون كيف انهم رأوا صاحب المزرعة الغضب قدما نحوهم يحمل بندقيته وكيف أنهم لاذوا بالفرار وكيف أن صاحب المزرعة أطلق عليهم النار دون أن يصيب منهم أحدا • وفى تلك الاثناء كانت

أكواز الذرة قد أعدت بعد شيها على جذوات النار على صورة جميلة • أخرجها سارو من الفرن ثم وزعها على الصبية بطريقته الابوية المعهودة فأعطى كلا منهم واحدا • وانتهز آجو ستينو لحظة شغلوا فيها جميعا بالاكل فوثب نحو ساندرو الذى انتحى جانبا وهو يأكل الذرة حبة حبة •

ثم بادره بقوله — « اني لا أفهم شيئا • » فوجه اليه الآخر نظرة مدركة ورأى آجو ستينو أنه لا حاجة به لأن يزيد عليها • قال له ساندرو فى بطء « لقد جاء الزنجى بالترام وقال انكما ركبتما القارب أنت وسارو • »

— « وأى ضرر فى هذا ؟ »

فأجابه ساندرو خافضا عينيه وهو يقول — « ليس هذا من شأنى • بل من شأنك •• انت والزنجى • اما عن سارو •• » ثم توقف عن الكلام ونظر الى آجو ستينو فسأله قائلا :

— ماذا ؟

— حسنا • فانى ما كنت لاخرج وحدى فى صحبته •

— ولكن لماذا ؟

فنظر ساندرو حوله فى حرص ثم أدلى فى صوت خفيض بالتفسير الذى كان يتوقعه آجو ستينو على صورة ما دون أن يتمكن من ادراك السبب • قال « آه •• » ولكنه لم يستطع أن يزيد على ذلك ثم عاد وانضم الى الباقين • كان سارو يتوسط الصبية وهو جالس القرفصاء • وقد مال برأسه جانبا فى هدوء وحدب فبدا تماما كرب أسرة طيب القلب يحيط به أبناؤه • ولكن آجو ستينو ما كاد ينظر اليه حتى أحس نحوه بكراهية عميقة بل أعمق فى الواقع مما أحس به نحو الزنجى • وقد زاد من كراهية آجو ستينو له انه لزم الصمت عندما استشهد به اذ بدا وكأنه يريد أن يوهم الصبية بأن ما كانوا يتهمونه به قد وقع فعلا • وفضلا عن ذلك فانه لم يسعه الا ان يلحظ انهم باحتقارهم اياه وسخريتهم منه ، قد اوجدوا بينه وبينهم هوة سحيقة ، تلك الهوة التى رآها الآن تفصل بينهم وبين الزنجى مع فارق واحد هو ان الزنجى ، بدلا من ان يحس بالمهانة والاساءة التى يحس هو بها ، بدا وكأن الامر

يمتعه على صورة ما • وقد حاول اكثر من مرة أن يوجه الحديث الى الموضوع الذى لشد ما كان يعذبه • ولكنه لم يفتأ يقـابل بالضحك وعدم الاكتراث المهين • وفضلا عن ذلك فانه عـلى الرغم من تفسير ساندرو الذى لم يدع مجالا للشـــك فانه لم يستطع حتى ذلك الحين أن يدرك تماما حقيقة ما حدث • فقد بدا كل شىء مظلما من حوله وفى أعماق نفسه وكأنه بدلا من الشاطىء والبحر والسماء لم تكن هناك سوى أشباح وأشكال غامضة منذرة متوعدة •

وفى اثناء ذلك كان الصبية قد انتهوا من أكل الذرة المشوية وألقوا بالاكواز العارية بعيدا فى الرمال • ثم اقترح احـدهم قائلا ـ « فلنذهب لنستحم فى ريو » وحاز الاقتراح قبولا فى الحال كما رافقهم سارو فقـد اتفق على أن يعودوا جميعا معه فى القارب الى بانيوفسيوتشى •

وبينما كانوا يسيرون على الرمال ترك ساندرو زملاءه وأقبل على اجو ستينو قائلا : « ان كنت مستاء من الزنجى فلم لاتبث فى قلبه الرهبة والخشوع ؟ »

فسأله آجو ستينو قائلا فى لهجة ضعيفة متخاذلة : وكيف ؟

ـ « بالضرب المبرح » •

فقال آجو ستينو متذكرا معركة الذراع الحديدى ـ « ولكنه أقوى منى ما لم تمد لى يد المساعدة • »

ـ « ولماذا أساعدك ؟ فالامر يخصكما وحدكما •• أنت وهو»

نطق ساندرو بهذه الكلمات بطريقة أوضحت تماما أنه كان يتفق مع الباقين فيما يخص السبب الذى يدفع آجو ستينو الى كراهية الزنجى • فأحس آجو ستينو بمرارة هائلة تختـرق قلبه • اذن فقد كان ساندرو ـ الذى لم يظهر ســـواه شيئا من العطف نحوه ـ يؤمن هو أيضا بتلك الوشـاية • وما أن أسدى اليه تلك النصيحة حتى عاد لينضم الى البـاقين وكأنه يخشى ان يرى فى صحبته • وقد مروا وهم فى طريقهم بغابة من شجيرات الصنوبر ثم عبروا ممرا رمليا واقتحموا أحواض الغاب الذى كان ينمو كثيفا طويلا تعلو الكثير منه رءوس ريشية بيضاء • وكان الصبية يظهرون تارة ثم يختفون أخرى

بين حراب الغاب الخضراء الطويلة وراحوا ينزلقون هنا وهناك على الأرض الرطبة وهم ينحون من طريقهم أوراق الشجر الصلبة ذات الألياف فتحدث حفيفا خشنا . وأخيرا وصلوا الى مكان اتسع فيه حوض الغاب حول ضفة خفيضة موحلة . وعند ظهورهم وثبت هنا وهناك من جميع الجوانب ضفادع كبيرة فى المياه القاتمة الساكنة . وهنا أخذ الجميع يخلعون ملابسهم وقد اعتلى كل منهم ظهر الآخر تحت بصر سارو الذى كان جالسا فى كامل هندامه فوق صخرة مشرفة على الغاب حيث بدا مستغرقا فى تدخين سيجاره ولكنه فى الحقيقة لم يفتأ يراقبهم من خلال جفونه المغمضة حتى نصفها . وخجل آجو ستينو من الانضمام اليهم ولكنه بدأ يحل ازرار سراويله متلكئا فى ذلك قدر امكانه وهو يراقب الباقين خشية أن يضحكوا منه . ولشد ما بدوا جذلين مسرورين للتخلص من ملابسهم وراحوا يتصادمون صائحين فى بهجة وفرح . وبدت أجسادهم ناصعة البياض وهى منعكسة على الخلفية التى تتألف من أعواد الغاب الخضراء . ولكن بياضها من الحقو الى البطن كان قذرا بغيضا . ولم يزد هذا البياض الشاحب على اظهار قوة عضلية قبيحة مفرطة يتميز بها العمال اليدويون بصفة خاصة . أما ساندرو ذو الجسم الرشيق المتناسق الذى كان اشقر الشعر عند العانة كما كان عند الرأس فقد كان وحده دون سواه لا يبدو عاريا حقا ولعل السبب فى ذلك أن بشرته كانت برونزية بنسبة واحدة فى جميع أجزاء جسده . وعلى أية حال فلشد ما اختلف عريه عن ذلك العرى المنفر الذى يعرض فى الحمامات العامة .

وأخذ الصبية يمارسون جميع أنواع اللهو الفاحش البذى قبل غوصهم فى الماء كأن يفرجوا سيقانهم على سعتها ثم يتلامسوا فى طعان وقد سادهم الهرج والمرج على صورة فاحشة منحلة أذهل لها آجو ستينو الذى لا عهد له قط بشىء من ذلك . كان عاريا هو ايضا وقد اسودت قدماه فى الوحل البارد القذر ولكنه كان يود لو اختفى بين أعواد الغاب لا لشىء الا ليهرب من نظرات سارو التى أخذ يسددها اليه من خلال عينيه المغمضتين

حتى نصفهما وهو جالس منحنى الظهر فى سكون كضفدع من تلك الضفادع الضخمة التي تسكن حوض الغاب . ولكن نفوره كالعادة كان أضعف من أن يصمد أمام تلك الجاذبية الغامضة التى كانت تربطه بجماعة الصبية . بل لشد ماامتزج الاحساسان حتى استحال عليه أن يميز بين احساسه بالرعب وبين ماينطوى تحته من احساس بالمتعة . واستعرض الصبية أنفسهم كل بدوره مباهين بقوة ذكورتهم وجسارتهم البدنية . وكان تورتيما اكثرهم زهوا . ولكنه على الرغم من قوته غير المتناسبة كان أشدهم قذارة وسوقية فى مظهره . فقدأخذه الغرور بنفسه حتى صاح قائلا لآجو ستينو ـ « لنفرض أننى ظهرت لامك ذات صباح عاريا على هذه الصورة فماذا هى قائلة ؟ أتمتثل لرغبتى ؟ »

فقال آجو ستينو ـ « كلا . »

فقال تورتيما ـ «وأنا أقول لك انها تمتثل لأمرى فى الحال فهى لن تزيد على أن ترمينى بنظرة لترى ما أصلح له ثم تقول لى : هيا ياتورتيما فلنمض معا»

وضحك الجميع من سخف اقتراحه الفظ . وعندما هتف قائلا : «هيا ياتورتيما فلنمض معا» قذف الصبية بأنفسهم فى الماء أحدهم فى اثر الآخر وهم يغوصون فيه برءوسهم تماما كما فعلت الضفادع التى أزعجها مقدمهم .

كان الشاطىء كله محاطا بالغاب حتى أن النهر لم تبد منه الا مسافة قصيرة . ولكنهم ما أن توغلوا فيه حتى أمكنهم أن يروا النهر بأكمله تتدفق أمواهه الكثيفة القاتمة بحركة غير محسوسة تجاه مصبه البعيد بين الضفاف الرملية . أما فى أعلى النهر فكان الماء يواصل طريقه بين صفين من الشجيرات الكبيرة الفضية التى تلقى ظلالها البهيجة على الماء حتى يبلغ النهر جسرا حديديا صغيرا تنمو وراءه أعواد الغاب وأشجار الحور والصنوبر بكثافة تحول دون تسرب الماء بعد ذلك . وثمة بيت أحمر يكاد يختفى بين الاشجار بدا كأنه يقوم على حراسة الجسر .

وشعر آجو ستينو لحظة بالسعادة وهو يسبح فى ذلك الماء القوى البارد لحظة كل مالحق به من محن ومظالم ـ وسبح الص ونسى لحظة كل مالحق به من محن ومظالم ـ وسبح الصبية فى جميع الاتجاهات وقد برزت رءوسهم وسواعدهم فوق سطح الماء الاخضر الهادىء . ودوت أصواتهم فىالهواء النقى الساكن . وبدت أجسادهم من خلال الماء الشفاف وهى تتحرك هنا وهناك حيثما يجذبها التيار كالأغصان البيضاء النامية من الأعماق . وسبح آجو ستينو حتى لحق ببرتو الذى لم يكن على مسافة بعيدة منه ثم سأله قائلا ـ « هل يكثر السمك فى هذا النهر ؟ »

فنظر اليه برتو قائلا : «ماذا تفعل هنا ؟ لم لاتبقى فى صحبة سارو ؟»

فأجابه آجو ستينو قائلا وقد عاوده شعوره بالتعاسة ـ « انى أحب السباحة . » ثم استدار وسبح بعيدا عنه .

ولكنه لم يكن سباحا قويا أو ذا خبرة كالباقين . فما لبث أن عراه الاعياء واستسلم للتيار الذى حمله بعيدا تجاه مصب النهر . وسرعان ما خلف وراءه الصبية وضجيجهم . وقلت كثافة الغاب وأمكنه أن يرى من خلال الماء الصافى الذى لا لون له القاع الرملى الذى لاتفتأ تدور فوقه دوامات رمادية صغيرة وأخيرا وصل الى بركة عميقة خضراء كانت بمنزلة العين الشفافة لمجرى النهر وما أن تجاوزها حتى لمست قدماه الرمل . ثم تسلق ضفة النهر بعد صراع استمر لحظة مع قوة الماء . وكان النهر عندما يصب فى البحر يلتف حول نفسه ويكون شيئا أشبه بعقدة من الماء . وبعد ذلك يفقد النهر كثافته وينتشر على هيئة مروحة ثم لايفتأ يرق ويرق حتى لايعدو ان يكون غلالة سائلة ملقاة على الرمال الناعمة . وتتدفق مياه المد فى النهر فى صورة موجات صغيرة مرقطة بالزبد . وكانت السماء اللامعة تنعكس هنا وهناك على صفحة الماء فى برك تشبه النهر وسط الرمل المائى . وتجول أجو ستينو قليلا وهو عار من ملابسه فوق الرمال الناعمة اللامعة كالمرآة وطاب له ان يطأ الرمل بقدميه وأن يرى الماء وهو يرتفع فجأة الى السطح فيغمر آثار

خطواته • وثارت فى نفسه رغبة غامضة يائسة فى أن يخوض عبر النهر ويواصل السير بمحاذاة الساحل مخلفا الصبية وسارو وأمه وخيانه السابقة كلها بعيـــدا وراءه • فلعله لو واصل سيره قدما الى الأمام ولم يعد أدراجه قط بل ظل يمشى ويمشى على هذا الرمل الناعم الابيض لعله يصل فى النهاية الى بلد لاأثر فيه لتلك الاشياءالشنيعة ــ بلد يجد فيهالترحيب الذى يتوق اليه حيث يمكنه أن ينسى كل ما تعلمه ليتعلمه من جديد فى رقة ورفق كما أوحى اليه احساسه الغامض وبطريقة طبيعية خالية من كل هذا الخجل والرعب • ثم حملق فى الأفق القاتم البعيد الذى كان يكتنف تخوم البحر والشاطىء والغابة وأحس بنفسه مشدودا الى ذلك الأفق الرحيب المترامى وكأنه يرى فيه الخلاص من عبوديته • وارتفعت صيحات الصبية وهم يتسابقون عبر الشاطىء فى اتجاه القارب فأيقظته صيحاتهم من تخيلاته الحزينة • وراح أحدهم يلوح له بملابسه فى الهـــواء بينما صاح برتو قائلا ــ « بيزا ــ نحن راحلون » فهز نفسه وسار محاذيا حافة البحر لينضم الى جماعة الصبية •

كان الصبية يتزاحمون فى الماء الضحل • وأخذ ســـارو يحذرهم فى لهجة أبوية من صغر حجم القارب ومن أنه لايتسع لهم جميعا • ولكنه كان واضحا أنه لايقصد سوى مشاكستهم وراح الصبية يلقون بأنفسهم كالمجانين عـــلى القارب وهم يصرخون ، وقد تشبثت عشرون يدا بجنبى القارب فىوقت واحد • وفى لمح البصر امتلأ القارب بأجسادهم التى لم تهدأ عن الحركة ، ورقدت فئة منهم فىالقاع وتكدست فئة أخرى حول الدفة فى مؤخر القارب وجلس البعض فى مقدم القارب والبعض الآخر على المقاعد أما الباقون فقد جلسوا على الحافـة وتدلت أقدامهم فى الماء • وكان القارب فى الواقع لا يتسع لكل ذلك العدد فارتفع الماء حتى كاد يبلغ أعلاه •

قال سارو فى سرور بالغ ــ « ألسنا جميعا هنا ؟ » ثم نهض واقفا وأطلق الشراع فأسرع القارب الى عرض البحر • وهلل الصبية لابحاره بهتافات مدوية •

ولكن آجو ستينو لم يشاركهم سعادتهم . بل راح يترقب الفرصة المواتية لاثبات براءته وازالة تلك الوصمة الظالمة التى كان يزرع تحت عتبتها . فانتهز لحظة انهمك فيها الصبية فى مناقشة ما وتسلل الى جانب الزنجى الذى كان يجلس وحده فى مقدم القارب وقد حاكى فى سواده نوعا جديدا من التماثيل التى توضع فى مقدم السفينة . وسأله اجو ستينو قائلا وهو يهصر احدى ذراعيه فى قوة ـ «ماالذى جئت تقوله عنى الآن؟»

لقد اساء اختيار تلك اللحظة ولكنها كانت أول فرصة أتيح فيها لآجو ستينو الاقتراب من الزنجى الذى حرص كل الحرص على الابتعاد عنه عندما كانا على الشاطىء . فقال حمص دون ان ينظر اليه ـ « قلت الحقيقة » .

ـ وما هى الحقيقة ؟

وذعر اجوستينو لرد الزنجى . « لن يجديك شيئا أن تهصر ذراعى على هذه الصورة . فانى ماقلت سوى الحقيقة . ولسوف أخبر أمك بكل شىء مالم تمتنع عن تحريض سارو على فحذار يابيزا » .

فصاح اجوستينو قائلا وهو يرى أسفل قدميه هوة فاغرة:

ـ ماذا ؟ ماذا تعنى ؟ هل جننت ..

ثم تلعثم قائلا وقد عجز لسانه عن متابعة تلك الرؤيا المخيفة التى استحضرها خياله فجأة ـ انى .. انى .

ولكن الوقت لم يتسع لمواصلة الحديث . اذ انفجرت صيحات الهزء والسخرية فى جميع أرجاء القارب .

وضحك برتو قائلا : انظروا اليهما جنبا الى جنب .. انظروا اليهما .. ياللعار اننا لانملك آلة تصوير لالتقاط صورهما معا . فاستدار اجوستينو نحوهم بوجه محتقن ورآهم جميعا يضحكون .. حتى سارو فانه كان يبتسم من تحت شاربه وهو يدخن سيجاره وقد أغمض عينيه فانسحب اجو ستينو بعيدا عن الزنجى وكأنه قد لمس افعى . ثم جلس يراقب البحر وقد التفت ذراعاه حول ركبتيه واغرورقت عيناه بالدموع .

وكانت الشمس فى الافق قد بدأت تميل الى الغروب وسط سحب من اللهيب فوق بحر بنفسجى أطلقت نحوه اشعة

زجاجية مدببة .. وهبت الريح وأخذ القارب يسير فى بطء وقد مال على احد جنبيه تحت ثقل الصبية .. واتجه مقـــدم القارب نحو عرض البحر فبدا وكأنه يقصـــد تلك الجوانب المعتمة من الجزر النائية التى بدت وسط دخان الغروب الأحمر كالجبال القائمة عند حافة هضبة بعيدة .. ووضع سارو ثمرة البطيخ التى سرقها الصبية بين ركبتيه ثمشقها بمطواتهالبحرية وقطع منها شرائح كبيرة وزعها عليهم بطريقة أبوية .. وأخـذ كل منهم يناول الاخر شرائح البطيخ التى راحوا يقضمونها فى نهم وهم يتفلون البذور وينهشون قطعا كبيرة من اللحم... وبعد ذلك أخذت تتطاير شرائح القشرة الحمراء التى قرضت بشدة احداها تلو الاخرى من فوق القارب الى البحر .. وبعـد الانتهاء من تناول البطيخ جاء دور قارورة النبيذ التى اخرجها سارو فى وقار من تحت الكوثل .. ودارت الزجاجة عـــلى الصبية فى القارب وقد أرغم حتى اجو ستينو على تناول جرعة منها .. وكان النبيذ دافئا فلم يلبث أن صعد الى رأسه فى الحال .. وعندما عادت الزجاجة الفارغة الى مكانهـا أنشـــد تورتيما اغنية فاحشـــة اشترك الجميع فى ترديد قرارها .. وكانوا بعد كل مقطع من الاغنية يحثون اجو ستينو على الغناء أيضا لانهم جميعا لاحظوا حالته النفسية السيئة ولـكن أحدا لم يتحدث اليه الا لمشاكسته أو لحثه عـــلى الغناء .. وأحس اجو ستينو فى داخل نفسه بعبء ثقيل من الحزن المكبوت الذى لم يزده البحر العاصف ولهيب المغيب الرائععلىالمياه البنفسجية الا مرارة وقسوة لاتحتمل .. فقد بدا له من الظلم الصـــارخ ان يسير قاربهم هذا بكل ما احتشد فيه من حقد وقســـوة وافتراء وفساد فى مثل هذا البحر وتحت هذه السماء .. ففى وسط هذا الجمال كله بدا له قاربهم وهو محتشد بالصـــبية الدائبين على الحركة كالقردة القبيحة ومن بينهم سارو البدين السعيد واقفا عند الدفـة : بدا له هـــذا منظرا كئيبا لايمكن تصديقه .. حتى أنه تمنى فى بعض اللحظات لو غـــرق بهم القارب .. بل تمنى لو مات هو حتى لايلوثه بعد ذلك كل هذا الدنس ولاتنتقل اليه عدواه .. ولشـــد ما بدا له بعيدا ذلك

الصباح الذى رأى فيه الكوخ الاحمر فى بانيو فسيوتشي لاول مرة ·· كان لايبدو بعيدا فحسب بل وكأنه ينتمي الى عهد مات واندثر ·· وكان الصبية جميعا يطلقون صرخة يقشعر لها بدنه كلما ارتفع القارب فوق موجة عالية على صورة غير مألوفة ·· وكان كلما خاطبه الزنجي باتضاعه المنفر المشوب بالذلة والنفاق يحاول الا ينصت اليه بل يمعن فى الابتعاد عنه فى مقدم القارب ·· لقد أدرك فى غموض انه دخل فى ذلك اليوم المشئوم مرحلة مليئة بالمشاق وألوان التعاسة والشقاء التى رأى أنه لاسبيل الى الهرب منها ·· كان القارب قد قام برحلة طويلة للغاية برحيله الى الميناء ثم العودة مرة اخرى ·· وأخيرا ما ان لمس الارض حتى ولى اجو ستينو الادبار ·· دون ان يودع أحدا ·· ولكنه لم يكن قد ابتعد كثيرا عندما أبطأ خطاه ونظر الى الخلف فرأى الصبية يساعدون سارو على سحب القارب فوق الشاطىء ·· وكان الظلام قد بدأ يبسط أجنحته .

— ٤ —

كان ذلك اليوم بداية مرحلة ظلام واضطراب فى حياة اجو ستينو فيومذاك فتحت له عيناه عنوة ·· ولكن ما تعلمه كان أكثر مما ينبغى ·· بل عبئا أكبر مما يمكنه احتماله ·· ولكن صدره لم يضق ودمه لم يتسمم بجدة تلك الاشياء التى تعلمها بقدر ماضاق وتسمم بنوعها وصنفها ·· فقدكانت أشدهولا وأكثر شؤما مما يمكنه أن يتمثله ·· اذ خيل له مثلاانه بعد ماتجمع لديه يومئذ عن أمه من حقائق كانت خافية عليه فان علاقته بها ستتضح وتستبين وأن ما كان يحس به لمداعباتها من قلق ونفور بل واشمئزاز على أثر ما كشف عنه سارو من أمور سوف يذوب ويهدأ كما لو كان ذلك بفعل السحر فى ظل وعى هادىء جديد ·· ولكن هذا لم يحدث بل بقى احساسه الاول بالقلق والنفور والاشمئزاز الذى أورثه اياه ما أصيب به حبه البنوى من صدمة وارتباك عند ادراكه الغامض لانوثة أمه ·· وظل يراوده بعد ذلك الصباح الذى قضاه فى خيمة سارو نفسه ذلك الاحساس المريب بالفضول المذنب الذى لم يستطع احتماله لما كان يكنه فى نفسه نحو أمه من احترام

تقليدى ثابت ٠٠ وبينما كان فى مبدأ الامر يحاول بعقله الباطن أن يتحرر من تلك العاطفة ببغض لامبرر له فقد بدا له الآن انه يكاد يكون لزاما عليه ان يفصل بين معرفته المنطقية التى اكتسبها حديثا وبين احساسه بقرابة الدم التى كانت تربطه بشخص شاء هو أن يعده امرأة فحسب ٠٠ فقد احس انه لو أمكنه أن يرى أمه امرأة جميلة فحسب كما كانت فى نظر سارو والصبية اذن لتلاشى من نفسه كل ما كان يشعر به من شقاء ٠٠ وحاول بكل قوته ان يتلمس الفرص لتأكيد هذا الاعتقاد وترسيخه ٠٠ ولكن ذلك لم يؤد الا الى نتيجة واحدة وهى ان احترامه العميق لامه وحبه اياها قد حلت محلهما القسوة والشهوانية ٠

وفى المنزل كانت أمه كعادتها لاتتستر أمامه أكثر من ذى قبل ولم تلحظ أى تغير فى نظرته اليها ٠٠ فهى كأمه لم يخالجها نحوه احساس بالخجل ولكنها بدت فى نظره مثيرة للغاية ٠٠ فأحيانا كان يسمعها تناديه فيذهب الى غرفتها حيث يجدها فى ثوب منزلى خفيف يكاد يكشف عن ثدييها وهى تضع زينتها ٠٠ أو يستيقظ من نومه فيجدها منحنية فوقه لتمنحه قبلة الصباح وقد فتحت عباءتها فيرى بوضوح معالم جسدها من خلال قميص النوم الهش المغضن ٠٠ ثم تغدو وتروح أمامه وكأنه لاوجودله ٠٠ ثم ترتدى جوربيها أوتخلعهما وتتشح بملابسها وتتعطر أو تتزين ٠٠ كل هذه الاعمال التى كان يعدها اجو ستينو فى وقت من الاوقات طبيعية للغاية صارت تبدو له الآن كدلائل ظاهرية مرئية لحقيقة أكثر شمولا وأشد خطورة فيتمزق عقله بين الفضول والالم ٠٠ كان لايفتأ يحدث نفسه قائلا : انها امرأة فحسب ٠٠ متذرعا بعدم الاكتراث الموضوعى الذى يتميز به الخبيرون ٠٠ ولكن لاتكاد تمضى على ذلك لحظة واحدة حتى يتمنى لو صاح قائلا وقد ضاق ذرعا بشدة يقظته وبأمومتها اللاهية عن حالها «أسترى نفسك ٠٠ أغربى واياك أن تخلعى العذار أمامى بعد ذلك فأنا لم اعد كما كنت» ولكن أمله فى الحكم على أمه كامرأة فحسب لم يلبث ان تحطم وانهار ٠٠ اذ سرعان ما تبين له أنها حتى لو أصبحت امرأة فان ذلك لن يقلل من أمومتها فى عينيه بل

يزيدها قوة .. كما أدرك أن احساسه القاسى بالخجل الذى كان ينسبه فى أول الامر الى جدة مشاعره لن يفارقه الآن.. ورأى فى ومضة أنها ستظل فى نظره دائما ذلك الشخص الذى أحبه كل هذا الحب الصافى الطليق وأنها لن تفتأ تخلط بين أثر حركاتها أنوثة وبين انقاها حدبا وحبا وهى التى لم يعرف سواها أمدا طويلا ، فهو لن يستطيع الفصل بين تصوره الجديد لها وبين ذكرى كرامتها السابقة التى جرحها الان ... فهو لم يشك لحظة ان حقيقة علاقتها بالشاب كانت مطابقة فى الواقع لما قرره الصبية فى خيمة سارو .. وحار بينه وبين نفسه لذلك التغير الذى طرأ عليه .. ففى أول الامر كان لايشعر الا بالغيرة على أمه والبغض نحو ذلك الشاب .. وكان كلا الاحساسين غامضا مبهما الى حد ما .. ولكنه الان وهو يحاول ان يظل هادئا موضوعى النظرة تمنى لو أحس بالعطف نحو الشاب وعدم الاكتراث نحو أمه .. غير أنه بدا له ان هذا العطف سيجعل منه شريكا له على صورة ما وأنه سوف يتهم بالنزق لعدم اكتراثه لامه .. لم يعد الان يخرج معهما فى الطوف الا لماما لانه كان يوفق عادة الى التهرب منهما .. ولكنه كان كلما رافقهما يحس بأنه يتأمل حركات الشاب وألفاظه وبوده لو تجاوز الحدود المتاحة للياقة الاجتماعية كما كان يحس أنه يتفحص امه يكاد يراوده الامل فى اثبات صحة شبهاته وظنونه ولكن هذه المشاعر كانت فى نفس الوقت تفوق احتماله لانها تمثل النقيض تماما لما ينشده من احساس . وكاد يتمنى لو عاوده ذلك الشعور بالشفقة الذى أثاره فى نفسه ذات مرة سلوك أمه الأحمق .. فقد كان هذا الشعوراكثر انسانية وعطفا مما كان يمارسه عندئذ من تشريح لايعرف الرحمة .

تركت فى نفسه تلك الايام التى عانى فيها من الصراع الداخلى احساسا مضطربا بالدنس .. فقد أحس انه لم يستبدل حالته الاولى التى تتسم بالبراءة والسذاجة بما كان ينشده من هدوء الرجولة بل بحالة غامضة غير محددة لايجد فيها من المزايا ما يعوضه عما فقده بل انه لم يجد فيها سوى حيرة جديدة أضيفت الى ماكان يعانيه من قبل .. فما الجدوى من

وضوح الرؤية اذا كان هذا الوضوح لايجلب معه سوى مزيد من الظلام ٠٠ وكان يتساءل أحيانا كيف يوفق الصبية الذين يكبرونه سنا فى الحفاظ على حبهم لامهاتهم رغم علمهم بما يعلم هو ٠٠ وخلص الى أن مثل هــذا الادراك لا بد ان يدمر حبهم البنوى فى الحال فى حين أنهما ظلا لديه متلازمين فى عقــــدة كئيبة لايتنافى احدهما مع الاخر ٠

وكما يحدث احيانا فقد صار المنزل الذى كان مسرحا لكــل هذه الاكتشافات والصراعات مكانا لايكاد يحتمل فى نظره ٠٠ فى حين انه كــان يجــد فى منظر البحر والشمس وزحــام المستحمين والنساء الكثيرات ما يشتت انتباهه على الاقل ويخدر حساسيته ٠٠ أما فى البيت حيث يخلو الى امه بين أربعــة جدران فكان يراوده احساس بأنه معرض لجميع ألوان الاغراء ومحاصر بالمتناقضات ٠٠ كانت أمه على الشـــاطئ لاتعدو ان تكون احدى المستحمات الكثيرات فى ضوء الشمس ٠٠ أما فى البيت فقد بدت له منفردة متسلطة حيث كانت كل حركة من حركاتها وكل كلمة من كلماتها تبدو بارزة للعيان فى وضوح خارج عن المألوف تماما كما يبدو الممثلون عــلى خشبة مسرح صغير وكأنهم اكبر حجما مما هم فى واقع الحياة ٠٠ ولشـــد ماكانت حساسية اجوستينو للاشياء المألوفة فى منزله متوقدة ومتطلعة الى المغامرة ٠٠ ففى طفولته كان المنزل بجميع دهاليزه وأركانه يتسم فى نظره بطابع غامض غريب ٠ كانت كلها فى نظره أماكن يمكنك أن تجرى فيها أغــرب الاكتشافات وتخــوض فيها مغامرات خيالية للغاية ٠٠ ولكن هذه المغامرات والاكتشافات لشـــد ما اختلف طابعها الآن بعــد لقائه بهؤلاء الصبية فى الخيمة الحمراء حتى انه لم يعد يدرى هل يقبل عليهـــا أم يخشاها ٠٠ وكان من قبل يتخيل وجود مكامن وأشباح وأطياف وأصوات فى الاثاث والجدران ٠٠ أما الان فقد ارتبط خياله على صورة اكثر ايجابية مما كان عليه فى طفولته الخصــبة بتلك الحقائق الجديدة التى بدا له ان المنزل بجميع جدرانه وأثاثه بل حتى هوائه محمل بها ٠٠ وصار فى نومــه لايحس بذلك الاضطراب البرئ القديم الذى كانت امه لاتفتأ تهدئه بقبلــة

المساء بل اخذ يعذبه ذلك الفضول المخجل المحرق الذى كـــان يزداد نموه أثناء الليل فيكبر ويتضخم ويبلغ ابعادا هائلة ٠كان يبدو له انه يجد في الظلام مزيدا من الوقود لنيرانه الدنسة ٠ كان يبدو وكأنه يتجسس فى كل مكان فى المنزل عـــلى اثار امرأة تقيم معه تحت سقف واحـــد ـ تلك المرأة التى لم يعرف سواها عن قرب فى الفة ومودة ـ وهذه المرأة هى أمه ٠ فكان يحس فى وجوده معها وكأنه يشرف بصورة ما على حراستها ٠٠ فكان عندما يقترب من باب غرفتها يحس وكأنه يتجسس عليها وعندما يلمس ملابسها يحس وكأنه يلمسها هى نفسهـــا اذ أنها كانت ترتدى هذه الملابس وقد حوت جســـدها ٠٠٠ وكانت الاحلام تتراءى له أثناء الليـــل وهو مفتـــوح العينين وتعذبه الرؤى الرهيبة ٠٠ كما كان يخيل اليه احيانا انه عاد الى طفولته من جديد وأنه يخاف كل صوت وكل شبح فيقفز من فراشه ليجرى الى فراش أمه ويلوذ به ٠٠ ولكنـــه لايكـــاد يلمس الارض بقدميه حتى يدرك على الرغم من نعاسه وذهوله ان خوفه لم يكن الا قناعا ماكرا لفضـــوله ، وما أن يرتمى فى أحضان أمه حتى تتمخض رؤياه عن حقيقة غرضها ٠٠ وأحيانا كان يستيقظ فجأة من نومه ويتساءل ما اذا كان الشاب صاحب الطوف تضمه عندئذ بالذات من قبيل الصدفة العارضة غرفـــة أمه التى تقوم على الناحية الاخرى من الجدار ٠٠ وثمة أصـــوات معينة كانت تبدو وكأنها تؤكد هذا الظن وأصوات اخرى تبدو وكأنها تكذبه ٠٠ فيظل يتقلب قلقا فى فراشه فترة وجيزة ٠ ثم لايلبث ان يجد نفسه فى النهاية واقفا فى الدهليز وقد ارتدى قميص نومه دون ان يدرى مطلقا كيف وصل الى هنـــاك ثم يأخذ فى الانصات فى خارج غرفة أمه والتجسس عليهـــا ٠٠ وذات مرة لم يستطع ان يقاوم الاغراء بدخول الغرفة دون ان يطرق بابها ٠٠ وهناك وقف وسطها بلا حراك وكان ضوء القمر يتسلل من خلال النافذة المفتوحة منتشرا فى ارجائها ٠٠ واذا به يركز عينيه على الفراش ... أمكنه أن يرى شعر أمه الاسود مسدلا على الوسادة كما شاهد اطرافها الطويلة وقد امتلات فى رقة وجمال ٠٠ سألته وهى تستيقظ من نومها قائلة ـ أهـــذا

أنت يا اجو ستينو ؟ .. فاستدار دون ان ينبس بكلمة وهرول عائدا الى غرفته .

وقد دفعه احجامه عن الخلو بأمه الى الامعان فى التردد على بانيو فسيوتشى حيث تنتظره ألوان اخرى من العـــذاب جعلت المكان كمنزله بغيضا الى نفسه ـ اذ انه لم يطرأ تغير ما عـلى موقف الصبية منه بعد خروجه وحيدا فى القارب مع سارو .. بل اتخذ فى الواقع شكلا نهائيا محددا وكأنه اقيم على اساس من الاعتقاد الراسخ الذى لايتزعزع .. وذلك لانه هو الـــذى قبل هذا الصنيع المشئوم الذى عرضه عليه سارو .. واستحال عليه ان يمحو تلك الفكرة من أذهانهم .. ولهذا فقد اضيف الى احساسهم نحوه منذ البداية بالغيرة والاحتقار لثرائه مصـــدر اخر للاحتقار .. ذلك هو فساده المزعوم .. وقد بدا لاذهان أولئك الهمجيين الصغار أن كليهما يبرر الاخر وينجم عنه .. فقد كان يبدو من تحقيرهم اياه وقســوتهم فى معاملتـــه انهم يتهمونه بينهم وبين انفسهم بالثراء وبالفساد كنتيجة طبيعيـة لذلك .. وسرعان ما احس اجو ستينو بالصـــلة الدقيقة بين هاتين التهمتين وخالجه شـــعور غامض بأنهم كانوا يعاقبونه لاختلافه عنهم وتفوقه عليهم .. وكان ملبسه وحديثه عما فى منزله من ترف ورفاهية وكذلك ميوله وأسلوبه فى الحديث ، كل هذا كان يعبر عن ذلك الفارق الاجتماعى والتفوق الطبقى .. وهذا هو ما دعاه الى انكار التهمة الموجهة اليه بوجود علاقة ما بينه وبين سارو .. كما لم يفتأ هذا التفوق يكشف عن نفسه فى نفوره الواضح الصريح من اداب الصبية وعاداتهم .. ولذا فقد استقر رأيه فى النهاية على أن يكون كما بدا انهم يبغون له ان يكون .. أى على غرارهم تماما ولم يصدر فى ذلك القرار عن اختيار معين من جانبه بقدر ما كان يحفزه عليه موقفه المهين الذى وجد فيه نفسه .. فأخذ يتخير من ملابسه اكثرها بلى وأشدها قذارة مما اثار دهشة أمه البالغة فقد لاحظت انه لم يعد يفخر بمظهره .. كما حرص على تجنب ذكر شئ ألبتة عن رفاهيـة الحياة فى منزلهم .. وأخذ يتكلف الرضا عن تلك الاســاليب والعادات التى كانت حتى ذلك الحين تبعث فى نفسه النفـور

والاشمئزاز ·· وذات يوم وقع ما هو أسوأ من هذا كله مما تطلب جهدا كبيرا ليقوى عليه ·· فقد حدث انقال للصبية أثناء تندرهم المعهود بخروجه وحيدا مع سارو انه ينئم الانكار وأن ماكانوا يتهمونه به قد وقع فعلا ·· وأن الامر لايهمه سواء عرفوا ذلك أو لم يعرفوه ·· وجفل سارو لهذه التأكيدات ولكنه لم ينكرها ·· ولعله خشى أن يعرض نفسه للهزء والسخرية ·· ولشد ما دهش الصبية كذلكفي أول الامر عندما سمعوه يعترف بصدق الرواية التى بدا أنه تعذب كثيرا من جرائها ·· ولكنهم ماكانوا ليعتقدوا أنه خليق بكل هذه الشجاعة لشدة خجله وحيائه ·· ومع ذلك فما لبثوا أن امطروه بوابل من الاسئلة عن حقيقة ما حدث ·· وعندئذ خانته شجاعته واحمر وجهه وأبى ان يزيد حرفا واحدا ·· فكان طبيعيا أن يفسر الصبية صمته على طريقتهم الخاصة ·· أى أنهم عزوه الى خجله لا الى جهله وعجزه عن الاختلاق كما هى الحقيقة ··· واشتدت عليه وطأة سخرياتهم اللاذعة المألوفة ونكاتهم السافلة اكثر من أى وقت مضى ·

ولكنه كان قد تغير حقا على الرغم من هذا الانهيار ··فقد انتهى الامر لطول عشرته لهؤلاء الصبية أن صار على غرارهم تماما دون ان يعى ذلك هو نفسه ودون ان يسعى اليه حقا ففقد ميوله القديمةولم يكتسب فى الحقيقة بديلا جديدا ·· وقد حدث اكثر من مرة فى اثناء نوبات نفوره واشمئزازه من بانيو فسيوتشى ·· ان شارك الصبية فى بانيو سبرانزا ألعابهم البريئة متخيرا زملاءه القدامى الذين عرفهم فى أوائل الصيف ·· ولكن هؤلاء الصبية ذوى النشأة الحسنة لشد مابدوا لعينيه الان بلداء أغبياء لالون لهم ولا طعم ·· فما كان أمل نزهاتهم المقررة تحت بصر ابائهم أو الاوصياء عليهم وماتفه احاديثهم المدرسية ومجموعاتهم من طوابع البريد وكتبهم عن المغامرات وما الىذلك ·· وفى الواقع فان صحبته لتلك العصابة واحاديثهم عن النساء وحملات السرقة التى كانوا يشنونها على البساتين بل حتى اعمال الاضطهاد والعنف التى كان هو نفسه ضحية لها ، كل هذا كان قد غير من نفسيتهوطباعه حتى اصبح

لايطيق اصدقاءه القدامى ٠٠ وثمة حـــادث وقع له قرابة ذلك الحين كان دليلا قويا على هذا التغير ٠٠ فقد حدث ذات صباح ان وصل متأخرا بعض الشيء الى بانيو فسيوتشى فلم يجـــد احدا هناك ٠ كان سارو قد ذهب لبعض شأنه ولم يكن هناك أحد من الصبية فاتجه فى كآبة الى حافة الماء حيث جلس على ظهر طوف ٠٠ وفيما هو يراقب الشاطىء لعله على الاقل يرى سارو قادما نحوه اذا برجل يظهر له وكان يصحب صـــبيا يصغره بعامين تقريبا ـ كان رجلا ضئيلا ذا ساقين قصـيرتين ممتلئتين أسفل بطنه البارزة ووجه مســـتدير وأنف مدبب تعلوه عدستان ٠٠ كـان يبدو كموظف مدنى أو اســـتاذ فى الجامعة وكان الصبى نحيلا شاحب الوجه يرتدى حلة فضفاضة ويضم الى صدره كرة كبيرة من الجلد بدت جـديدة تماما ٠٠ وأقبل الرجل على اجو ستينو ممسكا بابنه من يده وراح ينظر اليه مرتابا بعض الوقت ٠٠ وأخيرا سأله ان كان من الممكن أن يقوما بنزهة فى البحر ٠

فأجابه اجو ستينو قائلا بلا تردد : بالطبع ٠

وتأمله الرجل فى شيء من الريبة من فوق نظارته ثم ســأله عن اجر النزهة بالطوف لمدة ساعة فى البحر ٠٠ وكان اجوستينو يعرف الاسعار فأخبره بذلك ثم أدرك ان الرجل قد حسبـــــه ابن الغواص أو احد الصبية فأرضى ذلك غروره على صــــورة ما ٠٠ وقال الرجل : حسنا ٠٠ فلنذهب ٠

ولم يتردد اجو ستينو ٠٠ بل حمل فى الحال كتلة الخشب الصنوبرية الخشنة التى كانت تستخدم كبكرة ووضعها تحت مقدم القارب ٠٠ ثم أمسك العوامتين من طرفيهما بكلتا يديــه وقد تضاعفت قوته لهذا الحافز الفريد لكبريائه فدفع بالطوف الى البحر ٠٠ ثم عاون الصبى وأباه على ركوب القارب ومـــن خلفهما وثب هو وأمسك بالمجدافين ٠

ولبث يجدف فى صمت فترة وجيزة ٠٠ وكان البحـر فى تلك الساعة المبكرة مقفرا تماما ٠ ولم يفتأ الصبى يضم كرته الى صدره وقد ركز عينيه الشاحبتين على اجو ستينو ٠ بينما جلس الرجل فى ارتباك وقد انفرجت ركبتاه لتفســـحا مكانا

لكرشه .. ولم يفتأ يدير عنقه الغليظ لينظر حوله وبدا انه مستمتع بالنزهة .. وأخيرا سأل اجوستينو عمن يكون وهل هو ابن الغواص أم احد اجرائه.. فأجابه قائلا انه احد اجرائه .. ثم سأله الرجل قائلا : وكم تبلغ من العمر ؟.

فرد اجوستينو قائلا ــ الثالثة عشرة .

فقال الرجل ملتفتا الى ابنه : أترى ؟ .. ان هــذا الصبى يكاد يكون فى مثل عمرك وها هو يعمل فعلا .. ثم التفت الى اجوستينو قائلا : وهل تذهب الى المدرسة ؟.

فأجابه متخذا تلك اللهجة المنافقة التى كان قد سمع الصبية يتكلمون بها عندما يوجه اليهم سؤال من هذا القبيل قائلا : وددت لو فعلت ولكن كيف يمكننى ذلك ياسيدى ؟ .. فعلينا ان نكسب قوتنا .

فقال الاب لابنه : أترى ؟ هــذا الصبى لايمكنه أن يذهب الى المدرسة لانه مضطر الى العمل .. وأنت لاتخجل من ان تثير ضجة حول دروسك .

قال اجو ستينو وهو يجدف فى قوة : فى الاسرة عدد كبير منا .. والجميع يعملون .

وسأله الرجل قائلا : كم يمكنك أن تكسب يوميا ؟.

فأجاب اجو ستينو قائلا : هذا يتوقف على عدد العملاء .. فان ارتفع عددهم امكننى ان اكسب حــوالى عشرين أو ثلاثين ليرة .

فقاطعه الرجل قائلا : تعطيها طبعا لوالدك .

فأجابه اجوستينو قائلا دون أن يتردد لحظة : بالطبع عدا ما احصل عليه من هبات .

وعندئذ لم ير الرجل ضرورة للاشادة به كقدوة حسنة لابنه .. بل أومأ برأسه مستحسنا ولم يفه ابنه بشىء بل ضــم الكرة بشدة الى صدره وظل مركزا عينيه الشاحبتين الدامعتين على اجو ستينو .. وسأل الرجل اجوستينو فجأة :

ــأتحب ايها الصبى ان تكون لديك كرة جلدية كهذه ؟ .

وكان اجوستينو عندئذ يملك كرتين مماثلتين بقيتا زمنــا طويلا فى غرفته بين اللعب الاخرى .. ولكنه قال : بالطبع .

ولكن انى لى بواحـدة ؟ .. فعلينا أولا ان نبتاع ضروريات الحياة .. فالتفت الرجل الى ابنه قائلا له فى لهجة ربما كانت تنطوى على شيء من المزاح : والآن يابطرس اعط كرتك لهذا الصبى الذى لايملك واحدة .. فنظر الصبى أولا الى ابيه ثم الى اجو ستينو ثم شدد فى طمع ضمته على الكرة ولكنه لم ينبس بكلمة .. فسأله أبوه فى رقة قائلا : ألا تبغى ذلك ؟ ألاتبغى ذلك ؟ .

فقال الصبى : ولكنها كرتى .

فألح الأب قائلا : نعم كرتك ولكنك ان شئت تستطيع أن تتخلى له عنها .. فهذاالصبى المسكين لم يملك فىحياته كـرة قط .. والان الا تريد ان تتخلى له عنها .

فقال ابنه مؤكدا : كلا .

وعندئذ تدخل اجو ستينو قائلا بابتسامة متظاهرا فيهـــا بالصلاح : أنا لاأريدها فى الحقيقة .. فلن يتسع وقتى للعب بها .. أما هو فالامر يختلف بالنسبة له .

فابتسم الاب لهذه الكلمات مسرورا بهذا الدرس الذى تلقاه ابنه على الطبيعة فقال وهو يربت على رأس ابنه : انه خير منك .. فهو فقير ولكنه لايريد ان يأخذ كرتك .. بل يدعها لك . ارجو ان تتذكر دائما كلما اردت ان تتذمر أو تثير ضجة ان فى العالم كثيرين من أمثال هذا الصبى ممن يضطرون الى العمل ولم يملكوا فى حياتهم كرات قط أو اية لعبة اخرى .

فردد الصبى قائلا فى عناد : ولكنها كرتى .

فتنهد الاب فى شرود قائلا : نعم كرتك .

ثم نظر الى ساعته وقال فى لهجة امرة : لقـد حان الوقت للعودة .. فلتعد بنا يابنى .

فأدار اجو ستينو مقدم القارب تجاه الشاطىء دون ان ينبس بكلمة .

وعندما اقترب من الشاطىء رأى سارو واقفا فى المـاء يرقب حركاته بانتباه وخشى ان يفشى الغواص سره .. ولكن سارو لم يفه بكلمة .. فلعله فهم الموقف .. ولعله لم يعبأ بذلك .

www.library4arab.com/vb

وعاون اجو ستينو فى مهابة على سحب القارب الى الشـــاطىء .. وقال الرجل وهو يعطى اجو ستينو المبلغ المتفق عليه مع

منحة صغيرة .. هذه لك .. فأخذ اجو ستينو النقود وأعطاها لسارو .. ثم أضاف قائلا فى شجاعة مظهرية راضية :ولكننى سأحتفظ بالهبة .. فسكت سارو ووضع النقود فى حزامه المحيط ببطنه وهو لايكاد يبتسم ثم سار فى بطء الى الكوخ عبر الشاطىء .

وقد بعث هذا الحادث الصغير فى نفس اجو ستينو شعورا محددا بأنه لم يعد ينتمى الى ذلك العالم الذى يعيش فيه صبية من ذلك النوع وأنه لشد ما ألف الان الحياة مع الفقراء حتى سئم نفاق كل لون آخر من ألوان الحياة . ولكنه فى الوقت نفسه احس بالاسف لانه لم يكن يشبه حقا صبية العصابة .. فما زال مرهف الحس للغاية .. وكان يخطر بباله احيانا انه لو كان حقا واحدا منهم لما تألم كل هذا الالم من نكاتهم السمجة الفظة .. لذا فقد بدا له انه فقد وضعه الطبقى الاول دون أن ينجح فى استبداله باخر .

ـ ٥ ـ

وذات يوم قرب نهاية الصيف ذهب اجو ستينو مع الصبية الى الغابات الصنوبرية لصيد الطيور والبحث عن الكمأة ولشد ما كانت تمتعه هذه المغامرات الجريئة التى كانوا يقومون بها .. فقد اقتحموا الغابة وساروا أميالا فوق تربتها الرخوة فى ممرات طبيعية تحف بها جذوع الاشجار الشبيهة بالاعمدة الحمراء وقد رفعوا أبصارهم الى السماء ليروا ما اذا كان هناك شىء يتحرك بين الاشواك الصنوبرية وسط تلك الجذوع الطويلة .. عندئذ كان برتو أوتورتيما أوساندرو وهو أمهرهم جميعا يجذب مطاط قذافته مصوبا حجرا مسننا فى الاتجاه الذى يعتقد انه رأى فيه حركة ما .. فيهوى أحيانا على الارض عصفور كسير الجناح لا يفتأ يدف فى عرج بينما تنبعث منه شقشقة صغيرة محزنة حتى يمسك به احد الصبية لاويا عنقه بين أصابعه .. ولكن المطاردة فى معظم الاحيان كانت لاتأتى بالنتيجة المرجوة وبظل الصبية يتجولون متوغلين فى قلب الغابة . وقد مالت رءوسهم الى الخلف وتركزت عيونهم على نقطة ما على ارتفاع كبير فوقهم .. وهم لايفتأون يتوغلون فى

الغابة حتى يصلوا فى النهاية الى حيث ينبت دق الشجر وتحل كتلة متشابكة من الشجيرات الشائكة محـــل التربة العارية الرخوة المغطاة بالقشرة الجافة ٠٠ وعندئذ يبدأ البحث عن الكماة ٠٠ كانت أوراق الشجيرات على أثر المطر الذى ظـل يتساقط يوما أو يومين لاتزال تلمع بالبلل كما لم تزل الارض رطبة تغطيها براعم خضراء جديدة ٠٠ وفي وسط الشجيرات ٠٠ كانت الكماة الصفراء تلمع بالبلل تارة منفردة فى روعـة وتارة فى جماعات هائلة من البراعم الصغيرة ٠٠ فيمد الصبية اصابعهم خلال العليق حيث يقطفونها فى رفق واضعين رؤوسها بين أصابعهم حريصين أيضا على نزع السوق وقد علق بهـــا الطين والطحلب ٠٠ ثم ينظمونها على أسلاك مكنســـة طويلة مدببة ٠٠ وهكذا فانهم فى اثناء تجوالهم على هذه الصـــورة من بقعة الى بقعة بين دق الشـجر يجمعون منها عدة كيلوات يتناولها تورتيما فى عشائه ٠٠ اذ انه لما كان أقواهم بنية فانه كان يصادر مغانمهم ٠٠ ويومئذ كان محصولهم وافرا اذ انهم بعد تجوالهم مدة طويلة عثروا على بعض الشجيرات البكر التى تنمو فيها الكمأة كثيفة متقاربة فى حوضها الطحلبى حتى تأخر بهم الوقت ولما يستكشفوا بعد هذا العدد كله من الشجيرات

٠٠ فبدأوا فى بطء رحلة العودة وهم يحملون معهم عدة فروع طويلة محملة بالكمأة وكذلك طائرين أو ثلاثة ٠

وكان من عادتهم ان يسلكوا ممرا يفضى مباشرة الى الشاطىء ٠٠ ولكنهم فى ذلك المساء ابتعدوا عن هذا الطريق وأوغلوا فى الابتعاد عنه وهم يقتفون اثر عصفور مشاكس ظل يدف هـــنا وهناك بين الاغصان الخفيضة موهما اياهم انه صار فى متناول أيديهم تماما حتى انتهى بهم المطاف الى اجتياز الغابة كلها وكانت تنتهى من الشرق خلف المدينة تماما ٠٠ وكانت ظلمة الغسق قد بدأت تنتشر عندما ظهروا من بين اشجار الصنوبر وخرجوا الى الساحة فى ضاحية نائية انتشرت فيها اكـداس القمامـــة والضهباء والعلقى وتلوت عبرها بضـعة ممرات غير واضحة المعالم ٠٠ كما نمت هنا وهناك حول حافتها اشجار الدفـــل القصيرة ٠٠ وقد خلت الساحة من الافاريز ٠٠ أما الحـدائق

المغبرة المحيطة بالفيلات القليلة الصغيرة التى تحف بها فكانت تفصل احداها عن الاخرى مساحات من الارض المهملة التى احيطت بسياج متقطع ·· وكانت هذه الفيلات الصغيرة موزعة بحيث تحيط بالساحة من جميع الجهات ·· وقد امتدت فوق هذا الميدان الكبير رقعة السماء فسيحة مترامية فأمعنت فى خلق ذلك الانطباع بالوحدة والرثاثة ·

واجتاز الصبية الساحة فى خط الزاوية وهم يسيرون مثنى وكأنهم افراد احدى الطوائف الدينية ·· وفى نهاية الموكب كان يمشى تورتيما واجو ستينو وقد حمل الاخير فرعين طويلين محملين بالكمأة بينما أمسك تورتيما فى يديه الكبيرتين بزوج من العصافير تدلى رأساهما الداميان وهما يتأرجحان ·

وعندما بلغا الطرف القصى من الساحة لكز تورتيما اجوستينو بمرفقه قائلا له فى مرح وهو يشير الى احدى الفلات الصغيرة: أترى هذه الفيلا ؟ ·· فنظر اليها اجو ستينو ·· فاذا بها على طراز الفيلات الاخرى جميعها ولكنها ربما كانت اكبر قليلا ذات طوابق ثلاثة وسطح منحدر مبلط ·· وكانت واجهتها دخانية قاتمة اغلقت مصاريعها البيضاء باحكام ·· وكادت الفيلا تتوارى خلف الاشجار الكثيفة فى الحديقة التى لم تبد فسيحة واسعة ·· وقد احاط بها سور يكسوه نبات القسوس وأمكنه ان يرى من خلال البوابة ممرا قصيرا تحف به الشجيرات وبابا مصفحا مزدوجا تعلوه سقيفة من الطراز القديم ·· فقال اجو استينو متوقفا عن المسير : لاأحد هناك ·

فضحك الاخر قائلا : لا احد هناك ·· هه ؟ ·· ثم أوضح له فى بضع كلمات من هم سكانها ·· وكان اجو ستينو قد سمع الصبية يتحدثون مرارا عن منازل تقيم فيها النسوة على انفراد وكيف كن يحتبسن فيها طوال النهار وما ان يحل الليل حتى يتأهبن لاستقبال كل من يأتى لزيارتهن فى مقابل اجر معين ·· ولكنه لم ير قط منزلا من هذا النوع ·· ولشد ما أثارت فى نفسه كلمات تورتيما ذلك الاحساس بالغرابة والحيرة الذى سبق ان راوده عندما سمعهم يناقشون هذا الموضوع لاول مرة ·· ولكنه لم يكد يصدق الان كما لم يصدق من قبل

وجود مثل هذا المجتمع الذى تبلغ به سماحته الفريدة ان يبذل فى غير تحيز كل هذا الحب ـ ذلك الحب الذى لشد مابدا له بعيد المنال نادر الوجود .. فأخذ ينظر الى الفيلا الصغيرة بعينين مرتابتين وكأنه يتمنى لو امكنه ان يقرأ على جدرانها شيئا مما يجرى فى داخلها من حياة لاقبل له بتصديقها .

ولشد ما كان المنزل يبدو لعينيه قديماقذرا اذا ماقورن بتلك الصورة التى ارتسمت فى خياله لغرف المنزل وقد وقفت على باب كل منها امرأة عارية تتألق بهاء واشراقا . وقال وهو يتكلف عدم الاكتراث مع أن ضربات قلبه قد زادت سرعتها : آه نعم .

وقال تورتيما : نعم انه أغلى منزل فى المدينة .. ثم أضاف الى حديثه بعض التفصيلات عن المكان وعدد من به من النساء والرجال الذين يترددون عليه والزمن الذى يتاح للزائر ان يقضيه هناك .. وكادت هذه المعلومات ان تثير سخط اجوستينو باحلالها تفصيلات قذرة محل الصورة الهمجية المضطربة التى نسجها خياله عندما سمع لاول مرة عن تلك الاماكن المحرمة . ولكنه امطر رفيقه بوابل من الاسئلة متكلفا لهجة تنبىء بالفضول المجرد من الحماس .. وذلك لانه بعد اللحظة الاولى من الدهشة وخيبة الامل لاح له خاطر فجائى ما لبث ان استولى على تفكيره .. فقد مده تورتيما الذى بدا انه على علم واسع بهذا الموضوع بكل ما كان يحتاج اليه من معلومات .. وعبرا الساحة ثم لحقا بالاخرين عند الطريق الموازى للبحر وهما مستغرقان فى الحديث .. ولما كان الظلام حينذاك قد خيم تماما فقد تفرقت الجماعة .. وسلم اجو ستينو الكمأة الى تورتيما ثم انطلق فى طريقه الى المنزل .

كان الخاطر الذى لاح له على جانب كبير من البساطة والوضوح رغم غموض مصدره وتعقيده .. لقد صح عزمه على ان يذهب فى ذلك المساء بالذات الى هذه الفيلا حيث يضاجع احدى النساء .. ولم تكن هذه رغبة غامضة فحسب بل كانت عزما ثابتا للغاية يكاد يبلغ حد التهور .. فقد احس ان هذا

هو السبيل الوحيد الذى يمكنه به ان يتخلص من تلك الفكرة المسيطرة التى لشد ما عانى منها طوال ذلك الصيف .. وأخذ يحدث نفسه قائلا ليته يستطيع ان يمتلك احدى هؤلاء النسوة الآن لأثبت الى الأبد أن افراد الصبية حوله كان مثيرا للسخرية ولامكنــه فى الوقت نفســه ان يقطع ذلك الخيط الرفيع من الشهوانية الشاذة المضطربة التى لم تزل تربطه بأمه .. كان احساسه بالاستقلال عن حب أمه هو هدفه الرئيسى الذى لا مثيل له فى الحاجة رغم انه لم يعترف بذلك امام نفسه .. وثمــة حقيقة هامة بسيطة اقنعته يومئذ فحسب بهذه الضرورة .

فقد كان هو وأمه حتى الان ينامان فى غرفتين منفصــلتين ولكن احدى صديقات أمه كــان من المتوقع مجيئهـــا فى ذلك المساء لتقضى معهما اسبوعا .. ولما كان المنزل صغيرا فقد تقرر ان تشغل الضيفة غرفة اجو ستينو وأن يعد له فى غرفة أمــه فراش صغير .. وقد بعث فى نفســـه الاشـــمئزاز فى ذلك الصباح بالذات ان يرى سريره الصغير وقد وضــع بجــانب فراش أمه وهو لم يسو بعد وقد ألقيت عليه الملاءة .. كمــا نقلت مع السرير الصغير الى غرفة أمه ملابسه وكتبــه وادوات الغسيل .

ولم تزده هذه المشاركة فى النوم الا كرها لذلك الاختلاط الذى لشد ما كان بغيضا الى نفسه من قبل .. فقد خيل له ان هــذه الالفة الجــديدة التى زادت وثوقا لن تلبث بلا ريب ان تكشف له فجأة وبلا أمل فى مهرب عن كل ما كان يرتاب فيه حتى ذلك الحين على صورة غامضة فحسب .. فكان عليه ان يعثر سريعا سريعا على ترياق . كان عليه أن يضع بينه وبين أمه صورة امرأة اخرى يمكنه ان يتحول نحوها بتفكيره ان لم يكن بعينيه .. أما هذه الصورة التى ستحجب عنه عرى امــه وترد لها كرامتها باستبعاد انوثتها .. فهى امــرأة من أولئك النسوة المقيمات فى الفيلا المشرفة على الساحة .

ولكن اجو ستينو لم يعبأ قط بالطريقة التى سيستقبل بها فى ذلك المنزل وكيفية اختياره المرأة التى سوف يضاجعها وفى

الواقع فانه حتى لو شاء ذلك لما امكنه مطلقا أن يصوره لنفسه .. فقد كان المنزل وسكانه وكل ما يتعلق به على الرغم من معلومات تورتيما يكتنفه جو كثيف من الشك وبعد الاحتمال وكان المرء لايواجه حقيقة بل فرضا أشد مايكون جرأة . وقد يثبت فى اخر لحظة انه لانصيب له من الصحة .. اذ ان نجاح مشروعه كان يتوقف على تقدير منطقى فحسب .. فلو أن هناك منزلا اذن لكانت هناك نسوة ولو ان هناك نسوة اذن لكان من المحتمل ان يلتقى باحداهن .. ولكن وجود المنزل والنسوة فى الحقيقة لم يكن واضحا تماما أمام عينيه .. ولا يعزى ذلك الى شكه فى أقوال تورتيما بقدر مايعزى الى افتقاره التام الى وجه من وجوه المقارنة .. فليس ثمة وجه للشبه بين كل ما فعله أو شاهده فى الماضى وبين ما هو مقدم عليه .. كان فى محاولته تصور هؤلاء النسوة ومداعباتهن لايسعه الا أن يتمثل أمه مع شيء من التعديل الطفيف وكان فى ذلك كالهمجى المسكين الذى لايسعه عندما يسمع عن قصور اوروبا .. الا أن يتمثل كوخه المسقوف بالغاب فى صورة أكبر قليلا .. أما عن ممارسة الحب فلا يمكن الا أن تكون حدسا ورغبة غامضة .

ولكن افتقاره الى الخبرة أدى به كما يحدث فى معظم الاحيان الى أن يشغل نفسه بالنواحى العملية للمسألة وكأنه بتسويتها يمكنه أيضا ان يجد حلا لما فيها من وهم مركب .. ولشد ماشغلته مسألة النقود .. فانه لم يستطع أن يدركها تماما رغم ان تورتيما قد شرح له بالتفصيل الدقيق كم كان عليه ان يدفع بالضبط ولمن .. فما هى العلاقة بين النقود التى تستخدم عادة للحصول على أشياء معينة بالذات تتميز بأوصاف معروفة وبين مداعبات المرأة أو بدنها العارى .. هل كان هناك حقا ثمن لذلك وهل كان حقا هذا الثمن محددا ولا يختلف طبقا لكل حالة بذاتها .. لقد بدا له من القسوة والغرابة اعطاء النقود فى مقابل تلك المتعة المخجلة المحرمة ـ بدا له ان فى ذلك اهانة قد يجد فيها المعطى متعة له ولكنها لابد أن تكون قاسية على من يتلقاها .. أكان عليه حقا أن يدفع النقود مباشرة للمرأة وفى حضورها ؟.. لقد أحس على صورة ما انه ينبغى عليه

ان يخفيها حتى يتيح لها ان تعيش على وهم العلاقة المنزهة عن الغرض .. وفضلا عن ذلك ألم يكن المبلغ الذى ذكره تورتيما ضئيلا للغاية ؟ .. فقد خيل له ان النقود مهما بلغت قيمتها لن تكفى لتكون ثمنا لمثل هذه التجربة .. وهى تمثل نهاية مرحلة معينة من حياته وبداية اخرى .

وما ان ساورته هذه الشكوك حتى قرر ان يلتزم بدقة كل ما قاله تورتيما حتى ولو تبين له عدم صحته فلم يكن لديه اساس اخر يبني عليه خطة عمله .. لقد عرف من صديقه كم تكلفه زيارة الفيلا ولم يبد الرقم أكبر من المبلغ الذى ظل يدخره زمنا طويلا فى حصالته .. المصنوعة من الفخار .. فاذا ما جمع ماتحويه من قطع النقود والاوراق المالية امكنه بلا شك أن يحصل على المبلغ المطلوب بل وربما زاد عليه .. وكانت خطته أن يأخذ النقود من الحصالة .. ثم ينتظر حتى تذهب أمه الى المحطة لاستقبال صديقتها فيخرج هو بدوره للبحث عن تورتيما ثم يصحبه الى الفيللا .. كما كان عليه أيضا أن يوفر النقود اللازمة لتورتيما لانه كان يعلم انه فقير وأنه بالطبع لم يكن على استعداد مطلقا لاداء صنيع له مالم يفد هو منه .

كانت هذه هى خطته ومع أنها لم تزل تبدو له بعيدة المنال ضعيفة الاحتمال للغاية فقد صح عزمه على أن يتأهب لها بنفس الحرص واليقين اللذين يتذرع بهما للذهاب فى نزهة بالقارب أو القيام بحملة على غابات الصنوبر .

— ٦ —

كاد اجو ستينو أن يقطع الطريق كله ركضا من الساحة البعيدة الى المنزل وقد تولاه الحماس والاضطراب لتخلصه لاول مرة من سم العجز وتأنيب الضمير .. وكان الباب الامامى موصدا بينما فتحت النوافذ الكبيرة فى غرفة الاستقبال وانبعثت منها أنغام الموسيقى فقد كانت أمه تعزف على البيانو .. ودلف الى الداخل حيث رأى وجهها يضيئه مصباحان خافتان فوق البيان بينما سبحت الغرفة فى الظلام .. وكانت جالسة على مقعد البيان الصغير وبجانبها جلس ذلك الشاب صاحب الطوف على مقعد اخر .. ولم يكن اجو ستينو قد رآه من قبل

في منزلهما فخامره هاجس ذهب بأنفاسه .. وبدا له أن أمه قد تكهنت بوجوده لانها ادارت رأسها بحركة هادئة تشي بدلالها اللاشعوري الذي احس اجو ستينو انه لم يكن هو المقصود به بقدر ما قصد به ذلك الشاب . وما ان رأته حتى توقفت عن العزف في الحال ودعته اليها قائلة : اجو ستينو . ماذا تعني بعودتك الى المنزل في مثل هذه الساعة ؟ .. تعال هنا .

فاتجه نحو البيان في بطء وقد امتلأت نفسه بالنفور والارتباك .. فجذبته أمه اليها وأحاطته بذراعيها .. ولاحظ اشراق عينيها ونضارتهما وتألقهما على صورة خارجة عن المألوف .. وخيل له ان الضحكات توشك ان تنبعث من بين شفتيها فيتلألأ بها ثغرها .. ولشد ما اخافته باندفاعها الذي يكاد يبلغ حد العنف وهي تجذبه نحوها وكأنها ترتجف من الفرحة .. وكان على يقين من ان كل هذه المظاهر لا صلة لها به هو شخصيا .. بل كانت تذكره على صورة غريبة بما كان هو عليه من اضطراب قبل ذلك ببضع دقائق وهو يجري في حماس خلال الشوارع لاحضار مدخراته واصطحاب تورتيما الى الفيللا حيث يضاجع احدى النساء .

وأردفت امه تسأله في صوت جمع بين الرقة والقسوة والبهجة في نفس الوقت قائلة : أين كنت ؟ . أين كنت طيلة هذا الوقت أيها الفتى الخبيث ؟. فلم يحر اجو ستينو جوابا اذ انه احس ان امه في الواقع لم تكن تتوقع منه ان يجيب .. فبهذه الطريقة تماما كانت تتحدث احيانا الى القط .. وكان الشاب يجلس متكئا الى الامام وقد ضم ركبتيه بكلتا يديه وأمسك بالسيجارة بين اصبعيه وهو يحملق في أمه بعينين متألقتين مبتسمتين كعينيها .. ورددت أمه كلامها قائلة : أين كنت ؟ ما اخبثك في تغيبك على هذه الصورة .. وجعدت شعره على جبهته ثم عادت فنعمته بيدها الرقيقة الدافئة التي كانت على الرغم من حنانها عنيفة على صورة لاقبل له بمقاومتها .. ثم قالت في اعتزاز وهي تستدير نحو الشاب : أليس فتى وسيما ؟

فأجابها الشاب قائلا : في وسامة أمه .

فابتسمت لهذه المجاملة البسيطة على صورة مثيرة للشفقة .
وحاول اجواستينو أن يتخلص من عناقها وقد ملأه الخجل والسخط .. فقالت أمه : اذهب واغتسل بسرعة فلن نلبث أن نتناول العشاء .. فحنى اجواستينو رأسه قليلا تحية للشاب ثم غادر الغرفة .. وما لبث أن سمع في الحال أنغام الموسيقى تنبعث خلفه من جديد لتواصل اللحن حيث قطعه بالضبط .

ولكنه ما كاد يبلغ الدهليز حتى وقف ساكنا وهو ينصت الى الانغام التى كانت تستخرجها أصابع أمه من مفاتيح البيان .. كان الدهليز مظلما وأمكنه أن يرى فى نهايته من خلال باب مفتوح ما يجرى داخل المطبخ ذى الاضاءة القوية حيث انهمكت الطاهية فى عملها بين المائدة ومنصة الطهى وقد ارتدت الملابس البيضاء وواصلت أمه عزفها على البيان وبدت الموسيقى لاذنيه بهيجة صاخبة متألقة تماما كتعبير عينيها عندما ضمته الى جانبها .. لعل ذلك هو الطابع الحقيقى للموسيقى ولعل أمه بثت فيها شيئا من لظاها وتألقها وحيويتها .. كان المنزل كله يدوى بالموسيقى وخيل لاجوستينو أن كثيرا من المارة فى الطريق كانوا بلاريب يتوقفون عن المسير ليصغوا اليها فى عجب من تلك الخلاعة الفاضحة التى بدت وكأنها تتدفق من كل نغم من أنغامها .

وفجأة توقفت الانغام عند منتصف أحد الاوتار وتأكد اجوستينو ـ وما كان فى وسعه ان يفسر ذلك ـ ان العاطفة التى كانت تجد تعبيرا فى الموسيقى قد اتخذت فجأة سبيلا اخر .. فتقدم خطوتين ووقف ساكنا على عتبة غرفة الاستقبال .. ولكنه لم يدهش كثيرا لما وقع عليه بصره .. كان الشاب واقفا يقبل أمه على شفتيها .. وقد مالت الى الخلف فوق المقعد الخفيض الذى كان لايتسع لجسدها بينما لم تزل احدى يديها على دساتين البيان والاخرى ملتفة حول عنق الشاب ... واستطاع أن يرى حتى فى الضوء الخافت كيف كان جسدها مقوسا اثناء ميله الى الخلف وقد برز صدرها وانثنت احدى ساقيها الى خلفها بينما امتدت الاخرى نحو دواسة البيانو ..

www.library4arab.com/vb

وكان الشاب على النقيض من موقفها الذى ينطق بالاستسلام العاطفى الجامح .. لايزال محتفظا بهيئته الهادئة الرشيقة .. فقد طوق عنق المرأة بذراعه وهو واقف فى مكانه ولكنه من الواضح انه لم يكن مدفوعا الى ذلك بعاطفة عميقة بقدر خوفه عليها من السقوط .. وقد تدلت ذراعه الاخرى بجانبه والسيجارة لم تزل بين اصابعه .. وعبرت ساقاه بسراويلها البيضاء عن الحزم والسيطرة التامة على الموقف وقد تباعدت فى وقفتهما القوية احداهما عن الاخرى .

وطالت قبلتهما حتى بدا لاجوستينو أن الشاب كلما أراد أن يقطعها تشبثت أمه بشفتيه وهى أشد نهما منها فى أى وقت مضى .. وفى الواقع فانه لم يسعه الا أن يحس بجوعها .. بل تضورها الى تلك القبلة كمن حرم الطعام زمنا أطول مما ينبغى .. وبحركة عارضة من يدها دوت الغرفة بنغمتين عذبتين مهيبتين أو ثلاث .. وفجأة وثب كلاهما بعيدا عن الاخر .. اذ تقدم اجوستينو خطوة وهو يقول: أماه .. فدار الشاب على عقبيه وذهب ليقف عند النافذة متظاهرا بالنظر الى الخارج . وقد فرج مابين ساقيه ودس يديه فى جيبى سترته .

قالت الام : اجو ستينو ؟

فاتجه اليها اجو ستينو .. وكانت تتنفس بعنف شديد للغاية حتى امكنه ان يرى بوضوح من خلال ثوبها الحريرى حركة ثدييها وهما يعلوان ويهبطان .. وأشرقت عيناها ببريق أقوى منه فى اى وقت مضى وانفرجت شفتاها وتشعث شعرها وتدلت على وجنتيها خصلة لينة مدببة كالثعبان الحى .

رددت تقول فى صوت خفيض متقطع وهى تحاول جهدها ان تنسق شعرها : ماذا هناك يا اجوستينو ؟ ..

فأحس اجو ستينو بضغط فجائى كان مزيجا من الشفقة والنفور .. وتمنى لو صاح فيها قائلا : هدئى من روعك .. لاتلهثى على هذه الصورة .. ولاتخاطبينى بهذا الصوت .. ولكنه بدلا من ذلك تكلف لهجة صبيانية وهو يقول لها فى فى حماس مغالى فيه : أماه .. هل بمكننى ان اكسر حصالتى ؟ فأنا أريد ان اشترى كتابا .

فأجابته قائلة وهى تمد يدها لتربت على جبهته : نعم ياعزيزى .

وما ان لمسته يدها حتى جفل ابو ستيفو الى الوراء على الرغم منه .. كانت حركة طفيفة للغاية لم يكد يحس بها أحد ولكنها لشد مابدت له عنيفة حتى خيل له ان كل من فى الغرفة قد لاحظها بلاريب قال : حسنا .. اذن فسأكسرها . وأسرع بمغادرة الغرفة دون أن ينتظر جوابا .. وكان الرمل يحدث صريرا على الدرج وهو يركض صاعدا الى غرفته .. لم تكن فكرة الحصالة فى الواقع سوى ذريعة والحقيقة انه لم يدر ماذا يقول عندما رأى أمه على هذه الصورة .. كانت غرفته يسودها الظلام وقد وضعت الحصالة على منضدة فى الطرف القصى منها . ولكن ثمة مصباحا فى الطريق قد أضاء من خلال النافذة المفتوحة بطنها الاحمر وفمها الاسود الكبير الباسم .. فأدار مفتاح النور ثم تناول الحصالة .. وألقى بها على الارض فى عنف يكاد يكون هستيريا فتهشمت فى التو وتدفقت من الفتحة الواسعة كمية من النقود من كل حجم وشكل .. كما اختلطت بقطع النقود أوراق مالية كثيرة .. فارتمى على يديه وركبتيه واخذ يحصى النقود فى جنون .. وكانت أصابعه ترتعش وهو يحصيها بينما لم تفتأ صورة العاشقين اللذين رآهما فى غرفة الاستقبال تختلط بالنقود المبعثرة على الارض ــ صورة أمه وقد مالت الى الخلف على مقعد البيانو ومن فوقها انحنى الشاب .. ولكنه عندما انتهى تماما من احصائها اكتشف انها لاتصل الى المبلغ المطلوب . فما العمل ؟

خطر له أن يأخذ المبلغ من أمه .. فقد كان يعلم أين تحتفظ بنقودها .. وليس ماهو أيسر من ذلك .. ولكنه نفر من هذا الخاطر وقرر ببساطة ان يطلبه اليها . ولكن ماذا يمكن ان يكون عذره فى ذلك ؟ .. وفجأة خطر له عذر ما ولكنه سمع عندئذ صوت ناقوس العشاء .. فأسرع باخفاء كنزه فى احد الادراج ثم هبط الدرج .

كانت أمه قد احتلت مكانها الى المائدة .. وقد فتحت النافذة على مصراعيها فطارت من الفناء الى الداخل فراشات

مخملية كبيرة اخذت تضرب بأجنحتها غطاء المصباح الابيض .
وقد انصرف الشاب وعاود أمه صفاؤها الوقور المعهود .. وتساءل اجو ستينو وهو يتأملها عن تلك القبلات التي طبعت على فمها قبل ذلك ببضع دقائق وكيف انمحى كل اثر لها تماما كما سبق أن تساءل عندما اصطحبت الشاب لاول مرة للنزهة في الطوف .. وما كان في امكانه ان يحدد المشاعر التي اثارها في نفسه ذلك الخاطر .. فقد راوده احساس بالشفقة نحو أمه التي لشد مابدت تلك القبلة مثيرة وثمينة في نظرها. وفي نفس الوقت ثار في نفسه احساس قوى بالنفور لم يبعثه مارآه بقدر مابعثته الذكرى التي علقت بذهنه . وتمنى لو استطاع ان يطرد تلك الذكرى وينساها تماما .. كيف يمكن ان تدخل من خلال العينين مثل هذه الانطباعات المزعجة المتغيرة ؟ . وتنبأ بأن هذا المنظر سوف يظل الى الابد مطبوعا في ذاكرته .

وعندما فرغا من تناول الطعام نهضت امه عن المائدة وصعدت الدرج .. ورأى اجو ستينو انه لن تتاح له فرصة اسنح من هذه ليطلب اليها نقودا .. فتبعها على الدرج ودخل معها غرفتها حيث جلست الى خوان الزينة وبدأت في صمت تتفحص وجهها في المرآة .

قال اجو ستينو : أماه .

فسألته قائلة في شرود : ماذا هناك ؟ .

ـ أريد عشرين ليرة .

ـ لماذا ؟

ـ لاشترى كتابا .

فسألته أمه قائلة وهي تمسح على وجهها بالبدارة في رقة : ولكن ألم تقل لى أنك ستكسر حصالتك ؟

وتعمد اجو ستينو ان يتعلل بعذر صبياني قائلا : نعم ولكنني ان كسرتها لما بقيت بها نقود .. أريد شراء كتاب دون ان افتح حصالتي .

فضحكت أمه في شغف قائلة : يالك من طفل ..

وفجصت نفسها لحظة أخرى فى المرآة ثم قالت : ستجد كيس نقودى فى الحقيبة على الفراش .. خذ منه عشرين ليرة ثم أعد الكيس الى مكانه .. فذهب اجوستينو الى الفراش حيث فتح الحقيبة وأخرج الكيس ثم أخذ منه عشرين ليرة .. أمسك بالورقتين فى يده ثم استلقى على السرير الصغير بجانب فراش امه .. وكانت أمه قد انتهت من وضع زينتها وجاءت اليه قائلة : والان ماذا انت فاعل ؟ ..

فقال وهو يتناول كتابا من كتب المغامرات كيفما اتفق من فوق المنضدة الصغيرة المجاورة لفراشه ثم فتحه عند احدى الصور : سأقرأ هذا الكتاب .

ـ حسنا .. ولكن تذكر ان تطفىء النور قبل أن تنام ..

كانت أمه لاتزال تتحرك هنا وهناك فى الغرفة وهى تفعل هذا وذاك من الاشياء بينما رقد اجو ستينو يراقبها وقد توسد ذراعه وخالجه شعور غامض بأنها لم تكن قط أجمل منها فى ذلك المساء .. فقد كان ثوبها الابيض الحريرى اللامع يظهر فى تألق سمرتها المكتسبة وبشرتها الوردية الناضرة .. فقد بدا له ان شخصيتها الاولى ما ان انتعشت من جديد على غير وعى منها

حتى استعادت كل ما كانت تتمتع به من صفاء عذب مهيب فى مظهرها كما علتها مسحة غامضة من السعادة . كانت طويلة القامة ولكن اجوستينو لم يرها قط بمثل هذه المهابة .. فقد بدت أنها تملأ الغرفة بوجودها .. أخذت تنتقل فى جلال هنا وهناك متشحة بالبياض فى ظلام الغرفة وقد انتصب رأسها فوق عنقها الجميل وهدأت عيناها السوداوان وتركزت مقلتاها اسفل جبهتها الملساء الناعمة .. ثم أطفأت جميع الاضواء فيما عدا ذلك المصباح الذى يعلو المنضدة الصغيرة وانحنت لتقبل ابنها الذى راح ينهل من جديد ذلك العطر الذى لشد ما كان يعرفه .. ولم يسعه الا أن يتساءل وهو يلثم عنقها بشفتيه ان كانت هؤلاء النسوة .. المقيمات هناك فى الفيللا .. يتمتعن بمثل هذا الجمال ويفوح منهن مثل هذا الاريج .

وما ان خلا اجوستينو الى نفسه حتى تريث حوالى عشر دقائق ليتيح لامه فرصة الانصراف .. ثم نهض من فراشه

الصغير وأطفأ النور ودخل الغرفة المجاورة على اطراف اصابعه .. وهناك فى الظلام تحسس المائدة القريبة من النافذة ثم فتح الدرج وملأ جيوبه بقطع النقود والاوراق المالية وغادر الغرفة بعد أن تحسس بيده كل ركن فيه ليتحقق من خلوه من النقود .

وعندما خرج الى الطريق اخذ يركض .. كان تورتيما يسكن الطرف الاخر من المدينة فى حى البحارة وعمال السفن وكان عليه ان يمشى مسافة طويلة على الرغم من صغر حجم المدينة اذ أنه كان يسلك الازقة المظلمة المتاخمة لغابات الصنوبر .. ومشى فى طريقه رأسا الى الامام تارة يهرول مسرعا وتارة يركض بالفعل حتى اخذت تظهر له من بين المنازل سوارى القوارب الشراعية التى كانت قد سحبت الى المرفأ الجاف . وكان منزل تورتيما يعلو المرفأ تماما فيما وراء الجسر الحديدى المتحرك الذى كان يعبر القناة المؤدية الى الميناء .. وكانت هذه البقعة تبدو اثناء النهار خربة منسية وكانت مخازن السلع والمحال المتهدمة تحف بأرصفة الميناء الواسعة المقفرة الملوحة بلهيب الشمس .. كما تنتشر فيها رائحة السمك والقطران وتوجد بها مياه خضراء كالزيت وروافع ساكنة لاتتحرك وصنادل محملة بالحصباء . ولكنها بدت عندئذ فى جنح الليل كأى جزء من أجزاء المدينة ..ولم يكشف عن وجود مياه الميناء العميقة فيما بين المنازل سوى قارب شراعى كبير كانت جوانبه المنتفخة وسواريه تشرف على ممر المشاة .. وعبر اجو ستينو الجسر ثم اتجه نحو صف من المنازل كان على الجانب الاخر من القناة .. وكانت جدران تلك المنازل الصغيرة يضيئها فى تقطع مصباح هنا ومصباح هناك من مصابيح الطريق .. ووقف اجو ستينو أمام نافذة مضاءة فتحت على مصراعيها وانبعثت منها أصوات الناس وصليل الصحاف كما لو كان اهل الدار يتناولون الطعام .. فوضع اجو ستينو أصابعه فى فمه وأطلق صفيرا واحدا مدويا ثم صفيرين هادئين وكانت هذه هى الاشارة المتفق عليها بين صبية الجماعة . ولم يلبث ان ظهر شخص في النافذة . فقال اجو ستينو فى صوت متردد خفيض ـ هذا أنا . بيزا فأجابه تورتيما قائلا ـ وكان هو ذلك الشخص الذى ظهر فى

النافذة ـ : «انى قادم» وجاء تورتيما وهو مازال يأكل آخر لقمة وقد احمر وجهه من أثر النبيـذ الذى كان يجرعـه .. قال اجو ستينو : لقد جئت اليه لنذهب الى تلك الفيللا .. ومع النقود .. التى تكفينا نحن الاثنين .. فابتلع تورتيما اللقمة فى صعوبة وهو ينظر اليه .. فردد اجواستينو كلامه قائلا: تلك الفيلا التى تقع على الجانب الآخر من الساحة حيث توجد النسـوة .

فقال تورتيما وقد أدرك مقصده فى النهـاية : اه .. كنت تفكر فى هذا الامر .. عوفيت يابيزا .. سأعود اليك بعد لحظة .
فانطلق يجرى بينما لم يفتأ اجو ستينو يغـدو ويروح فى انتظاره مركزا عينيه على النافذة .. ظل ينتظره فترة طويلة الى ان ظهر له اخيرا .. ولم يكد اجو ستينو يتعرف عليه .. فقد كان عهده به دائما فتى ضخما طويت سراويله أو تعرى جسده الا من لباس البحر على الشاطىء وفى الماء .. فـاذا به عندئذ يرى أمامه عاملا صغير السن بملابس العطلة القاتمة : السراويل الطويلة والصدار والياقة ورباط العنق .. كما بدا اكبر سنا مما هو بسبب ذلك الدهان الذى أرقد به شـعره الاشـعث المتمرد .. وكذلك كشفت ملابسه الانيقة العادية لاول مرة عن شىء فى مظهره كان مبتذلا ومثيرا للسخرية .

قال تورتيما وهو ينضم اليه : هل نذهب الان ؟ .
فسأله آجو ستينو قائلا وهو يهرول بجانبه أثناء عبورهما الجسر ـ : ولكن هل حان الوقت ؟
فقال تورتيما ضاحكا : ان الوقت مناسب دائما فى هـذا المكان .

واتخذ طريقا مغايرا لذلك الذى سلكه آجو ستينو . وكانت الساحة لا تبعد عنهما كثيرا بل تقع على مسافة منعطفين تقريبا من مكانهما .

وعاد آجو ستينو يسأله قائلا : ولكن هل زرت هذا المكان من قبل ؟
ـ ليس هذا الذار

ولم يبد على تورتيما أنه فى عجلة من أمره بل كان يسير كعادته • وقال موضحا : سنجد أنهن لما يفرغن بعد من تناول عشائهن • ولن يكون هناك أحد • فهى فرصة مناسبة •

فسأله آجو ستينو قائلا : لماذا ؟

ـ لماذا ؟ ألا ترى أنه يمكننا اختيار المرأة التى نفضلها •

ـ ولكن كم يبلغ عدد النسوة هناك ؟

ـ حوالى أربع أو خمس •

وتاق آجو ستينو لأن يسأله عما ان كن جميلات ولكنه أحجم عن ذلك • بل سأله قائلا : وماذا علينا أن نفعل ؟ كان تورتيما قد أخبره بذلك من قبل ولكن لشدة ما كان احساسه بالوهم قويا فى نفسه حتى انه كان يشعر بالحاجة الى سماع تأكيد لما قيل له •

فقال تورتيما : ماذا تفعل ؟ ليس هناك ماهو أبسط من ذلك • فانك تدلف الى الداخل •• حيث يعرضن عليك أنفسهن فتقول : سيداتى • طاب مساؤكن •• ! ثم تتظاهر قليلا بالتحدث اليهن لتتيح لنفسك فرصة فحصهن •• وبعد ذلك تختار احداهن • أهذه أول مرة فى حياتك ؟

فأخذ آجو ستينو يقول فى شىء من الصفاقة ـ « حسنا » ـ فقال له تورتيما فى وحشية ـ « ول ! أتقصد أن تقول لى أنها ليست المرة الاولى ؟ قل هذا لغيرى ان شئت ولكن ليس لى • ومع ذلك فلا تخش شيئا • فهى تقوم عنك بكل شىء • دع الأمر لها • »

ولم ينبس آجو ستينو بكلمة • فقد أرضته تلك الصورة التى استحضرها تورتيما للمرأة • وهى تلقنه الحب •• فان فى ذلك شيئا من الأمومة • ولكنه على الرغم من هذه الحقائق ظل مرتابا فى الأمر • وسأله قائلا وهو يتوقف فجأة عن المسير متأملا ساقيه العاريتين ـ « ولكن •• ولكن أتظنهن راغبات فى » ؟ •

وبدا له أن تورتيما قد ارتبك لحظة عندما وجه اليه هذا السؤال • ولكنه قال فى اطمئنان متكلف ـ « فلنواصل طريقنا • وهناك ندبر أمر دخولك • »

ومن خلال زقاق ضيق خرجا الى الساحة التى كانت غارقة كلها فى الظلام فيما عدا زاوية واحدة كان يرسل فيها أحد مصابيح الطريق ضوءا هادئا على مساحة كبيـــيرة من الأرض الرملية غير المستوية • وكان الهلال المعلق فى السـماء بلونه الدخانى الاحمر يبدو مطلا فوق الساحة مباشرة وقد شقه الى نصفين خيط رفيع من الضباب • وتعرف آجو ستينو على الفيلا حيث كان الظلام أحلك ما يكون بما يميزها من مصـاريع بيضاء • وكانت كلها مغلقة لا يبدو من خلالها شعاع واحد من الضوء • ومع ذلك فقد عبر تورتيما الساحة بلا تردد متجهـا نحو الفيلا • ولكنه ما كاد يصل الى وسط الساحة حتى قال لآجو ستينو وهو واقف تحت هلال القمر مباشرة ـ « اعطنى النقود • اذ يحسن أن تكون معى • »

فبدأ آجو ستينو يقول وهو لا يشعر بالثقة التـامة فى تورتيما ـ « ولكننى •••••• » فأصر تورتيما قائلا فى خشونة « هل ستعطينى اياها أم لا ؟ » وأحس آجو سـتينو بالخجل من كل هذه النقود الصغيرة ولكنه امتثل لأمره وأفرغ جيوبه فى يديه • فقال رفيقـه : « والآن تعال معى ولا تفتـح فاك بكلمة • »

وعندما اقتربا من الفيلا قلت كثافة الظلام وأمكنهمـا أن يتبينا عمودى البوابة وممر الحديقة والباب الأمامى أسـفل المظلة • لم تكن البوابة موصدة فدفعها تورتيما ودخـلا الى الحديقة • كما كان الباب الامامى أيضا مواربا • فصعد تورتيما الدرجات ودلف الى الداخل مشيرا الى آجو سـتينو بالتزام الهدوء • وعندما نظر آجو ستينو حوله فى فضول رأى بهـوا خاليا تماما يقوم فى نهايته باب مزدوج أضـيئت ألواحـه الزجاجية الحمراء والزرقاء بضوء ساطع • وكان دخولهما نذيرا بدق الأجراس • وما لبث ان ارتفع خلف ألواح الزجاج شبح ضخم لشخص جالس وراء الباب • ثم ظهرت امرأة فى المدخل • كانت خادمة فى منتصف العمر مفرطة فى بدانتها عظيمة الصدر متشحة بالسواد وقد شدت حول خصرها وزرة بيضـاء •

تقدمت نحوهما وقد برز بطنها وتدلت ذراعاها . كان وجهها متورما وعيناها عابستين تنظران فى ريبة أسفل كتلة من الشعر .

قال تورتيما : هانحن أولاء .

وأحس آجو استينو من صوته وأسلوبه أنه هو أيضا قد عراه الوجل رغم ماعهده فيه من جرأة شديدة .

وتفحصتها المرأة لحظة فى استهجان . ثم أتت اشارة وكأنها تدعو تورتيما الى الدخول . فابتسم تورتيما فى ثقة مجددة وأسرع تجاه الباب الزجاجى . وهم آجو ستينو بأن يتبعه . فقالت المرأة واضعة يدها على كتفه : أما انت فلا .

فصاح آجو ستينوقائلا وقد تبددت فى الحال كل مخاوفه :

ـ ماذا ! ولماذا يسمح له ولا يسمح لى ؟ .

فقالت المرأة فى ثبات ـ « كلاكما فى الواقع ليس من شأنه أن يكون هنا . ولكنه قد يجوز دخوله . أما أنت فلا . »

فقال تورتيما ساخرا : «أنت اصغر مما ينبغى ياپيزا » .

ثم دفع الباب واختفى . وظل شبحه القصير مرتسما لحظة على ألواح الزجاج . ثم تلاشى فى الضوء الوهاج .

فألح اجو ستينو قائلا وقد أثارت سخطه خيانة تورتيما:

« ولكن ماذا عنى ؟ »

فقالت المرأة ـ « أغرب أيها الصبى . ولتمض الى بيتك . »

ثم اتجهت الى الباب الامامى وفتحته على مصراعيه حيث وجدت نفسها وجها لوجه أمام رجلين كانا على وشك الدخول . قال الأول وكان ذا وجه أحمر مشرق ـ « طاب مساؤك .. طاب مساؤك . » ثم أردف قائلا وهو يلتفت نحو رفيقه الذى كان شابا شاحبا نحيلا ـ « اذن فقد اتفقنا . هه ؟ ستكون « بينا » من نصيبى ان لم يكن هناك من يشغلها .. ولتعفنا من أية مناقشة حول هذا الموضوع . »

فقال الآخر : اتفقنا .؟

ثم استفسر الرجل المرح المرأة قائلا وهو يشير الى آجوستينو « وماذا يفعل هذا الصغير هنا ؟ »

فقالت المرأة : «انه يريد الدخول .»
وارتسمت على شفتيها ابتسامة متعلقة .

فصاح الرجل متلفتا الى آجو ستينو وهو يقول – « اذن فهل أردت الدخول ؟ المنزل فى هذه الساعة هو المكان المناسب لمن كان فى مثل سنك » .

ثم صاح قائلا مرة أخرى وهو يلوح بذراعيه هنا وهناك : « فلتمض الى منزلك .»

فقالت المرأة – « هذا هو ما قلته له . »

فعلق الشاب قائلا – « ولم لا ندعه يدخل ؟ فقد كنت أضاجع الخادمة وأنا فى مثل سنه . »

فصاح الآخر مصدوما لقول رفيقه : « يالله ! امض الى البيت .. البيت .. البيت ! » ثم دخل يتبعه الرجل الاشقر من خلال الباب المزدوج الذى صفق خلفهما . ووجد آجو ستينو نفسه فى الحديقة وهو لايكاد يدرى كيف وصل الى هناك .

يالها من نهاية سيئة ! فقد خانه تورتيما الذى استولى على كل نقوده . ثم ألقى به الى الخارج . ولما لم يكن يدرى ماذا يفعل فقد سار فى ممر الحديقة وهو لا يفتأ ينظر خلفه الى الباب الموارب والمظلة والى واجهة المنزل الذى أغلقت مصاريع نوافذه البيضاء . وخالجه احساس محرق بالخيبة وخاصة بسبب هذين الرجلين اللذين عاملاه كطفل صغير . فقد كانت ضحكات الرجل المرح وأريحية رفيقه التجريبية الباردة لا تقلان مهانة وتحقيرا عن استهجان المرأة لهما فى بلادة . ظل يمشى الى الخلف وهو ينظر حوله الى أشجار الحديقة وشجيراتها حتى بلغ البوابة . ولكنه رأى عندئذ أن الجانب الايسر من الفيلا كان مضاء بنور قوى بدا له أنه ينبعث من خلال نافذة مفتوحة فى الطابق الأرضى . فخطر له أنه يمكنه ، على الأقل ، أن يلقى نظرة على داخل الفيلا من خلال هذه النافذة . فاتجه نحو الضوء متحاشيا قدر امكانه ان يحدث ضجة .

كانت هناك فعلا نافذة مفتوحة على مصراعيها فى الطابق الأرضى كما خيل له • ولم تكن مرتفعة القاعدة • فاتجه اليها رأسا فى هدوء شديد محاذيا الزاوية حيث لا يحتمل أن يراه أحد وتطلع الى الداخل •

كانت الغرفة صغيرة ساطعة الاضاءة وقد اكتست جدرانها بورق يحمل رسما جميلا لازهار كبيرة خضراء وسوداء • وقد بدا أن ستارا أحمر فى مواجهة النافذة كان معلقا فى حلقات خشبية على قضيب من النحاس كان يحجب الباب عن الأنظار • لم ير فى الغرفة أثاثا ما • ولكن ثمة شخصا كان يجلس فى ركن منزو بالقرب من النافذة اذ أمكنه أن يرى ساقيه المعقودتين وقد انتعلتا حذاء أصفر ومدتا على أرض الغرفة وخيل لآجو ستينو أنهما لابد أن تكونا لشخص مستلق على متكأ • ولما خاب أمله فى رؤية المزيد أوشك على مغادرة مكانه عندما رفعت الستار وظهرت احدى النساء •

كانت ترتدى عباءة طويلة من الشف الأزرق الباهت ذكرت آجو ستينو بقميص النوم الذى ترتديه أمه • وكانت شفافة تغطى جسدها كله حتى قدميها • وكاد مرأى أطرافها الطويلة الشاحبة من خلال تلك الغلالة يشبه مرآها وهى تطفو مسترخية فى مياه البحر الصافية • ولغرابة فى التصميم جفل لها آجو ستينو امتدت فتحة العنق فى العباءة على صورة بيضاوية حتى كادت تصل الى الخصر • ومن خلال هذه الفتحة بدا ثدياها القويان الممتلئان وكأنهما يحاولان الافلات • فلشد ما التصق كلاهما بالآخر تحت ضغط الثوب الذى تجمع حولهما عند العنق فى طيات كثيرة دقيقة • وكان شعرها الكستنائى المموج مرسلا فى حرية على كتفيها وقد جمع وجهها الكبير الشاحب المستوى بين الطفولة والخبث فى نفس الوقت وارتسم تعبير هوائى غريب فى عينيها المتعبتين وعلى فمها الذى امتلأت شفتاه وعلاهما الطلاء • وأقبلت من خلال الستار وقد وضعت يديها خلف ظهرها وبرز صدرها الى الأمام ثم وقفت لحظة فى سكون تام دون أن تنبس ببنت شفة على هيئة انتظار وتوقع • وبدا أنها تنظر فى الزاوية حيث كان الرجل مستلقيا وقد انعقدت

ساقاه الممدوتان فى وسط الغرفة • ثم استدارت واختفت فى صمت كما جاءت تاركة الستار مفتوحة على سعتها • وما لبثت ان اختفت ساقا الرجل فى الحال عن عينى آجوستينو • وعندئذ سمع شخصا ينهض فانسحب بعيدا عن النافذة فى انزعاج •

عاد الى الممر ودفع بوابة الحديقة ثم خرج الى الساحة يخالجه احساس حاد بالخيبة لفشل محاولته كما خالجه فى نفس الوقت شعور يقارب الفزع مما ينتظره فى الايام المقبلة • اذ أن شيئا لم يحدث فلم يضاجع امرأة وهرب تورتيما بكل ما يملك من نقود وغدا تعود من جديد نكات الصبية القديمة نفسها وعذاب علاقته بأمه • فقد كانت تفصل بينه وبين ذلك العمل الذى سيكتب له الحرية أعوام وأعوام من الفراغ والخيبة • وكان عليه فى تلك الاثناء أن يواصل حياته تماما كما كانت من قبل • وما أن خطر له فى مرارة أن كل ما كان يعلق عليه آماله قد صار استحالة محققة حتى تمردت روحه من أعماقها • وعندما عاد الى المنزل دلف الى الداخل دون أن يثير ضجة ما • وهناك رأى فى البهو حقائب الزائرة وسمع أصواتا فى غرفة الاستقبال فصعد الدرج واستلقى على سريره الصغير فى غرفة أمه • وما كاد ينزع ملابسه فى الظلام ويلقى بها على الأرض حتى دخل فراشه عاريا بين الملاء ••••••

وما لبث أن تسلل اليه النعاس ثم استغرق أخيرا فى سبات عميق • وفجأه استيقظ فى فزع • كان المصباح مضاء يلمع نوره على ظهر أمه التى ارتدت عباءة النوم ووضعت ركبتها على الفراش وهى تهم بالدخول فيه • فقال فجأة فى صوت مرتفع يكاد يبلغ حد العنف ـ « أماه »

فأقبلت عليه أمه تسأله قائلة ـ « ماذا هناك ؟ ماذا هناك ياعزيزى ؟ » كانت عباءتها شفافة ايضا كعباءة المرأة فى الفيلا ومن خلالها ظهرت لعينيه معالم جسدها وظلاله الغامضة كما ظهر من قبل ذلك الجسد الآخر • قال آجوستينو بنفس

الصوت الساخط المرتفع محاولا أن ينظـــر الى وجه أمه لا الى جسدها ـ « أريد أن أرحل غدا • »

فجلست أمه على الفراش ونظرت اليه فى دهشـــة قائلة : « ولكن لماذا ؟ •• ماذا دهاك ؟ ألست سعيدا هنا ؟ »

فردد قائلا ـ « أريد أن أرحل غدا • »

فقالت أمه وهى تمر بيدها فى رقة على جبهته وكأنها تخشى أن يكون محموما ـ « فلنر ماذا هناك ؟ ألست على مايرام ؟ لماذا تريد الرحيل ؟ »

لشد ما كانت تذكره عباءة أمه بثوب تلك المرأة فى الفيلا ، فقد جمعت بينهما نفس الشفافية ونفس ذلك البدن الشاحب المذعن المسترخى • ولم يكن ثمة فارق سوى تغضن عبـــاءة النوم مما أضفى على تلك الصورة مزيدا من الألفة والسرية • وهكذا خطر لآجو ستينو أن صورة تلك المرأة لم تكن تأبى فحسب أن تكون ستارا بينه وبين أمه كما كان يرجو بل بدا له فعلا أنها تؤكد انوثتها وتبرزها • وعادت تسأله قائلة ـ «ولماذا تريد أن ترحل ؟ ألا تحب أن تكون معى ؟ » فقال آجو ستينو فجأة دون أن يدرى لذلك سببا ـ « انك تعاملينني دائمـــا كطفل • »

فضحكت أمه وربتت على خده قائلة ـ « حسنا • ســأعاملك من الآن فصاعدا كرجل •• فهل يرضيك هذا ؟ ولكنــك الآن يجب أن تنام • فقد تأخر الوقت للغاية » •

ثم انحنت فوقه وقبلته • وعندئذ أطفأت النور ثم سمعها آجو ستينو وهى تأوى الى فراشها • ولم يسعه الا أن يحـدث نفسه قائلا قبل أن ينام ـ « كرجل » ولكنه لم يكن كذلك • ما أطول وما أشقى تلك الفترة التى يجب أن تمر قبـــل أن يصبح رجلا •

تمــرد

ـ ١ ـ

عاد لوقا الى البلدة التى كان يعيش فيها بعد قضاء العطلة فى المصيف المألوف وهو يحس باعتلال صحته وبأنه فى الواقع لن يلبث أن يسقط صريع المرض . وكان قد ازداد نموه أخيرا بسرعة غير طبيعية حتى صار ارتفاع قامته وهو فى الخامسة عشرة من عمره مساويا لقامة الرجل الراشد . ولكن كتفيه ظلتا ضامرتين نحيلتين . كمـــا بدت عيناه لحدتهما الهائلة المفرطة وكأنهمـا تسـتنفدان جبهته الشــاحبة ووجنتيه النحيلتين من رقعة وجهه الابيض . ولــو أنه كان على علم بحالته الصحية المعتلة وبما يكتنفها من أخطار فربما التمس الى والديه أن يسمحا له بقطع دراسته ولكنه ــ كما يحدث عادة فى هذه السن عندما يستيقظ الاحساس ويظل الوجدان نائما ــ لم ينجح فى أيجاد علاقة ما بين حالته الصحية المتخاذلة وبين ذلك النفور العميق الذى تثيره الدراسة فى نفسه .

كان لوقا يواظب دائما على الذهاب الى مدرســته وقد بدا طبيعيا أن يواصــل الذهاب اليهـــا ، حتى ولو بدت أمامه أحيانا الاشياء التى ينبغى عليه أن يتعلمها غير موزعة بطريقة منظمة على أيام السنة الدراسية وشهورها بل مكدسة كلهـا فى صورة كتلة شديدة الانحدار لا سبيل الى ارتقائها كالجبل الذى لا تتيح جوانبه الملساء للمتسلق أن يثبت قدمه أو يده . لم تكن تعوزه الارادة بقدر ما كان يفتقر الى دفعة بدنيـــة او جلد جسمانى لم يمكنه أن يحدد كنهه . وكان يخيل له أحيانا أن جسمه ينهار من تحته كالحصـان المرهق الذى انطفأت عيناه من الاعياء بينما لايفتأ راكبه ينخسه عبثا .

ومع ذلك فطالما تمرد جسده هذا على غير توقع منه ولم يكن ذلك فى مواجهة واجبات ثقيلة بل لاسباب تافهة لاأهمية لها . حينئذ كان لوقا يتعرض لنوبات فجائية عنيفة من الغضب يبدو له فيها أن جسده وقد أنتابه الارهاق الشديد أخذ يستهلك البقية الباقية من قوته فى نوبات من النفور والكراهية كان الباعث عليها أكثر من أى شىء آخر تلك المقاومة الخرساء الجامدة التى يلقاها من أشياء عديمة الحياة أو الاحرى أنه كان يصاب بهذه النوبات المدمرة لعجزه عن استخدام تلك الاشياء بغير عناء أو أذى . كأن يتعذر عليه مثلا ادخال قدمه فى نعل ضيق أسىء توثيق رباطه . أو أن يفوته الترام فى اللحظة الاخيرة بعد تعقبه مسافة طويلة وهو فى طريقه الى المدرسة . أو أن تنقلب المحبرة بحركة سريعة من يده على كراسة التمرينات مما يضطره الى اعادة نسخ الصفحة بأسرها . أو أن يرتطم رأسه أثناء نهوضه بزاوية القمطر على صورة مؤلمة غير متوقعة بعد التقاطه كتابا كان قد سقط على الارض . كانت مثل هذه السخافات خليقة بأن تجعله يستشيط غضبا فتنطلق من فمه اللعنات ويطحن أسنانه ويبلغ به الغضب أحيانا أن يضرب بقبضته زاوية القمطر فى صبيانية أو يلقى بالمحبرة على الارض أو ينخرط فى نوبة عنيفة من البكاء فيبدو كأنما غمة هائلة قديمة قد وجدت فى بكائه متنفسا لها . كان يحس أن العالم يعاديه وأنه يعادى العالم وأنه مشتبك مع بيئته فى حرب مستمرة لا تفتأ تحطم أعصابه .

وفى ذلك الصيف أثناء أقامته بالمصيف بلغت ثورة الاشياء الجامدة وعجزه عن حبها أو السيطرة عليها أقصى مداهما . وثمة حادث بالذات من بين الحوادث الاخرى قد أثبت الى الابد وجود ذلك العداء المتبادل بينه وبين عالم الحقيقة . كان لوقا ميكانيكيا ماهرا وكان أهل المنزل يستدعونه دائما كلما طرأ خلل فى الكهرباء . فقد انطفأت أضواء المنزل ذات مساء بسبب قصر فى دورة التيار الكهربائى . وما كاد لوقا يسمع صوت أمه وهى تناديه خلال الغرف المظلمة حتى

هرول اليها حاملا أدواته . ولكنه ما كاد يعيد الحياة الى التيار الكهربائى حتى أخذ يطقطق فجأة مطلقا الشرر بين أصابعه وقد سرى فى جسده بأكمله ولعله لم يحتط لنفسه برفع قدميه عن الأرض أو لعله لم يلحظ أن الاسلاك قد تم الاتصال بينها قبل توقعه ذلك : فأخذ يصيح مشددا فى نفس الوقت قبضته على الاسلاك والمحول وقد ضاعفت الصدمة من قوة قبضته عن طريق رد الفعل الطبيعى . وأخذت أمه تحوم وهى مذعورة لاتدرى ماذا تفعل بينما يصيح لوقا والتيار الكهربائى لا يفتأ يتذبذب خلال جسده بقوة خبيثة بدت له كأنها لا تنبعث من الاسلاك بل من ذلك العالم الغامض المعادى بأسره — ذلك العالم الذى كان يكرهه على الرغم من جهله به . وأخيرا وبعد فترة طويلة من الحيرة والارتباك ذهب شخص ما الى لوحة الاكباس الرئيسية حيث قطع التيار . وما أن أطلق سراح يديه حتى ارتمى لوقا بين ذراعى أمه وأخذ ينشج بالبكاء . ولم تدر أمه لماذا كان بمثل هذا اليأس وضمته اليها فى آلية وهى تربت على رأسه . وظل يبكى طويلا وقد انتابت الرعشة جسده كله يراوده فى نفس الوقت احساس مرير بأن حنان أمه لم يعد يقيه أو يخفف عنه كما كان يفعل من قبل . وقد تبين فيما بعد عندما أضيىء المنزل مرة أخرى أن الصدمة الكهربائية قد أحدثت حروقا عميقة فى ثلاثة من أنامل يده . وكان أثر الاسلاك أو الكهرباء نفسها أن جاز هذا التعبير واضحا للعيان على شكل محزز شبيه بوميض البرق الدقيق .

وعند عودته الى بلدته بعد انتهاء العطلة الصيفية انتابته قبل وصول القطار بقليل نوبة أخرى من الغضب . فقد استيقظوا يومئذ مبكرين وأفطروا على عجل فى المنزل العارى بين حقائبهم الكبيرة والصغيرة . وفيما كان لوقا يجرع قدحا من اللبن السىء الملون ببديل للقهوة قالت له أمه — « تزود بفطور دسم لان الغداء يتأخر دائما فى عربة الطعام » . ولم تلبث فكرة الغداء فى عربة الطعام أن بعثت البهجة فى نفسه فى الحال وذلك لانه لم يجربها قط من قبل . وأحس أنه سوف يجد متعة فى الجلوس الى أحدى تلك الموائد الصغيرة الدقيقة لتناول

طعامه وكان يلمح هذه الموائد احيانا من خــلال نافذة القطار عندما يقف فى نفس المحطة قطار آخر . وخيل له أن الخبــز والحساء واللحم لشد ما يختلف مذاقها حين يتناولها عــلى مائدة حقيقية صغيرة وسكاكين وشوكات وأطباق يقدمهــا السقاة بينما يمضى المنظر الطبيعى مسرعا أمام عينيه أثنــاء تقدم القطار فى رحلته الجريئة . وفضلا عن ذلك فلشد ما كان لوقا حساسا ازاء رأى الاخرين وازاء شكليات الســلوك اللائق . فكان يمقت من كل قلبه تلك الوجبات التى يتناولهــا المسافر عــلى ركبتيه فى عربة القطار بين قصاصــات الورق القذرة وقشر الفاكهة وبقاياها بينما يكون الطعام الدسم البارد مهصورا فى شطائر فاغرة . وخلال هذه الوجبات يوجــد دائما من ينتظر الذهاب الى عربة الطعام فينظــر فى رضا عن نفســه ونفور من الاسرة المجتمعة فى تحفز حــول حقائب الورق . ولم ينقصهم هذا الشاهد أثناء رحلتهم الى المصيف اذ وجد فى شخص سيدة عجوز أنيقة بدا عليها الاحتقــار .. فألفى نفســه خجلا من تناول الطعــام وخجــلا من خجله فى نفس الوقت . وغلبه احساسه بالمهانة فلم يكد يلمس الطعام.

أحس بالراحة لعدم اضطرارهم الى فض الاوراق الملونة بالدهن لالتهام ما تحوى من شطائر . وظل جالســا فى هدوء ينظر الى الريف مسافة طويلة . وأخــيرا جاء النــدل لحجز الاماكن فى عربة الطعام ولكن أباه لم يتناول منه البطاقات . وخيــل للوقا أنه ينتظر الدور الثانى وظل يتطلع من خلال النافذة . ثم سمع أباه وهو يقول :

« يمكننا قبل كل شيء أن نبتاع ســلال الغداء عنــد « أورفيتو » .. فهى أرخص بكثير وبها أصــناف تفضــل ما يقدمونه لك فى عربة الطعام » ولم يكشف عن احساس معين بالذات وهو يفوه بهذه الكلمات . فأحس لوقا أنه لم يصدر فى قراره هذا عن شح بل عن ادراك سليم فحسب . كما لم يبد غريبا فى نظره أن تجيبه أمه التى كانت لا تفتأ تتصف بالمرونة أمام كل حجة تحبذ الاقتصاد قائلة فى عدم اكتراث ــ « كمـا تشاء .. مع أننى كنت أفضل بلا شــك الذهاب الى عربة الطعام حتى لا تتســخ أصابعى على الاقل .. » كان فى الواقع

اتفاقا بين شخصين حول موضوع لا أهمية له . فقد استمرت المناقشـــــة فى الحقيقة دقيقتين أخريين بطريقة هادئة لطيفة وانتهت بفوز أبيه فوزا كان على أية حال رقيقا للغاية حتى بدا أشبه بالتقاء عقليتين متقاربتين عند نقطة تقاطع بين طريقين متماثلين . ومع ذلك فلشد ما غضـــب لوقا رغم ادراكه أن القرار لم يتخذ عن حقد قبله .

ولشد ما ساءه فى ذلك أنهما لم يسألاه رأيه وأنهمـا عاملاه كما لو كان جمادا لا اختيار له أو أفكارا أو ميولا أو رغبات . وأحس فى نفس الوقت بخيبة أمـل عميقة زاد من ايلامهـا وفجيعتها أنه كان فرحا للغاية بفكرة تناوله الغـداء فى عربة الطعام . ولكن ثمة شعورا آخر بالاستياء لم يبـد نابعا من مصدر معين بالدقة أو منبعثا من هذه الازمة بالذات أضيف الى كل تلك الاحن : ألا وهو غضبه المعهود الذى كان لايفتأ ينتابه كلما أحس بالثورة والتمرد من جانب الاشياء والناس عندما تعترض سبيل ارادته . وكان يخيل له أن هذا الغضب ينبعث من مكان بعيد ثم لايلبث أن يتأجج فجأة كالسعير فيســعفه لهيبه ويهزه من أعلى رأسه الى أخمص قدمه . فابيض وجهـه وجز على أسنانه بقوة ثم أغمض عينيه . وأحس بكيانه كله يتصلب من شدة الغضب الذى توتر له جســده .. وشعر لحظة بقوة تدفعه الى أن يفتح الباب ويلقى بنفسه من القطار . ولم يفزعه هذا الاغراء بالانتحار أو يبد له سخيفا بل كان كما أدرك ذلك متنفسا طبيعيا لما اجتـــاحه من شعور غاضـــب بالعجز . ثم عاد ففتح عينيه ونظر الى والديه . فخيل له أنه يراهما لاول مرة وكأن هذا الغضب قد نحت ملامحهما بطريقة جديدة تماما كما يفعل الضوء القوى العنيف .. فبدت أمــه شقراء نحيلة ذات وجه جاد حاد الزوايا أضفى عليه أنفهـا الكبير وفمها المطبق مظهر السطوة والحكمة . كما بدا أبـوه أشقر أيضا ولكن تميز بالرقة والاستدارة والملامح غير المحددة التى تنبىء بطيبة الطبع . فأحس لاول مرة بصـــلابة أمه وسيطرتها وحسن ادراك أبيه ورقة قلبه كأنها أشـــياء ليست فقط خارجة عنه بل معادية له فى الواقع . أشياء لم يمكنه أن يصل معها الى تفاهم . وكانت تنبعث من مصادر بعيدة ليس

فى مقدوره مطلقا أن يتحكم فيها . ولقد أدرك بلا شك أنه لو أبدى رغبته فى وضوح لرحبا بها فى الحال . وربما عارضته والدته التى تكره العدول عن قرار اتخذته ولكنها لن تلبث أن توافق . غير أنه أدرك أيضا أنه مهما كان الثمن فلن يقبل أن يرغمهما على شىء بدا له أنهما لا يكترثان له . وفضلا عن ذلك فان رغبته هذه بدورها لما كانت مضحكة وغير جديرة بالاعتبار فقد ملأته عندئذ بنوع من الغضب . وعلى أية حال فسواء تناول غداءه فى عربة الطعام أو فى صالون القطار فان ذلك لم يكن له أهمية بقدر احساسه أن والديه قد خلقا من نفس الطينة المعادية المتحدية التى كان يحس بها فى الاشياء الاخرى وبالتالى فانه لم يمكنه احتمالها شأن الاشياء الاخرى رغم كل الحب الذى يكنانه له .

ومع هذا فعلى الرغم من تلك الخواطر لم يفارقه شعوره بالغضب . فلشد ما أحس بالنفور وهو يراقب أباه أثناء نزوله من القطار عند محطة « أورفيتو » ليبتاع سلال الغداء ويعود بها لاهثا الى الصالون . أغلق والده الباب بعناية وجذب مائدة التطبيق الصغيرة التى كانت مثبته أسفل النافذة ثم وضع عليها السلال الثلاث . وسأل لوقا يحدوه ذلك الجزع الظاهرى المشوب بشىء من الحزن الذى كان معهودا فيه قائلا : « هل أنت جائع يا لوقا ؟ أتحب أن تتناول الغداء فى الحال ؟ أم تفضل الانتظار قليلا ؟ » .

فأجابه قائلا دون أن يدير رأسه : « انى على استعداد وقتما تشاء » .

وتحرك القطار مرة أخرى . وبدا له أن منظر الريف وهو يمضى مسرعا تحت بصره قد خفف لحظة من استيائه . ولكن نوبة جديدة من الغضب لم يدرك مصدرها انتابته مرة أخرى . ولما لم يستطع السيطرة على نفسه فقد نهض وغادر الصالون . واتجه رأسا الى دورة المياه حيث دخل صافقا الباب خلفه فى غضب . وهناك وجد مرآة معلقة فوق الحوض فدفع بوجهه قريبا منها فاغرا فاه على سعته وكأنه يصرخ رغم أنه فى الحقيقة لم ينبعث من حنجرته صوت ما . ومع ذلك فقد

أحس أنه يصرخ بلا صوت بكل كيانه المرتعد . عنـدئذ كان القطار يهتز ويتأرجح فى عنف وهو يعبر التحويلات الصاخبة مجموعة فى أثر مجموعة . كان كل ما فى هـذا المكان الضيق المحدود يجلجل ويصر . اطار الربط فى العربة وزجاج النوافذ فى تحويفه والحاشية النحاسـية المحيطة بالزجاج والقـدح المعلق فى مقبضه والارضية التى لم تفتأ تتراقص صفائحهـا الحديدية المتحركة ويصطدم بعضها بالبعض . وقف لوقا هناك فاغرا فاه يراوده احسـاس بأنه يصرخ بصـوت أعلى من ضجيج القطار بينما خيل له أن غضبه المحتد هو القطار نفسه الذى لا مناص له من أن يخرج عن قضبانه فى لحظة من اللحظات ثم يندفع من فوق الجسر حيث يهوى حطاما على سفح التل . مكث هناك على هذه الصورة فترة وجيزة متوترا متصلبا . ثم فتح الباب مرة أخرى وعاد الى الصالون . وكان والده قـد فض سلال الغداء وأخذ يخرج أرغفة الخبز ويضعها عـلى جريدة نشرها على ركبتيه .

قال وهو يقدم أول رغيف الى لوقا : « هاك واحدا » . ثم استدار نحو زوجته وأردف قائلا : « أترغبين الان فى تنـاول قليل من النبيذ ؟ ولكن ربما كان حريا بنا أن نأكل أولا ثم نشرب النبيذ بعد ذلك عندما تتخلص أيدينا مما بها . » كان والده لا يفتأ يتـكلم فى بطء وكأنه يتقـدم باقتراحات هزيلة يتوقع فى استسلام تام أن تقابل بالرفض . تناول لوقا الرغيف المحشو باللحم البارد وقضمه فى غضب . ثم أخذ يأكل فى جهد وبـلا شهية مشيحا بوجهه فى عناد تجاه النافذة . وكان يبلغ سمعه من داخل الصـالون خلف ظهره حفيف حقائب الطعام أثنـاء فضها وكذلك تمتمة أبيه وهو يقدم شيئا أو يعلق على شىء وقد امتلأ فمه بالطعام أو تمتمة أمه وهى تجيبه بكلمات قصيرة . وما أن فرغ من تناول طعامه حتى أحس وكأنه قد غص به . ولم تهـدأ ثائرته عن ذى قبل بل ظلت كما هى ولكن حالة التوتر المستمر لم تبرح تؤلمه بنفس الدرجة ولو أنها صارت أقل عنفا وشدة .

لقد بدا له وكأن جسـده كله ظل خدرا وعقله لـم يفارقه الارتباك . فأخذ يحملق فى المنظر الطبيعى دون أن يراه وكان

ذلك عندئذ فى الريف المجاور لمسقط رأسه . واحس فى معدته بثقل الطعام الذى تناوله وكأنه طرد كبير أحكم شده وطوى فى وورق صقيل للدهن وقد طوى بفتات لم يمضغ إلا قليلا . كان أشبه ما يكون بحقائب الورق المملوءة بالنفاية التى تلقى بها ربات البيوت من النوافذ الى القطط فى الطرقات . وسألته أمه عما به وهى تمر بيدها على جبهته لتسوى شعره الذى عبثت به الريح . وما كاد يحس بالارتياح للمس يدها الخفيفة الباردة يصاحبه رغم ذلك شعور بالغثيان ملأ فاه باللعاب حتى أدرك أنه مريض .

وعند وصول القطار لم يعره أبواه انتباها لانشغالهما بانزال الامتعة من القطار . ولكنه أدرك فجأة وهم يسيرون على رصيف المحطة بجانب القطار الساكن وسط زحام المسافرين أنه لن يلبث حتما أن يقيء قبل أن يقطع مسافة كبيرة . عندئذ اشتد شعوره بالغثيان فأحس بمذاق حامض فى فمه وبحافز لا سبيل الى السيطرة عليه يدفعه لان يفتح فاه . ومروا فى طريقهم باحدى عربات القطار ثم بأخرى ثم بثالثة . وكان الناس يهبطون من العربات فى بهجة ونشاط مخلفين وراءهم فى الصالونات الخاوية فتات الخبز وقصاصات الورق وأعقاب السجاير والزجاجات الفارغة . أما العربة الرابعة فكانت خاوية تماما وقد فتحت أبوابها جميعا على مصاريعها . ثم بلغوا بعد ذلك القاطرة بمرجلها الامامى وقد امتلات كلها بالمقابض والانابيب بينما توهجت فوهة الفرن بانعكاسها على الحديد الاسود . ووقف سائق القاطرة بوجهه الملوث بالدخان والشحم يتطلع الى الناس وهو يلتهم فى شهية عظيمة نصف رغيف حشى بشيء بدا لعينى لوقا وكأنه نوع من الوحل اختلطت فيه الخضرة بالصفرة ، وكان ما به عجة بالسبانخ . وما كاد يقع عليها بصره حتى اشتد احساسه بالغثيان كأن تيارا من الجاذبية المتعاطفة كتلك التى تشد الصلب الى المغناطيس قد وجد فجأة بين الوحل الذى يلتهمه سائق القاطرة فى نهم شديد وبين ذلك الوحل الآخر الذى كان يتخمر فى معدته . وكانوا عندئذ قد بلغوا مقدم القاطرة حيث توجد طاسات التصادم فاتكأ على أحد الكشافات الامامية وقاء على تلك الالة

www.library4arab.com/vb

الضخمة التي يتصاعد منها البخار . وسمع أمه تقول فى صوت لشد ما بدا له هادئا ــ « كنت أعلم أنه ليس بخير » . وأحس فى الوقت نفسه بيد ترفع رأسه الى أعلى . ولم يفتأ والده يردد قائلا بلهجة تنبئ بالطيبة « بسيطة .. بسيطة » . أما لوقا نفسه فقد انتابه الغضب وراوده حزن عميق لم يدر كنهه فأجهش بالبكاء فى صوت مرتفع وقد بدا له أثناء انقياده لهما حزينا باكيا وأمه تقول له بصوت غاضب ــ « لم تبكى ؟ .. أتبكى وأنت تناهز سن الرجولة ؟ » ــ بدا له أن قيأه على القاطرة كان على صورة ما عملا انتقاميا من القطار الذى أعاده فى قسوة شديدة الى بلدته ومدرسته ودروسه بنفس الطريقة التى رفض بها أبوه فى صرامة الذهاب الى عربة الطعام .

ــ ٢ ــ

وما كاد يعود الى منزله ــ حيث ذاب الكثير من مظاهر تمرده السابقة فى دوامة العادة أو من شدة الملل ــ حتى أتخذ شكلا مغايرا لم يعهده من قبل وكأنه قد أدرك عبث العنف فاستحال فجأة الى رغبة فى أنكار الذات والاستسلام. لقد كانت هى نفسها تلك الرغبة القديمة المتمردة ولكنها بعدما اكتسبت من خبرة على أثر الهزائم التى منيت بها فقد تحولت طبيعتها نتيجة لذلك الى شىء خفى سلبى . ولم يكن لوقا على علم بالمصطلحات المستعملة للحرب الاجتماعية . ولو كان ملما بها لتعرف بسرعة فى ذلك الشكل الجديد الذى اتخذته ثورته على الدنيا على خصائص الاضراب . فان جسده لم يعد يتوتر فى نوبات الغضب المدمرة بل صار يسترخى كوتر الكمان الرخى الذى يبدو وكأنه لا سبيل الى شده مرة أخرى . فكثيرا ما كان يستغرق فى النوم لغير ما سبب خلال ساعات الاصيل الطويلة التى كان يقضيها فى غرفته جالسا الى منضدته رغم استمتاعه فى الليلة السابقة بنوم عميق . وكان نومه هذا أسود خاويا لا تتخلله الاحلام بل أقرب الى حالات الشرود منه الى النوم . كان يفاجئه أثناء قراءته عبارة مطبوعة أو صفحة مكتوبة ولم يكن يجديه أن يقول لنفسه « سأفرغ من قراءة هذه القطعة أو كتابتها ثم أنام » . بل كان لا يسعه الا أن ينهض عن المنضدة

ثم يجر نفسه جرا عبر الغرفة الى فراشه حيث لا يكاد يرقد حتى يستغرق فى النوم . وكان عندما يستسلم لهذه النوبات الجاثمة الثقيلة من الخمول برز وراء ذلك الرضا الانتقامى الذى أحس به وهو يقىء علــى القاطرة عنــد عودته من العطلة الصيفية . وقد أدرك أن هذا الرضا كان له طابع مدمر فهــو تعبير عن عدائه للعالم . كان نومه هذا أشبه بعقد الذراعين علامة على الاستسلام مادام عاجزا عن رده . ولو كان قــد تعرض قبل ذلك لمثل هذه النوبات لبذل جهدا عنيفا فى مقاومتها حتى اذا ما أعيته الحيل فى النهاية انتابه الجزع وأبلغ بهــا والديه كما تعود دائما أن يفعل كلما خيل له أنه مريض — ولكنه بدا الان وكأنه يكتشف وجود غرض ما وراء هذا الرضا حيث كان فى الماضى لايرى فيه سوى الضعف . وبانقياده لهــذا الغرض صار يحلو له أن ينفض عن نفسه كبرياءه الســابقة كطالب علم .. تلك الكبرياء التى اصبحت الان مجــرد عبء لاجدوى من ورائه . كما صار يحلو له وقد انتابه عدم الاكتراث أن يستسلم لتيار الزمن وهو يتدفق بالدمار فوق رأسه الذى أضحى الآن مغمورا تماما تحت الســطح . ومع هــذا فان استسلامه الجسمانى قبل كل شىء لم يكن سوى اشــارة غامضة الى طريق فى امكانه أن يتابعه أو يتركه . وبدا لــه فجأة أنه مادام قد قبل مبدأ الجمود فيمكنه كذلك أن يشجعه ولو لاقناع نفسه فحسب بأنه حر فى تصرفه وليس مرغما على شىء . ولذا فانه لم يستسلم فقط لهذه النوبات من الخمول ولم يمتنع فقط عن احاطة أبويه علما بها بل أخذ يشجعها فعلا بشتى الطرق . فكان يتعمد قراءة فقرات طويلة مملة أو يركز انتباهه على كتابة تمرينات لاتثير اهتمامه . ثم لا يكاد يشعر بثقل جفونه وبنوبات القشعريرة المنذرة تسرى فى ظهره حتى ينهض ويتجه الى فراشه ليرتمى عليه . وكان يحس وهو فى وضعه هذا خافض الرأس رافع القدمين وكأن النوم قد أمسك به من شعره ولم يفتأ يمتصه الى أسفل وكأنه نوع من الطين الذابل الذى يتميز بقدرته على الاستقاء . وكان يبدو له وهــو فريسة لهذا الاحساس بالهبوط كأن رأسه قد ملىء بمادة ثقيلة معتمة بينما تتأرجح قدماه فى أعلى خفيفتين خاويتين . وكان

لا يفتأ يردد قائلا لنفسه : « كان يجب أن أعمل .. كان يجب أن أترجم .. كان يجب أن أقرأ .. » بينما يخيل له فى نفس الوقت وقد راوده احساس بالرضا أن استعماله هذه الصيغه كان يعنى أنه لن يقرأ ولن يترجم ولن يؤدى عملا ما على الاطلاق ويظل يحدث نفسه على هذه الصورة حتى يستغرق فى النوم رويدا رويدا .

ولكن النوم لم يكن سوى وسيلة الى غاية فلم يكن فى وسعه أن يظل دائما مستغرقا فى النوم . ولما كان الهدف النهائى هو التمرد على حفظ دروسه فانه ما لبث أن بحث عن طريق جديد لتحقيق هذا الهدف . وفى التو استثاره هذا البحث وكأنه عمل لا شبهة فيه . لقد ألف فى الماضى أن يئوب الى منزله عقب دروسه المسائية يحدوه صدود شديد وهو يفكر بنفور عميق فى ساعات العمل التى تنتظره فى المنزل . أما الان وقد صار همه من الناحية الاخرى هو تجريد عمله من طابعه الالزامى وابعاد كل أهمية عنه فقد ألقى نفسه يترقب دنو هذه الساعات يحدوه شعور شكس حى بالضجر ونفاد الصبر وكأنه مقبل أخيرا على أداء عمل يتفق مع أعمق ميوله . فكان يغادر المدرسة ويودع رفاقه ثم يسير وحده فى بطء الى المنزل فى تلك الساعة الحزينة التى يلفظ فيها النهار أنفاسه الاخيرة بينما لايزال الليل بعيدا. كان يبدو له أنجميع الناس يغادرون منازلهم فى تلك الساعة تدفعهم الى الخارج عتمة الشفق وكآبته. وكان مما يسره أن يكون هو على النقيض منهم عائدا ساعتئذ الى منزله . ولا تفتأ السماء تظلم من فوقه وهو يسير خلال الشوارع المقفرة فى الحى الذى يقطنه . ثم يدخل المصعد فيحمله الى الشقة التى تكون عندئذ خالية الا من الخادم الهادىء المسن الذى يلزم المطبخ . اذ أن أباه لايزال فى عمله وأمه تقوم بزياراتها . فيتسلل لوقا عندئذ الى الداخل يكاد يختلس الخطى نحو غرفته خلال العتمة المنتشرة فى الغرف الاخرى دون أن يشعل الاضواء بينما يراوده شعور حزين أنه حيوان لم يتلاءم مع الحياة فانسل عائدا الى مأواه ليموت فى هدوء . وهنا يضىء لوقا الغرفه ويغلق الابواب والنوافذ ثم يجلس الى منضدته الصغيرة . وهو على علم تام بما يتأهب

له . فيجلس الى المنضدة فى رزانة تكاد تكون طقسية . وقد اختلف احساسه ونظرته اختلافا كبيرا عما كان يراوده قبل ذلك من ملل ونفور . وكان قد فكر فى طريقة أخرى بالاضافة الى النوم لتجنب العمل أطلق عليها بلغته الخاصة «تمرينات تشتيت الفكر» وتنحصر هذه التمرينات فى القراءة والكتابة الالية بينما يحاول جهد طاقته فى نفس الوقت أن يبعد ذهنه تماما عما يكتب أو يقرأ . فمثلا كتاب التاريخ كانت فيه العبارة التالية «كانت الظروف السائدة فى فرنسا وأوربا لاتسمح بأن توجه الحكومة الفرنسية انتباهها الى طلب ملك أسبانيا ..» كان لوقا وهو يقرأ هذه الكلمات يتعمد أن يبعد انتباهه عنها بحيث يعزلها فتصير لغوا فارغا . وكان يخيل له بالفعل وهو يخرج هذه الالفاظ من فيه رويدا أنها لا تفتأ تتراجع فى منظور مسطح يجلب الدوار ولا يبرح يتضاءل حجمه تدريجيا كلوحات الحروف التى يستخدمها أطباء العيون لاختبار قوة الابصار . وعندما توشك الكلمات أن تختفى فوق أفق الفضاء الفسيح الذى تراجعت الى أقصى مداه اذا بها تقفز فجأة الى الامام فى حروف متفرقة ضخمة الحجم ذات وقع مخيف : «كانت الظروف السائدة فى فرنسا وأوربا وقتئذ..» وسر لاكتشافه أن الالفاظ ظلت أثناء حركتها الدائبة الى الوراء والى الامام مستغلقة على فهمه منعزلة عن كل معنى ومفتقرة الى كل أطار منطقى وأشد مواتا من ألفاظ أية لغة ميتة على الرغم من تردد صداها فى ذهنه مقطعا فى أثر مقطع . ولكى يستوثق تماما من هذا الاحساس كان أحيانا يقرأ بصوت مرتفع فيلاحظ فى رضا وسرور أن وقع الالفاظ لا يفسر معناها بل يزيدها سخفا . ولما كان يعلم أنه لايحتاج الا الى مجهود طفيف من عضلات اذنيه ليبدو صوته غريبا منعزلا وكأنه يخرج من فم شخص آخر فانه كان يتلهى بتكرار نفس العبارة فيما يشبه نغمات الناى بصوت نسوى كهفى كصوت الغول قائلا: «كانت الظروف السائدة فى فرنسا وأوربا عندئذ ..» وكان هذا التمرين عادة ينتهى باستغراقه المعهود فى النوم . وكان يحس بالنوم وهو يغشاه من قدميه زاحفا الى أعلى على صورة خدر لذيذ فى الساقين . فينهض ثم يتجه مترنحا الى الفراش

الذى يستلقى عليه . وتظل عيناه مركزتين على المنضدة حيث يرى ضوء المصباح ساقطا فى غير ما جدوى على كتبه المهملة الى أن يستسلم لموجات النوم القاتمة التى تغمره فى طياتها . فينام ساعة أو اثنتين ثم يستيقظ . ويكتشف فى سرور أن الوقت قد فات وأنه لم يعد فى وسعه يومئذ أن يعمل أكثر من ذلك وأنه لن يعرف درسه فى اليوم التالى عند ذهابه الى المدرسة .

أما فى المدرسة فكانت هذه التجارب أيسر منالا وذلك لان فرق الطلبة واساتذتهم كانوا يبدون دائما فى نظره وكأنهم شىء غريب عنه . وكان لايفتأ يكتنفهم منذ البداية أن جاز لنا هذا التعبير جو خاو من الحقيقة السخيفة التى لا يمكن قبولها . وكان من السهل عليه وهو جالس الى قمطره وأمامه كتاب مفتوح أن يملأ عينيه وأذنيه بنوع من الضباب الرقيق الذى يستحيل من خلاله صوت الاستاذ وهو يشرح الدرس الى تمتمة سحرية مجردة تخرج من فم عرافة عجوز سوداء ويتردد صداها مستغلقا على الافهام خلال غابة افريقية تسودها وحشة همجية . وكان يخيل له أن حديث الاحياء هكذا كان يبدو بلا ريب فى آذان الموتى . كما كان يخيل له أنه ميت وأنه يفتقد معنى الالفاظ وأنه يسمع اصواتا سخيفة غير مترابطة . وقد أدرك عندئذ أن عملية الانعزال هذه تمر بثلاث مراحل — أولاها يسمع فيها الاشياء ويراها بوضوح طبيعى ولكن دون أن يفهمها . وثانيتها تذوب فيها الاصوات والاشكال ثم تختلط ولكنها تظل محسوسة . وثالثتها لايرى فيها شيئا أو يسمع شيئا اذ يستوعب ذلك الضباب الصامت كل شىء . وحدث ذات مرة اثناء احدى هذه التجارب أن سمع فجأة صوت الاستاذ وهو يسأله قائلا : « هل يمكننى أن أعلم فيم تفكر يامنسى ؟ » وود لو أجابه قائلا : « انى أتعلم كيف أمتنع عن التفكير . » ولكنه لم يزد على أن قال « أنا ؟ .. لاشىء » .

فعلق الاستاذ على رده قائلا : « هذا غنى عن البيان » . ولشد ما كان لوقتا فيما مضى يحترم نفسه كما كان من بين خيرة الطلبة . أما الان فقد أصبح منذ بداية الفصل الدراسى الجديد من بين المتخلفين . وكان يحس تحت وابل اللوم

والتعنيف والتقارير السيئة بلذة خاصة ، فقد كان يبدو له أن هذا اللوم انما هو فى الحقيقة مديح واطراء وأن هذه التقارير السيئة انما هى فى الحقيقة تقارير حسنة طبقا للطريق الذى قرر عندئذ أن يسلكه . ولكن لم يسعه فى نفس الوقت الا أن يحس بالمرارة العميقة ملء نفسه عندما يذكر أن حالته فى المدرسة كانت لاتفتأ تتدهور يوما بعد يوم وأنه لن يلبث أن يفقد الامل من علاجها . وطالما تساءل عما يدعوه الى هذا السلوك . وقد اعترف أمام نفسه أنه ليس ثمة دافع لذلك سوى أنه أمر غامض يتعلق بالشرف، أمر سخيف بغيض سلبى تماما وبالتالى فانه لايكاد يحتمل . كان يتساءل قائلا : « ماذا يدعونى الى ذلك ؟ » فى تلك الاثناء كان الوقت يمضى وسط هذه الصراعات .

- ٣ -

وفى اثناء ذلك الفصل الدراسى وجد لوقا بمحض الصدفة الجواب على سؤاله : ـ « ماذا يدعونى الى ذلك ؟ » عن طريق حادث تافه للغاية .

فقد حدث ذات صباح ـ لمرض ألم بالأستاذ ـ أن انتهت الدروس قبل الموعد المعتاد بساعتين . وما ان خرج لوقا الى الشارع المواجه للمدرسة حتى جاءه فتى انسحب من بين جماعة أخرى من الفتيان وقد حمل بين ذراعيه كرة قدم ـ وكان هذا الفتى يدعى « فيرجينيو » وهو اسم غير مألوف وكان لوقا لايحبه بسبب مظهره الجسمانى بصفة خاصة . فقد كان مفرطا فى بدانته ولا يفتأ يلهث ، كما كان لايرى فى نفس الوقت الا مشغولا بشىء ما . وثمة زغب ناعم خفيف كان يظلل شفته العليا ووجنتيه . ولكن ملامحه كانت تائهة فى شحمه تحت الزغب مما جعلها تكاد تبدو ناقصة التكوين كملامح الطفل البشع . كما كان يتميز بشىء من الانوثة الغامضة مما جعله يلقب باسم « تريزينا » وهو اسم امرأة بدينة مشهورة . قال له فى اهتمام وهو يلهث ـ « لقد كونا فريقين .. وستكون المباراة بيننا فى فيلا بورجيز Villa Borghese ..

ولكنا فى حاجة الى حارس للمرمى .. فهل يروقك أن تأتى معنا ؟

كان لوقا رغم شغفه الشديد بكرة القدم لاعبا دون المتوسط وقد أدرك فى الحال أن توجيه الدعوة اليـــــه من ذلك الفتى البدين وهو منظم النشاط الرياضى المعترف به فى الفرقة شرفا لم يعهده من قبل مما يستوجب التقدير • فقلما كانوا يدعونه الى الانضمام اليهم • وكانت هذه فرصة ينبغى عليه أن ينتهزها لاختبار مؤهلاته الرياضية القاصرة • وقد رغب أول الأمر فى قبولها بلا مناقشة • ولكن ثمة قوة غامضـــة فى نفس الوقت غيرت الألفاظ فى فمه فقال ــ « آسف •• اذ يجب أن أعــــود الى المنزل •• وربما أمكننى ذلك فى فرصة أخرى • »

فلم يضع الفتى البدين وقته فى مناقشة الامر • ولعله ندم بالفعل على دعوته اياه • ثم صاح موليا لوقا ظهره ومتجها نحو فتى آخر قائلا : « ماريو •• أتود أن تكون حارسا للمرمى ؟»

ورأى لوقا هذا الفتى الأخير يتوقف ويتحدث اليــــه • ثم تحركت نحوهما جماعة اللاعبين وأحاطوا بهما • وبعد مناقشة قصيرة سار الجميع تجاه الحدائق • وعندئذ كانت الـكرة قد انتقلت من بين ذراعى الفتى البدين الى ذراعى فتى آخر أسمر ضئيل أخذ يتمايل فى مشيته معتمدا على ساقيه القصيرتين • ثم قذف بالكرة الى أعلى أمامه وركلها ركلة مدوية فطارت فى الهواء • فتفرق الصبية هنا وهناك فى وسط الشارع الرئيسى وفوق الأفاريز وهم يركضون نحو الكرة • وأوقفها أحـــدهم بقدمه ثم أخذ يدحرجها أمامه فى حرص وحذر •

وكان الشارع الذى تقع فيه المدرسة طويلا مستقيما مقفرا وذلك لمتاخمته للمصانع الكئيبة والأديرة والمصالح • ســـارت جماعة الصبية يومئذ فى وضح النهار فى اوائل شهر نوفمبر على الاسفلت النظيف بين صفوف النوافذ وهم يتقاذفون الكرة فيما بينهم فى وثبات صغيرة • ووقف لوقا ساكنا على مقربة من زاوية مبنى المدرسة وهو يراقبهم اثناء ابتعادهم عنــه يراوده رضا مرير بدا أنه ليس جديدا عليه رغم أنه قد تعذر عليه أن يتذكر المناسبة التى أحس فيها بنفس هذا الشعور • ثم تذكرها: كان هذا الرضا بالذات يثيره فى نفسه تدهور حياته المدرسية وتمخض عن هذا الاكتشاف فى ذهنه حشد من الخواطر السريعة

الملتهبه التى تسلطت عليه · حتى بدا كالمذهول وهـو يراقب لاعبى الكرة · لقد خيل له فجأة وكأن صباه قد ولى نهائيا والى الأبد وليس رفاقه · فهم لن يفتأوا يلعبون الى الأبد فى حدائق الفيلا بينما يظل هو دائما مستبعدا من العابهم · ولكنه ادرك اخيرا السبب الذى دعاه الى رفض دعوتهم · وكان الصبية فى أثناء ذلك ينأون عنه رويدا رويدا بينما تتضاءل احجامهم قليلا عن بعد فى الشارع المقفر الطويل · واخيرا قـذفوا بالكرة فى شارع مقاطع واختفوا عن الانظار · عندئذ فقط نفض لوقا عن نفسه خواطره المذهولة وانطلق فى طريقه الى المنزل ·

ولاحظ فى الأيام التالية ان احساسه بالاكتشاف الذى راوده عند المقارنه بين رفضه ان يلعب الكرة ورفضه ان يعمل قدتأكد ورسخ فى نفسه · لم يكن خاطرا محـددا دقيقا بقـدر ما كان اتجاها سارت فيه أخيراأحاسيسه المضطربة بالنفور والتمرد· كان يحسب أنه لايكره سوى دروسه ولكنه أدرك الآن عنـدما تذكر مشاعر النفور التى اثارتها فى نفسه دعوة الفتى البدين ان ثمة أشياء أخرى كان يكرهها كذلك · اية أشياء؟ وما كاد يستعرض هذه الاشياء فى ذهنه بسرعة حتى اكتشف لدهشته ان عداءه لم يكن يستوعب ناحية واحدة منحياته فقط أو بضع نواح بل كان يستوعبها جميعا بلا استثناء · ومن السهل فى سن لوقا ان يقفز المرء من مشاعر غاية فى الغموض والابهامالى منطق جهيد مجرد غير مبال باى توفيق بينهما او بأى استثناء ممكن · ولذا فقد خيل له أن العالم بأسره ممثلا فى أمه وابيه ومدرسيه وزملائه يناشده ان يكون ابنا مطيعا وتلميذا مجـدا وصديقا وفيا وزميلا فاضلا ولكنه لم يكن هو نفسه يحب العالم ويأبى ان يقوم بهذه الأدوار التى يريد ان يفرضها عليه · ولذا فقد وجب العصيان ـ بيد انه مع ذلك لن يكون عن طريق اعمال العنف الغامضة أو نوبات الغضب المجدب التى تنتاب جسده المرهق كما كان يحدث فى الماضى بل عن طـريق مراعاة نظام معين او خطة معينه فى هدوء وعزلة وكأنه يطبق قواعد لعبة ما · ولقد راقته كلمة «العصيان» لانها كانت مألوفة لديه · فقـد كان خلال طفولته كلها وردح من صباه يسمع أمه وهى توصيه

بوجوب الطاعة وتتهمه بالعصيان وتنذره بالعقاب ان لم يطعها وعبارات اخرى من هذا القبيل • ولعله بالعودة الى العصيان على مستوى اعلى واكثر منطقا لم يعد ان يكون مستكشفا من جديد موقفه العقلي من الحياة الذي فطر عليه ولكنه افتقده • وكان عصيانه حتى ذلك الوقت قاصرا على مجال حياته المدرسية وكانت تمثل أشد نواحي وجوده سخفا وكآبة • ولكنه أخذ يكتشف الآن ومنذ حادثة كرة القدم ان عصيانه يمكن أيضا أن يمتد الى مجالات اخرى • كما يمكن ان يشمل اشياء أخرى كانت لوضوحها وطبيعيتها قد فاتته ملاحظتها حتى ذلك الحين كالعواطف مثلا • كما فاتته حالة أخرى متطرفة لم يلبث ان فتن بها فى التو ــ الا وهى حياته فى الواقع •

وما ان طرأ على ذهنه هذا الخاطر حتى احس انه يمارس حقا لعبة ما ، كانت كاللحن الموسيقى يتميز بتكامله وغائيته فى حد ذاته كما ان له نغمه الخاص وتصميمه الخاص ودلالته الخاصة • اما موضوع هذا اللحن فهو العصيان واما تشكيلاته الأخرى فهى جميع الأعمال المصاحبة له والتى زادت من توريط لوقا • وفضلا عن ذلك فقد حاكت هذه اللعبه احد تمرينات الرسم للمبتدئين التى تبين فيها الصورة المطلوبة بسلسلة من النقاط وما على الطفل المبتدىء الا ان يتابع النقاط بقلمه الرصاص • كانت لعبة قاسية مدمرة ولكنها لعبة على اية حال لانه كان يمارسها على مستوى تجريبى خال من الغرض تماما • وقد انحصر عمله فى الواقع بصفة رئيسية فى متابعة هذه الحركة الغامضة التى لاتفتأ تزيد سرعة وترابطا على صورة منتظمة والتى بدت انها تحمله نحو الفناء المطلق • وكان فى كل مرة يكشف ارتباط الظروف التى يكون فيها القيام بأعمال معينه معناه الحياة وارتكاب اضدادها معناه الموت وكان لوقا لايفتأ يختار الأخيرة • ولما كان يتمتع بحماسة رياضية قوية شأن الصبية جميعا فقد استقر رأيه على أن يطارد منذ ذلك الوقت فصاعدا كل ما يربطه بهذه الحياة التى لشد ما احس نحوها بالنفور الهادىء المقيم • كان كل ذلك خليقا بأن يبث فى نفسه الذعر لو انه رآه على حقيقته كلون من ألوان الانتحار •

اما وقد تزيا بزى اللهو المألوف الذى لاضرر منه فقد راقه وانجذب اليه ٠

والغريب فى الأمر أنه لم ينظر الى حبه لوالديه كرباط يشده الى الحياة ومن واجبه ان يحطمه ـ بل كان احساسه بارتباطه بهما فى واقع الامر لايزيد بصورة ما على احساسه بارتباطه بأثاث المنزل او بزملائه فى المدرسة ٠ فلا ريب أن شيئا خطيرا لاسبيل الى اصلاحه قد وقع له فى الماضى السحيق فحال دون استمرار حبه لهما ولكنه لم يعد يذكر كيف حدث ذلك ومتى حدث وقد تأكد له ماأصاب حبه البنوى من تدهور عن طريق المقارنة بين مشاعره السابقة نحو والديه ومشاعره الآن ٠ فقد مرت به فترة كان يراوده فيها نحوهما شعور يقارب الخشوع الدينى حين كان يخيل له انهما بلغا الكمال وانهما يستمدان من ذلك الكمال سلطانهما الذى يدين له بالحب والتسليم المطلق ٠ فقد كان يخيل له وقتذاك كما تذكر الآن ان هذا الكمال يقوم على أساس من الخير يكاد أن يكون خياليا لايمكن تصديقه ـ ذلك الخير الذى مابلغ الذروة الا لأنه خيالى ٠ وهو يختلف عن ذلك الذى وصفه له فيما بعد والداه ومدرساته ومربياته وقوامه القواعد والوصايا والقوانين والواجبات ٠ فانه اوسع نطاقا على صورة تفوق الوصف لا بداية له ولا نهاية ، وكان لايفتأ يحس بآثاره دون ان يتقصى اسبابه ٠ وفضلا عن ذلك فانه لم يلجأ اليه قط بل كان يكفيه احساسه بوجوده من حوله ومن فوقه قادرا على كل شيء ومصدرا لحياته ومبررا نهائيا لوجوده ، فى تلك السنوات كان ذلك الخير فى نظره بمنزلة الشمس للعشب وزهر الحقول ـ فيضا من الضوء سرمديا رغم ماقد يوصف به من عدم مبالاة ٠ ولكنه ـ مع عدم ابصاره ـ فلا نهاية لسخائه ، يملأ كل عمل من أعماله مهما كان تافها ويعمر كل لحظة من لحظات حياته مهما كانت عابرة نافثا فيها من دفئه وحيويته ٠ عندئذ كان بحق عارفا لجميل والديه دون ان يدرك ذلك لانجابهما اياه فى هذه الدنيا ولبقائهما على قيد الحياة ٠ وفى هذا اساسا كان خيرهما ٠

ولم يكن فى وسعه ان يقرر ما اذا كان تدهور يقينه بذلك الكمال وقوامه الخير فحسب ـ يرجع الى حادث واحد محدد مستقل او الى سلسلة من الوقائع الصغيرة الدقيقة التى تعذر

عليه ان يذكرها . كل ما كان يعلمه الآن علم اليقين هو انه لم يبق شيء من ذلك الكمال أو من ذلك الخشوع الذى كان يوليه اياه بعد ان كان فى وقت من الأوقات يجهل ملامح والديه لأنها كانت تبدو لعينيه كالشمس التى يحسر البصر دون التطلع اليها مباشرة فى مواجهتها فكلها ضياء ولاشيء سواه كمايمكن تحديد محيطها الخارجى على وجه الدقة .. فكان يتطلع الى ملامحهما دون أن يميزها ودون أن يرى شيئا سوى ذلك الضوء المنبعث من خيرهما الاريحى المعشى .. ولكنه اليوم - وكأن ذلك الصباح المتألق قد اعقبه مساء مظلم كئيب استحالت فيه شمساهما الى قمرين ميتين باردين - اليوم امكنه ان يرى وجهيهما بوضوح وأن يميز فيهما أدق التفاصيل التى لشد ماخاب لها أمله .. رآهما فى الواقع بدقة تامة فى ضوء الحقيقة الذى لا يعرف الرحمة مثلما كان يرى وجوه زملائه أو مدرسيه .. ولكنه بدا له أنهما هبطا الى درجة أدنى لالسبب الا لانه يراهما بوضوح شديد .. وبهبوطهما الى مستوى الاشياء التافهة تلاشى من حياته ذلك الدفء الذى كان مبعث حيويتهما .. وقد أدرك ببديهته فى غموض دون أن يتعرف على ذلك فى وضوح مطلق، أن ثورته على الدنيا قد بدأت بلا ريب فى نفس اللحظة التى غاض فيها ذلك الدفء .

وثمة حادث اسهم فى تثبيت الصورة النهائية للشخصية الجديدة التى اكتسبها والداه كما أسهم فى تحديد شعوره الجديد نحوهما .. فقد كان من عادة والده عندمايعود المنزل فى المساء ان يخرج من جيبه صحف المساء ويعطيه اياها ليقرأها ثم يستردها منه بعد ذلك عند النوم لانه كان - كما يعلم لوقا - يحب ان يقرأها فى فراشه قبل ان ينام وكانت تلك احدى عاداته المألوفة التى يتكون منها سطح الحياة اليومية الدائم الاملس .. وحدث ذات مساء ان غادر لوقا غرفة الطعام وذهب الى فراشه حاملا معه الصحف وربما كان ذلك عن طريق السهو .. ولكنه ماكاد يلقى نظرة على الصور ويتصفح بعض المقالات حتى تذكر ان والده لم يأخذها منه وانه بلا ريب سوف يأسف لذلك أسفا شديدا .. وتلونت فى مخيلته تلك الصورة

٩

بانعكاسات مثيرة للشفقة كان مصدرها ذلك الخير الابوى السابق الذى كان رغم هبوطه الان الى مستوى الخير البشرى فحسب لايزال محببا الى نفسه يحرك عواطفه .. فخيل له ان والده لم يأت فى طلب الصحف لانه لم يشأ ان يوقظه .. وبدت له تلك التضحية دليلا اخر على محبة والده الرقيقة .. وفضلا عن ذلك فانه كان يعلم ان والديه يظلان مستيقظين الى ساعة متأخرة من الليل حتى بعد أن يأويا الى الفراش وهما يتحدثان أو يقرآن .. فأخذ يقلب الامر على وجوهه ويزن ما له وما عليه حتى قرر فى النهاية وبعد وقت طويل ان يحمل الصحف ويذهب بها رأسا الى والده فى غرفته .. فوثب من فراشه وسار في الدهليز عارى القدمين حتى بلغ باب غرفة والديه حيث وقف ينصت لحظة خيل له فيها انهما يتحدثان .. فدخل الغرفة دون أن يطرق الباب فى عجلة مرجعها الحب والرغبة فى علاج ما لحق والده من أذى .

وكانت الغرفة مضاءة كما توقع .. وقد شغل الفراش مساحة كبيرة من الحائط المواجه للباب .. فوقع بصره لاول وهلة على الوسادة الخالية والملاءة المطوية الى الخلف على جانبى الفراش .. ولكن الفراش الخالى لم يسترع انتباهه أكثر من لحظة .. فقد كان أبواه يقفان فى وضع غريب فى الركن القصى من الغرفة الى يمين الفراش .. وقد ارتدى والده بيجامته ذات الخطوط العريضة التى تغضنت على جسمه البدين .. وكانت أمه تقف عن كثب الى جانب والده وقد ظهرت للعيان أطرافها النحيلة من خلال قميص النوم الشفاف .. وقد ضم أبوه الى صدره بكلتا ذراعيه شيئا لم يلبث لوقا أن تبين فى الحال انه حزمة من الاوراق المالية والسندات الصناعية .. وكانت أمه تقف أمامه رافعة ذراعيها وهى تعبث بصورة كانت معلقة على الحائط .

ولشد ماكان لوقا يعرف هذه الصورة فقد كانت نسخة من صورة السيدة العذراء لرافاييل .. وفى أسفلها مصلى Prie - dieu على طراز العصور الوسطى صنع من خشب داكن اللون وكانت تعلوه وسادة حمراء مطرزة طالما جعلته أمه

يجثو عليها فى طفولته ليتلو صلاة المساء .. كان يجثو شابكا يديه وشاخصا بعينيه الى الصورة وهو يردد فى اذعان كلمات الصلاة التى تمليها عليه أمه .. كلمة كلمة فى صوت هادىء وهى جالسة بجانبه فى يسر رغم ما تبعثه فى النفس من ملل لطيف محبب هو الغذاء الرئيسى للطفولة .. وثانيا لان صورة السيدة العذراء برقتها البالغة وهى تحمل طفلها بين ذراعيها متشحة بثياب اختلطت فيها الحمرة بالزرقة ومن خلفها منظر طبيعى صاف مضىء كانت تجذبه وتطلق العنان لخياله حتى أنه خيل له ذات مرة وقد بدأ يغالبه النعاس ان الصورة أومأت له برأسها وابتسمت له .. وكثيرا ماكان يتأمل ذلك التعبير المرتسم على وجه العذراء أو يتأمل تفاصيل ذلك المنظر الطبيعى الربيعى الجبلى الذى يمتد مكشوفا خلف كتفى صاحبة الصورة وهو يردد فى آلية كلمات الصلاة .. وفى يوم من الايام وربما كان ذلك على أثر عودتهم من العطلة انقطع عن تلاوة الصلاة هناك كما يحدث دائما فى مثل هذه الامور .. وظل فترة من الزمن يتلو صلاته وحده .. وأخيرا أقلع نهائيا عن تلاوتها .

ربما فتح لوقا الباب دون ان يحدث ضجة .. وربما كان الباب مواربا .. وما كان عليه الا أن يدفعه .. وربما كان أبواه مستغرقين تماما فيما يفعلان حتى أنهما لم يسمعاه عند دخوله الغرفة .. ومهما يكن الامر فقد طال وقوفه ساكنا عند الباب وهو يراقبهما دون ان يلحظا وجوده .. رأى أمه وهى تفتح ذراعيها لتمسك بالصورة من اطارها ثم ترفعها عن الحائط وتضعها على الارض بعناية شديدة وتسندها الى الحائط .. عندئذ أدرك ان الصورة كانت تخفى وراءها باب خزانة من الصلب لمع سطحه الرمادى المربع الى حد ما .. قال أبوه وهو واقف عن كثب خلف أمه .. أديرى باءين وسينا واحدة .. فأدارت أمه أقراصا معينة فى معدن الباب منفذة تعليمات زوجها ثم فتحته فى هدوء .. ورأى لوقا أنها كانت خزانة صغيرة تحوى على رفيها حزما اخرى كثيرة من الاوراق المالية وملفات السندات .. وقال أبوه فى صوته العاطفى الرقيق :
ادفعى هذه الاوراق الى الداخل حتى يتسنى لنا أيضا ان نضع

هذه الحزم .. فأذعنت أمه ورآها لوقا وهي تدفع النقود والسندات الموجودة هناك الى داخل الخزانة بذراعيها النحيلتين لتفسح مكانا للاوراق الجديدة .. وفجأة اندفع لوقا دون تفكير الى داخل الغرفة حيث ألقى بالصحف على الفراش قائلا : هاهي الصحف .. فرأى اباه يجفل في عنف كاللص عندما يضبط متلبسا بالسرقة كما رأى أمه تدير رأسها في دهشة وقد ارتسمت في عينيها نظرة قاسية .. ثم غادر الغرفة مهرولا .. وعندما بلغ غرفته الخاصة بدا له احساسه المضطرب بالجميل الذى أداه وقد اختلط تماما بمرارة الخيبة والاثم .. ولكنه كان يشعر بالخمول وما ان قلب في ذهنه من زوايا مختلفة تلك الصورة الجديدة المزعجة للخزانة المخبأة خلف الصورة المقدسة وتأمل منظر والديه وهما شبه عاريين وقد حملت أذرعتهما النقود حتى استغرق في النوم .

وفي اليوم التالى كان على وشك ان ينسى الحادث أو الاحرى انه حاول ان يبعده من ذهنه .. ولكنهم ما كادوا يجلسون الى المائدة في المساء حتى انتهزت أمه لحظة غياب أبيه وقالت له في جفاء « تذكر فيالمستقبل أن غرف النوم لايدخلها الناس دون أن يطرقوا الابواب » فاحمر وجه لوقا خجلا وود لو أجابها قائلا «ولماذا جعلتنى طوال هذهالسنين العديدة أتلو صلواتى جاثيا أمام نقودكما ؟ » طرأت على ذهنه هذه الملحوظة وكأنها تبلورت من تلقاء ذاتها أثناء النوم عن طريق التجمد كما يتكون الجليد في ليالى الشتاء . ولم يلبث أن أدرك في الحال أنها ملحوظة مناسبة للغاية كما أحس انها تحمل من المعانى مايفوق مراده بكثير .. ولكنه تمالك نفسه وطأطأ رأسه متظاهرا بالكمد .. وعندما عاود التفكير في الحادث فيما بعد خلص الى ان هذا الحادث ان لم يكن السبب الاصلى في التدهور المستمر في مكانة والديه فقد كان على أية حال العامل الرئيسى المباشر فيما حدث لهما حتى بلغا مستوى الاشياء الغريبة غير المحبوبة .

— ٤ —

ولكن اذا كان حبه لوالديه لم يعد يشده الى الحياة واذا كان لايجد الان ما يدعوه لان يتجشم مشقة تحطيم هذا الحب

لاحتراقه وتحطمه من تلقاء ذاته ان جازهذا التعبير فما زالت هناك اشياء اخرى شد مابدت له حية ملحة .. وعلى هذا فقد كانت بالحق الطبيعى خليقة بأن تصير جزءا من لعبة التدمير التى لم يفتأ يطورها يوما بعد يوم دون أن يتخلى عنها ..

ومثال ذلك ممتلكاته .. فقد كان لوقا منذ نعومة اظفاره يحس بالغيرة والاقتصار نحو كل مايملكه من أشياء .. وكان أبواه كما يحدث عادة يشجعانه على ذلك ويقويان فى نفسه ذلك الشعور بكل وسيلة ممكنة .. فمنذ طفولته المبكرة كانت اللعب لاتفتأ تهدى اليه مصحوبة بالعبارة التالية : أليست جميلة ؟ .. حاول ألاتكسرها .. وهي عبارة ذات مغزى تتضمن رأيا كما تناشد فى نفسه غريزة التملك . ثم جاءته بعد ذلك لعب أخرى أكثر تفننا وتعقيدا مثل المكانو (١) Meccano ومسرح الدمى ومعها أولى كتب الاساطير وقصص الاطفال ، ولشد ماشغف لوقا بمسرحه الصغير وآثره على كل ماعداه .. وعندما لاحظ أبوه هذا الشغف أخذ ينميه فيه وذلك باهدائه أسبوعيا على الاقل دمية أواثنتين .. كان يقول له فى اهمال متعمد دون أن يرفع عينيه عن الجريدة التى يقرؤها : لم لاتذهب يالوقا الى الردهة وتلقى نظرة على جيب معطفى ؟ أعتقد انه ربما كان هناك شيء لك .. فتمتليء نفسه بالفرحة كما يراوده فى نفس الوقت احساس غريب مذل لاستسلامه لمثل ذلك الانفعال الذى يكاد يكون محرما وهو يركض الى داخل الردهة حيث يجد بالفعل معطف أبيه معلقا على حمالة الملابس وقد برزت من جيبه ربطة طويلة تمتد منها قطع صغيرة من السلك .. وعندما يفض الورقة بفارغ الصبر يظهر له اثنان من المحاربين وقد اتشحا بدرعين مصنوعين من ورق القصدير اللامع أو تظهر له سيدة عظيمة ترتدى ثوبا من المخمل بلون السماء أو شيطان مسلح بشوكة وقد اختلط فيه السواد بالحمرة أو طاه يرتدى زيه الابيض .. فيعانق لوقا أباه ثم يركض الى غرفته الخاصة حيث يضع الدمى بجانب مثيلاتها مما يمتلكه فعلا فى صندوق

---

١ ـ مكانو Meccano قطع صغيرة تتكون منها نماذج هندسية .

خشبى كبير مقسم الى أقسام ·· وبهذه الطريقة صار يقتنى أكثر من مائة دمية ·· وحاول فى أول الامر ان يجعلها تؤدى على المسرح الصغير مشاهد مرتجلة بينما تمثل خلفيتها قصرا أو غابة أو سجنا · ولكن شغفه بجمع الدمى لم يلبث ان تغلب على حبه للعب فى حد ذاته وصار يقنع بصف عرائسه فى الصندوق الكبير كما يكنز البخيل قطع النقود فى قاع صندوق ·· كان يحصيها مرارا وتكرارا ثم يقبلها ويربت عليها ويحملق فيها طويلا وهو جاث على الارض ثم يعيدها بعد ذلك الى الصندوق ·· وهذا هو كل شيء ·· ولشد ماكان يحس بالرضا وهو يفعل ذلك ــ ولكنه لم يفتأ يحس به وقد خالطه نوع من التبكيت الغامض ·· ودام شغفه بمسرح العرائس فترة أطول مما استغرقته أية هواية اخرى ·· ولكن التبكيت تغلب فى النهاية على شغفه فأحس نحو مجموعة الدمى بالشبع والنفور وتركها فى قاع خزانة للملابس حيث علاها الغبار ·· ولاحظ أبوه ذلك الاهمال من جانبه فامتنع عن اهدائه المزيد منها ·

ثم جاء دور « المكانو » الذى علمه والده طريقة استخدامه بينما يزحف هو على الارض هنا وهناك جامعا تلك الالات الاولية البسيطة ·· وأخيرا جاء فى سن متأخرة دور قصص المغامرات الاولية وهواية جمع طوابع البريد وأطقم الادوات الرياضية ·· وكان ذلك التطور نفسه لايفتأ فى كل مرة يأخذ مجراه فى ذهنه فينتقل من حب اللهو فى حد ذاته الى حب التملك الجامد الغيور ومن التعلق الى النفور ·· ولكن هذا النفور لم يقو قط الى حد اقناعه بالتخلص نهائيا من تلك الاشياء ·· التى لم تعد تثير اهتمامه ·· فلشد ماستبد به حب التملك حتى نشأ بينه وبين تلك الاشياء التى شغف بها فى وقت من الاوقات ثم اهملها الان رباط من الغيرة والخوف لم يستطع معه قط ان يقنع نفسه بالتنازل عنها أو بتحطيمها رغم توقفه تماما عن استخدامها أو الاستمتاع بها بل رغم نسيانه وجودها نفسه فى بعض الاحيان ·· كان يحتفظ بها حتى ولو كانت تالفة مشوهة · وقد امتلأت أدراج خزانته بالبومات غريبة متقلصة تضم قصصه وبدمى نزعت رؤوسها

أو سيقانها وبصناديق المكانو الناقصة .. أما الكتب التى لم يفتأ يحصل عليها ويقرؤهـا فانها لم تمس بســـوء وكذلك مجموعة الطوابع التى لم ينقطع عن اضافة نماذج جديدة اليها رغم قلة اهتمامه بها ..

وفيما بعد عندما لاحظ والده انه اصبح فى سن مناسبة ختم تدريبه الطويل على التملك باعطائه منحة شهرية صـغيرة كنفقات نثرية . وكان لوقا يتقاضى منحته فى اليوم الأول من كل شهر بينما يتوقع منه والده وهو يناوله النقود ان يقبلـه على وجنته فى مقابل ذلك عرفانا بالجميل . وما لبث ان اكتشف لوقا ان النقود كانت توقظ فى نفسه احساســا بالتملك اكثر غموضا واشد استبدادا مما كانت توقظه فى نفسه الدمى وغيرها من الأشياء . كان احساسا خاليا تماما من كل اثر لفكرة اللعب او اللهو كما كان فى الواقع مستغلقا تماما على فهمه . ففى اول الأمر أخذ ينفق هذه المنحة على الحلوى والكتب . ولكنه عندما وجد انه يستطيع الحصول عليها من والديه دون ان يضطر الى اقتحام كنزه فقد عكف على اكتناز منحته وعدم انفاقها ـ وخطر له فى غموض ان يدخر مبلغا يكفى للحصول على سلعة باهظة الثمن ـ ولكنه لم يدر ما هى . وفى الواقع فانه اخذ يستسلم لتلك الغريزة نفسها التى كانت تدفعه الى جمع الدمى غير انها كانت وقتئذ تنحصر فى اشياء لايهمه فيها الكم بقدر ما يهمه الكيف والتنوع . اما الآن فى حالة النقود التى تتألف من أوراق قبيحة متقلصة وقطع لا تختلف احداها عن الأخرى فلم تكن ثمة اهمية الا للكم وزيادته العددية المجردة كمحرك لحماســـه فى جمع النقود . وهكذا فقد انزلق رويدا رويدا من متعة التملك رغم ما فيها من غلظة وهو لايكاد يلحظ ذلك الى حب المال . ومع ذلك فان شغفه هذا كان بريئا ساذجا شأنه فى ذلك شأن الطفل الذى لا يبالى بالركض عاريا على الشاطىء اذا ما سمحت له أمه بذلك . وقد بلغ من جهله بتلك الرذيلة أن أعلن يوما ما أمام والده بلهجة المنتصر انه يريد ان يدخر منحته الشهرية حتى تبلغ مدخراته الف ليرة . فأجابه والده قائلا وهو يقبله : «حسنا تفعل . ولكن ينبغى فى هذه الحال ان تـودع نقـودك بنـك

الادخار . » وشرح له ان نقوده بهذه الطريقة لن تكون فى مأمن فحسب أدعى الى الطمأنينه مما لو وجدت فى الصندوق بل انها ستزيد بانتظام دون اية مشقة من جانبه تماما كما يمو النبات ويؤتى ثماره . فرفض دفتر الادخار الذى عرضه عليه والده بحجة انه لا يملك من النقود ما يكفى لفتح حساب فى البنك . ومع ذلك فان شعوره بالخجل لم يلبث ان تلاشى فى الحال تقريبا . اذ انه لم يكن سوى بارقة مبتسرة من ضمير لم يستيقظ بعد . وظلت قطع النقود والاوراق المالية التى تتألف منها منحه الشهرية تتكدس فى درج مكتبه .

وتعذر عليه ان يضحى بممتلكاته ونقوده على الرغم من مشاعر النفور البشع التى كان يحس بها من قبل والتى صارت الآن نسيا منسيا وعلى الرغم من خجله الذى خيل له الآن فقط انه ادرك معناه العميق واهميته اكثر مما تعذرت عليه تضحيته بكبريائه المدرسية . فقد دعاه الى التهرب منها ما كان يراود جسده المرهق من صدود قبل دروسه . ولكنه احس انه ما كان يمكن أن يصل الى نبذ ممتلكاته لولا ماخالجه من حزن وحيرة مثلما يوحى به الحرمان القاسى الذى لا يجد ما يبرره على صورة واضحة . ومما لاشك فيه انه منذ اللحظة التى اكتشف فيها ان ممتلكاته ومدخراته كانت تشده الى الدنيا وترغمه على قبولها احس نحوها بنوع من الكراهية الحانقة . ولكنه ادرك ان كرهه اياها لم يكن مرجعه انها بغيضة فى حد ذاتها كدروسه بل لانه يحبها فحسب . فألفى نفسه موزعا كما لم يحدث له قط من قبل حتى النهاية ويجذبه من الناحية الاخرى احساسه المؤلم بنسفه تجذبه « لعبته » من ناحية ورغبته الغامضة المبهمه فى ممارستها الجسور من خلفه مما تستحيل معه العودة من تلك المجاهل الخطرة التى كان يغامر بارتيادها . ولشد ما احب كتبه قبل كل شىء ومجموعات طوابعه واطقم ادواته الرياضيه وكان كل قرش يدخره فى صندوقه يمثل فى نظره تضحيته بشىء كان فى امكانه ان يبتاعه كما يمثل امله فى شراء آخر يوما ما . لم تكن اشياؤه ونقوده مجرد اشياء ونقود فحسب بل خيوطا حية متماسكة نسج فى لحمتها وجوده . ولكنه لهذا السبب بالذات

اراد ان يقطع هذه الخيوط • اذ انها كانت تدل ايضا على اذعانه لمصيره الذى فرض عليه دون ان يستشار فى ذلك كما تدل على اذعانه للدنيا التى طالما يسعى عبثا الى التمرد عليها • ولو انها كانت اشياء ميتة فعلا بعد ما انقطع عنها الحب الذى كان يحييها فى الماضى ــ كما حدث لأبويه مثلا من وجهة نظره ــ لما كانت هناك جدوى من تحطيمها • ولكن العكس كان صحيحا وكانت قواعد « لعبة » التمرد المريرة لا تبيح استثناء ما •

وطالما ماطل فى تنفيذ هذا العمل • ولكنه اخيرا عقد العزم ذات يوم وكان من بين زملائه فى المدرسة صبى دعى هادىء استقر فى ذهنه انه بلغ الكمال كطالب وكصبى وكأن ظروف المدرسه والصبا باقية مدى الحياة • كان يدعى «بولى» ويتميز برأس كبير حليق شديد الشبه بالقرع الذى نحتت عليه بسن مدية صغيرة ملامح وجه بشرى على صورة تقريبية للغاية • كما كان جسمه الضامر النحيل يؤكد صورة القرع لأنه يذكر الانسان بتلك السوق الرفيعة الهشة التى تحمل فى اعلاها الثمار الصفراء الضخمة بين خطوط المحراث فى الحقل او على قرميد السطح وتظل تنتفخ حتى يكتمل حجمها الطبيعى • وكان انجب طالب فى الفرقة • اما تفوقه الذى لم يهبط قط عن مستواه المرموق ولم يتجاوز احد مطلقا سواء فى الجبر أو فى اللغة اللاتينية أو الايطالية أو التاريخ دون أن يجد فى ذلك جهدا أو مشقة فقد بدا غامضا فى عينى لوقا وكأنه ثمرة نوع من السحر وليس وليد عقل كعقله معرض للنسيان والخطأ ــ ولقد دعا بولى لقضاء أمسية فى منزله وعلق بولى على ذلك فى الحال بقوله : « احذرك انى لم أفعل شيئا ان كان الامر يتعلق بمساعدتك فى واجباتك المنزلية » وأكد له لوقا فى مكر انه لاشأن له مطلقا بواجباته المنزلية •

وصل « بولى » الى منزل « لوقا » فى شىء من الحياء وبعد ان رحب به لوقا ببضع كلمات ابلغه انه ينوى اهداءه مجموعته من طوابع البريد وما ان قال له ذلك حتى احضر المجموعة وكانت تتألف من أربعة « البومات » كبيرة شدت بوثاق من القماش ذى اللونين الاحمر والذهبى واطلعه عليها • فلم يصدقه « بولى »

وارتاب فى امره حتى ظن انه ينصب له فخا او يعرضه لخطر ما واخيرا سأله قائلا ـ « ولكن لم اخترتنى انا ؟ فنحن لسنا صديقين ٠ بل لا يكاد يعرف احدنا الآخر ٠ »

فأجابه لوقا قائلا فى هدوء ـ « اعتقد اننى راحل عن قريب الى الخارج ٠ ولما كنت شديد الشغف بهذه المجموعة فقد خيل لى انه لن يحافظ عليها سواك ٠ »

فأخذ « بولى » يقلب اوراق الآلبومات باصابع مترددة مستجيبا للاغراء وكان من الواضح فى نفس الوقت انه لايريد ان يكشف عن ذلك ٠ ثم قال ـ « سأعطيك شيئا فى مقابل هذا ٠٠٠ ولكنه بالطبع لن يكون بنفس القيمة ٠٠ بل شيئا ما فماذا تريد ؟ »

فأجابه لوقا قائلا ـ « انا لا اريد شيئا ٠ »

ثم اخذ هو ايضا يقلب الاوراق بغية تغيير الموضوع متظاهرا باطلاع « بولى » على اجمل طوابع المجموعة ـ كان فى الحقيقة يريد أن يختبر نفسه ليرى ان كان آسفا للتخلص من مجموعته٠ كانت الطوابع التى الصقت فى عناية بالصفحات السميكة ذات الحاشية المذهبة تمر امام عينيه وقد كتب عناوينها باربع لغات٠ كانت هناك طوابع لدول اوروبية مختلفة منذ الحرب تعلو رءوس الملوك فيها عناوين جمهورية تمده باحساس درامى لما حدث فى تلك البلدان من اضطرابات سياسية ٠ كما كانت هناك طوابع اقدم منها واكثر قيمة وهى الطوابع البابوية وطوابع الولايات الايطالية وطوابع اتحاد ألمانيا وجميعها طوابع بسيطة وصغيرة بهتت الوانها الرقيقة ٠ اما طوابع المستعمرات فقد صورت مناظر الطبيعة الاستوائية ووجوه الوطنيين من أهلها ٠ وهى لم تكلفه كثيرا ولكنها كانت تجعله يحلم بتلك البلاد النائية٠ وثمة طوابع أخرى صدرت لاحياء ذكرى رجل عظيم أو حدث عظيم كانت تثير خياله ايضا ٠٠ وكان يجد متعة فى الحصول عليها احادى او فى مجموعات صغيرة من محال الادوات الكتابية وكذلك فى الصاقها بالالبومات وفى التحقق من ثمنها وتاريخها فى الفهرس الفرنسى كما كان يجد متعة فى الارقام التى تشير الى قيمتها وتليها اسماء قطع النقود الاجنبية التى لم يرها قط فى حياته

وكذلك فى اختام البريد المستديرة التى تبطل استعمالها مرة اخرى وقد ذكر بها تاريخ ارسالها واسم المكان الذى ارسلت منه • ولكنه لشد ما شغف بتلك الطوابع التى تحمل خطوطا متموجة تذكره بامواج البحار التى عبرتها بلا ريب تلك الرسائل لتصل الى وجهاتها • وقد ادرك وهو يقلب صفحات الالبومات انه يعانى من الم يختلف كل الاختلاف عما كان يتوقعه • فقد كان يتوقع ان يعانى من حب الاقتناء فاذا به بدلا من ذلك يعانى من رثائه لنفسه • ولم يسعه الا ان يرى انه غاضب من نفسه حقا وكأنه منقسم الى شقين رقد احدهما على الأرض تعسا مستسلما وهو يدافع عن نفسه فى ضعف بينما وقف فوقه الشق الآخر يضربه بلارحمة • عندئذ اغلق الالبوم فى حدة قائلا ــ « حسنا اذن فهل تريدها ام لا ؟ »

ــ « اريدها بالطبع • »

ــ « انتظر حتى احزمها لك فى جريدة • »

غادر الغرفة وذهب ليأتى بجريدة من احدى الخزائن • وفيما هو يبحث عنها فكر لحظة فى ان يعود الى « بولى » ويعلنه بأن الامر كله دعابة • ولكن عملية التخلص من المجموعة بدت له أقرب الى الحقيقة وأبعد عن الزيف من الاحتفاظ بها فلم يعد يتردد •• فأخذ الجريدة وعاد الى الغرفة • وسرعان ما أغلق بولى الالبوم الذى كان يتأمل طوابعه فى اعجاب حين اقبل لوقا وكأنه يخشى اذا ما بدا عليه الفرح ان يغير لوقا رأيه • وسأله لوقا قائلا : « أليست لديك فعلا مجموعة طوابع ؟ »

فأجابه بولى قائلا وهو يتظاهر بالحكمة ــ « نعم • ولكنها أقل من هذه بكثير •• سأبيع الطوابع المكررة واشترى بثمنها طوابع أخرى »

وما ان ذهب بولى حتى أخذ لوقا يفكر فى طريقة مثلى للتخلص من كتبه • وكان يملك منها عددا كبيرا ويؤثرها حتى على الطوابع • كانت معظمها قصص مغامرات وروايات بوليسية وتاريخية • وكان لوقا يراوده احساسان مختلفان تماما قبل تلك الكتب • فلقد أحب كل كتاب على حدة لما

يحتويه من موضوعات . ولشد ما شغف بها فى نفس الوقت كممتلكات . وكان يخالط ذلك الشغف قدر كبير من حب الاقتناء الذى لاينبع من طبيعة ما يملك بقدر ما ينبع من متعة الامتلاك . فقد استبدت به فى لحظة من اللحظات رغبة قلقة فى ملء الرفوف الثلاثة فى مكتبته . ولما كان ما يملكه من الروايات لايكفى لملئها فقد ضم اليها بعض الكتب القديمة التى تلقاها كهدايا فى أعياد ميلاده وكذلك كتبه المدرسية الاولية . فبلغت هذه المجموعة المختلطة بكل ما تحتويه حوالى ثلاثمائة كتاب . وقد راجع لوقا عدها مرارا فكـــان يلقى بنفسه على الارض ويحصى الكتب ويرتبها حسب احجامها . والآن كان من الصعب عليه ان يفرغ المكتبة خلسة دون أن يلاحظ ذلك والداه فى حين كان من السهل عليه التخلص من آلبومات الطوابع التى كانت لاتشغل الا حيزا صـــغيرا . وبعد ما فكر طويلا فى هذا الامر قرر ان يلجـــأ الى اختلاق أكذوبة مناسبة تتيح له ان يأتى على مكتبتـــــه دون ان يثير الشبهات . فذهب ذات يوم الى امه قائلا ـ « اماه .. أريد أن أبيع كتبى جميعها . »

فقالت ـ « اتبيع كتبك جميعها ؟ ولماذا ؟ »

فأجابها لوقا قائلا ـ « قرأتها كلها وأعدت قراءتها مرارا . لذا فانى اريد ان ابيعها لاشترى حاكيا وبعض الاسطوانات .»

كانت أكذوبة مناسبة بالضبط . فما كان ليسمح لـــــه والداه قط بمثل هذا العمل الا اذا كان ذلك من أجل الحصول على شيء جديد . فلا جدوى من الممتلكات فى نظرهما الا فى الحصول على ممتلكات جديدة . وفضلا عن ذلك فقد كـــان لوقا يعلم ان أمه تهوى الموسيقى ولا يسعها الا أن تسر لهـــذه الرغبة الجديدة من جانبه .. فما لبثت ان قالت ـ « ولكن ثمن الكتب لن يكفى .. »

وخشى لوقا لحظة ان تتأثر أمه بحبه للموســــيقى فتقترح شراء الحاكى دون ان يضحى ابنها بكتبه رغم علمه بأن مثل هذا الكرم ـ بل اى كرم فى الواقع ـ كان لايدخل ضــــمن نظرياتها التربوية . فأسرع باجابتها قائلا ـ « سأضيف

اليه مدخراتى .. وبهذا المبلغ مجتمعا يمكننى دفع الاقساط الاولى من ثمن الحاكي وابتياع بعض الاسطوانات أيضا . »

وما ان حصل على موافقة والدته حتى طلب لوقا الى احد باعة الكتب القديمة وكان يعرفه من قبل ان يحضر الى المنزل. ودخل الكتبى الغرفة مرتديا معطفه وممسكا بقبعته فى يده وكان شابا قصير القامة يعلو وجهه تعبير ينبىء بالطمع ويعلو رأسه شعر طويل مموج خلط بالدهون . وأخذ يفحص الكتب التى كان يناوله اياها لوقا كل على حدة . وأخذ لوقا يتساءل مرة اخرى أثناء هذا الفحص عما ان كان يعانى من فراقه لكتبه الحبيبة الى نفسه كما فعل من قبل عندما اعطى « بولى » مجموعة طوابعه . عندئذ ادرك ان ألمه كان أقل بكثير كما ان احساسه اللاهى بانها لعبة وادراكه خداعه كانا يوجدان بعض التوازن مع مايحس به من ألم . وحاول الكتبى الذى لم يقل اهتمامه عن اهتمام بولى ان يبخس قيمة الكتب . فأخذ يردد قائلا وهو يلوى فاه ان المؤلفات كانت تالفة للغاية كما كانت عادية لا جديد فيها .. وتظاهر لوقا من جانبه بالغضب الشديد وهو يناقض ملحوظات الكتبى الذى قال فى النهاية ــ « انها كلها اشياء عادية .. يمكننى ان اعطيك شيئا فى مقابلها .. فى مقابل المجموعة بأسرها .»

فسأله لوقا قائلا ــ « كم تدفع ؟ »

فلوى الكتبى فمه ملقيا بنظرة احتقار الى كومة الكتب من فوق ياقته المخملية . ثم ذكر رقما . فقال لوقا ــ « هذا ثمن بخس . فلتضاعفه . »

فأجاب الكتبى قائلا ــ « ان الامر لايستحق المناقشة . وتناول قبعته التى كان قد وضعها على المنضدة .

فتردد لوقا ثم طرأت له فكرة ما وذلك ان يقترح على الكتبى أن يبيعه الكتب والدمى واطقم الادوات الرياضية فى صفقة واحدة . وهكذا يتخلص من كل ممتلكاته دفعة واحدة فقال ــ « انتظر لحظة فسنضيف اليها بعض الاشياء الاخرى وعندئذ يمكنك أن تعطينى المبلغ الذى طلبته . »

فقال ــ « اية أشياء ؟ »

فاتجه لوقا الى الركن القصى من الغرفة حيثِ فتح صوانا داخل الحائط اودعت فيه كرة القدم وبعض كفوف الملاكمة التي لم تستعمل بعد . كما اودع به قاربا شراعيا نشرات أشرعته كلها . وكذلك مسرح العرائس والدمى . فقال الكتبى:

ـ « أنا لا ادير محلا للخردة . »

ولكن عينيه الصغيرتين الغائرتين لمعتا فجأة بنظرة تنبىء بالجشع .

فقال لوقا ـ « هذه الكرة وحدها كلفتنى أكثر مما تعرضه على فى مقابل كتبى جميعا . »

وفى النهاية قبل الكتبى الرقم الذى حدده لوقا ودفع المبلغ . وفى نفس اليوم جاء حمال الكتب والاشياء الاخرى فى صندوق للنقل . وما ان خلا لوقا الى نفسه حتى بدا عليه الرضا وهو ينظر الى الرفوف الخاوية . ولم يسعه الا ان يتخيل نفسه وكأنه يستعد للسفر فى رحلة طويلة تماما كما قال لبولى . ولكن المتعة التى راودته فى مواجهة الغرفة الخاوية لم تكن متعة الرحيل بل الاحرى انها كانت المتعة الحزينة الباردة التى تراود المرء عند وصوله الى بلد عار مهجور يعلم أنه لاينتظره فيه شيء . ويومئذ كان عمله أقل مما تعود ان يفعل . فلم يفتأ يعود بذهنه الى كتبه والى مجموعة طوابعه والى أطقم ادواته الرياضية . ولا يكاد يخطر له أنه أمكنه التخلص منها جميعا حتى يراوده ذلك الرضا الغامض الذى لاينضب معينه والذى يكاد يكون شهوانيا . وصور لنفسه كيف ان بولى يظن به الحمق بلا ريب وكيف ان الكتبى يهنىء نفسه بلا شك بتلك الصفقة الرائعة . وسر لاقتناع هذين الشخصين بأنهما قد خدعاه . وراوده فى نفس الوقت احساس بالخفة والراحة كما لو كان يحمل عبئا ثقيلا مسافة طويلة ثم أحس فجأة بالتخلص منه .

ومع ذلك فقد بقيت مشكلة النقود . فكان عليه ان يتخلص منها وان يبرر فى نفس الوقت بطريقة أو اخرى عدم حصوله على الحاكى . فانتهز لوقا الفرصة أثناء العشاء وأعلن فى صوت هادىء حزين قائلا ـ « هناك أمر ما يجب ان

اخبركما به ·· ولكنكما يجب ان تعدانى بأنكما لن تغضبا منى ·· »

فنظر اليه والده فى انزعاج · واستطرد لوقـا قائلا ـ « هذا الصباح سرقت حافظتى فى الترام ـ أو ربما سقطت من جيبى · وعلى اية حال فانى لم استطع العثور عليهـا منذ ذلك الحين ·· وكان بها كل ما املك من نقود ·· النقود التى كنت انوى ان ادفعها ثمنا للحاكى ·· »

وبعد ما وجهت اليه الاسئلة المألوفة التالية ـ « كيف حدث هذا بحق السماء ؟ لم تكن أكثر حرصا ؟ وأين كانت حافظتك بالضبط ؟ ولم اودعتها كل نقودك ؟ » أعقبت ذلك مناقشـة أوشك فيها لوقا مرارا على اليأس التام من نجاح خطته · اذ بدا والده وقد ملأته الشفقة عليه لهذه الكارثة القاسية التى نزلت به ـ ميالا لان يرد له ما فقده من نقود · بينما غضبت أمه للخسارة ولاهمال ولدها فعارضت فكرة تعويضه عنها بحجة ان هذه الكارثة ستكون درسا فى المستقبل · ورأى لوقا أنه اذا انتصرت حجة ابيه فسوف لايتجمع لديه فحسب ضعف المبلغ الذى يملكه فعلا بل سيضطر ايضا الى شراء الحاكى متعرضا فى ذلك لخطر التعلق لجدته وبهجته · فتتبع شخصية ابيه · وفى الواقع فقد انتهت المناقشة بفوز وجهة نظر امه مع تحفظ واحد هو ان والديه سيهديانه الحاكى وعددا مناسبا من الاسطوانات اذا ما احضر اليهما تقريرا مرضيا فى نهاية الفصل الدراسى · فابتسم لوقا فى ابتهاج لعلمه ان تقريره سـيكون غـاية فى السوء ·

- ٥ -

عندئذ كان الوقت فى بداية شهر ديسمبر · وخـرج لوقا ذات مساء حاملا فى جيوب معطفه كل مايملكه من نقود عـلى صورة قطع فضية وأوراق مالية صغيرة · وكان المطر يومئذ قد توقف بعد أن ظل يهطل فترة طويلة · فبدت السماء صافية نظيفة ولكن ثمة لونا دخانيا متعادلا كان لايزال يظللها بشيء من القتامة وكأن زرقتها المألوفة لم يحل محلها لون السحب الرمادى المختلط الذى يتلاشى بسقوط الامطار أو بمطاردة الريح بل حل محلها لون مختلف اكثر استقرارا وأشد ظلمة كمـا

انه ثابت الى الابد لايتغير · وكان الهواء البارد الساكن يوحى بالارهاق الذى يعقب العاصفة العنيفة · ولكن ثمة سربا من الغربان كان يحوم قريبا من الأرض بدا وكأنه بصيحاته المترقرقه ينذر الناس بمزيد من المطر · وشق لوقا طريقه صوب الحدائق العامة غير بعيد من منزله وهو يتطلع الى السماء ويقلب النقود فى جيبه · كان يعلم ان المكان مقفر فى تلك الساعة من النهار وانه يمكن أن يعمل يحدوه يقين من انه بعيد عن أعين الرقباء · مر من خلال البوابات الكبيرة وتوغل فى أعماق الحدائق · كان يعرف وجهته بالضبط ـ فهو يقصد مكانا ارتبط بذاكرته منذ أيام طفولته على ورقة ثابتة راسخة · كان مكانا مكشوفا تحده من ثلاثة جوانب أشجار السنديان الضخمة المورقة ومن الجانب الرابع سور للزينة مزخرف بالكوى والأعمدة والنقوش الرومانية · وفى الناحية الاخرى من السور كانت توجد حديقة الحيوان حيث يسمع غالبا زئير الوحوش الجائعة · وكثيرا ما كان لوقا فى طفولته يأتى متنزها فى صحبة مربياته الى هذا المكان الحزين المقفر الذى كانت حصباؤه البيضاء تكتنفها أوراق السنديان البرونزية فتظللها · وبينما تجلس المربية على تاج عمود ساقط وهى تقرأ فى كتاب كان لوقا يتسلق المصبعات الحديد فى نوافذ السور الخالية محاولا أن يتطلع الى حديقة الحيوان الممتدة فيما وراء السور أو يتجول خلال دغل السنديان عند حافة المكان المكشوف حيث يتكاثف الظل وتكسو الارض طبقات عديدة من الاوراق الذابلة التى جف سطحها ورطب باطنها فى لمعان · وكانت تنمو هنا وهناك كتل من حشائش القريص بدت وكأن خضرتها اللامعة تقتات من كل هذا العفن والذبول مما يملأ نفس لوقا بالنفور · وذات يوم دار حديث فى منزله بين المربية والخادم حول جريمة قتل · فقد لقى شاب مصرعه ولم يعثر على جثته · ولكن بعض الملابس الملوثة بالدماء والمكان الذى اكتشفت فيه جعلا من المرجح أن تكون الجثة مدفونة فى احدى الحدائق العامة الكثيرة فى البلدة · وأخذ لوقا ينصت طويلا الى تعليقات المرأتين دون ان ينبس بكلمة وهو يتظاهر باللعب · وأخيرا

سأل الخادم قائلا ـ « ولماذا قتلوه ؟ » فأجابته قائلة فى مرارة مدعية الحكمة ـ « لانه كان وسيما خيرا • هذا هو السبب .. ولانه لم يخلق لهذا العالم .. » فصدمته هذه العبارة وسكت بعد ذلك عن سؤالها • ولكنه فيما بعد رسخ فى ذهنه ـ وما كان فى امكانه ان يفسر ذلك ـ ان جثة الشاب كانت مدفونة فى نفس ذلك المكان المكشوف الذى طالما تردد عليه فى نزهاته مع مربيته • ولم يكن لهذا الفرض فى الواقع أساس من الصحة أيا كان مخطئا او تافها • وربما كان ذلك هو السبب فى انه بدا له قويا لا سبيل الى دحضه • وكان يسره وهو يتجول هنا وهناك فى ذلك المكان المكشوف وقد امتلأ ذهنه بهذا السر المخيف الذى فتن به فى نفس الوقت ـ ان ينظر فى يقين الى تلك البقعة المحددة حيث كانت الجثة تتحلل تحت ارضها • وكانت تلك البقعة محصورة فى الزاوية فيما بين السور والدغل عند أسفل شجرة السنديان الضخمة • وكثيرا ما كان لوقا يتوقف عند هذا المكان وهو يعبث بقدمه بين الاوراق الذابلة أو يثقب الارض الرخوة من حوله بعصا • كان يعلم أن جثة الرجل الميت راقدة هناك فى أسفل • وماكان يمكن بحال من الاحوال ان يتنازل عن اعتقاده هذا • وفضلا عن ذلك فانه لكثرة تفكيره فى هذا الموضوع فقد صور الجريمة فى ذهنه من جديد على طريقته الخاصة بل أنشأ فى ذهنه صورة للقتيل والقتلة • ومن الواضح ان القتيل كان شابا وسيما خيرا كما قالت له الخادم ولكن وسامته وخيره كانا من نوع خاص لايظهر مطلقا للعيان بل يخفى على معظم الناس ويظل سرا لا يعرفه أحد ـ اما الاخرون فلقد تمثلهم لوقا فى صورة مماثلة تماما لكل من يلقاه فى الطريق من المارة العاديين المجهولين ـ وربما قتلوه ليسلبوه نقوده كما قالت الصحف ولكن الحقيقة الخالصة كما قالت الخادم هى ان القتل كان بدافع الكراهية لوسامته وخيره ولابعاده عن العالم الذى لم يخلق له • وكان عندما يفكر فى الشاب وفى مصرعه يحس نحوه بجاذبية مرونة وبالشفقة والحنان فى نفس الوقت • ثم خيل له بمضى الزمن وهو لايكاد يدرك

ذلك أنه هو نفسه القتيل وان جثته مدفونة أسفل شجرة السنديان • وقد بدا له هذا الازدواج النفسي الذي جاء نتيجة لشغف مخيلته بمظهر القتيل ومصيره طبيعيا للغاية • ولم تكن هذه أول سابقة من نوعها تحدث له • فقد كان يتراءى له في مناسبات اخرى عندما يقرأ كتب المغامرات انه احدى الشخصيات البطولية الناجحة • ولكنه لم يسبق له ان استهواه مصير قاتم على هذه الصورة • وراوده شعور غامض بأن ازدواجه هذا على خلاف ما حدث له من قبل كان راجعا الى أسباب عميقة ، الى فكرة راسخة في ذهنه تعبر عن رسالته كاملة في الحياة • وكما يحدث عادة فان هذه الفكرة الراسخة تلاشت رويدا رويدا على مر السنين كالضباب الذي يتلاشى عند شروق الشمس ، واستحالت الى ذكرى حزينة وأخيرا طواها النسيان •

ولكن اذا بها الآن تعاوده وهو في طريقه الى البقعة المكشوفة في الحدائق غير انها كانت في صورة مختلفة • فقد كان يعلم عندئذ ان تلك البقعة لم يدفن بها احد ولكنها ـ وقد احتلت من خياله الى الابد مكانا مقدسا ـ فقد ظلت بقعة ينبغي ان تدفن بها جثة ما • وسوف يدفن نقوده في نفس تلك البقعة التي خيل له في وقت ما ان القتيل راقد فيها • وبدفنه النقود هناك يكون قد دفن نفسه أيضا في صورة ما ـ او على الاقل ما ارتبط من نفسه بهذه النقود • كما اختلطت ايضا بهذه الامور الخطيرة على صورة غامضة ذكرياته عن كنز مدفون في ظروف تكتنفها المغامرة جاءت صدى لقراءاته في باكورة أيام شبابه •

وكانت في ذهنه بالذات قصة « البقة الذهبية » The gold Bug لادجار آلان بو (1) • ولكن ذلك كان نوعا من أدلة البراءة بغية ابعاد كل أثر لصفة الفاجعة عن شخصيته حتى تظل داخل حدود اللعبة • وفضلا عن النقود فقد أحضر معه زجاجة دواء زرقاء اللون دس في داخلها بطاقة تبين

---

(1) Edgan Gllan Poe

١٨٠٩ ـ ١٨٤٩ شاعر أمريكي وناقد وكاتب قصصي •

بالضبط المكان الذى سيدفن فيه كنزه الصغير . ولما كان يجهل الشفرة تماما فقد اكتفى لوقا بكتابة الشرح بلغة طلابية دارجة مضيفا الحرف «ف» الى كل مقطع . وصحت نيته على ان يخفى هذه الزجاجة فى تجويف احدى اشجار السنديان المحيطة بالمكان تماما كما ورد فى القصة .

سار عبر مرجة كبيرة مربعة وهو ينظر امامه مباشرة . وكانت جذوع السنديان السوداء فى الجانب القصى من المرجة تتمايل هنا وهناك كحشد من الناس انتابهم الذعر فأخذوا يتمايلون اقبالا وادبارا قبل ان ينفضوا هاربين . ومن خلال اشجار السنديان ظهرت الحصباء ببياضها الشاحب واضحة فى الضوء فلمح لوقا البقعة المكشوفة ومن خلفها السور . واقتحم الدغل وهو يمشى بلذة مدركة على بساط منحدر من الاوراق الذابلة . وفى وسط السكون المخيم تحت الاشجار سمع صفير طائر . وما ان استدار حتى رأى الطائر نفسه بحجمه الكبير ولونه الاسود يثب على الارض ثم يطير ويختفى بين الاوراق . كما لاحظ ان ثمة احساسا بالحرية اخذ يراوده وهو يشق طريقه خلال الغابة . ولشد ما بدا له العمل جميلا رائعا حتى ولو كان من اجل تدمير حياته . وكان العمل ينحصر فى القيام بأعمال تطابق افكار المرء ولا تدفعه اليها الضرورة فحسب .

كان المكان مقفرا من الناس . فتجول فيه قليلا عائدا بذاكرته الى ذلك الوقت الذى كان مقتنعا فيه بأن الجثة مدفونة هناك . وبدا له انه يكتشف من جديد احساسه الموحش المشئوم الى حد ما دون ان يطرأ عليه تغيير ما ـ ذلك الاحساس بالمكان الذى فتن به فى طفولته . نظر الى السور بكواه الخاوية ونقوشه المتقطعة وطنفه المتهدمة . نظر الى النوافذ وفى اسفلها المقاعد والمصبعات الحديد . وتسلق احدى تلك النوافذ حيث تطلع من خلالها الى الجانب الاخر فى داخل حديقة الحيوان فأمكنه ان يرى فى سور من الغار أوراق النباتات السميكة التى خيل له انه لمح بينها طائرا كبيرا غريبا بريشه الذى اختلط فيه اللونان الاخضر والذهبى . وجفل

عند سماعه زئيرا بعيدا • فقد كانت الوحوش جائعة كما هو حالها دائما وكما كانت فى الايام الخوالى • ثم هبط الى الارض مرة اخرى واتجه صوب البقعة التى ينشدها • كانت شجرة السنديان الهرمة نفسها لا تزال هناك وفى جذعها شق اسود كبير وقد امتد فرعها الرئيسى تجاه المكان المكشوف واستند الى متكأ من الطوب فبدا كذراع الكسيح المستندة الى عكاز • وفى اسفل شجرة السنديان كانت الجثة مدفونة • وما لبث ان عاوده فى الحال احساسه بأنه هو نفسه المدفون هناك وانه هو نفسه الذى قتل بلا رحمة بكل ما فى ذلك الاحساس من قسوة وشجن •

جثا تحت الشجرة وأخذ يشق حفرة بمديته • وكانت التربة اسفل الاوراق الذابلة رطبة خفيفة ملئت بشظايا متآكلة من لحاء الشجرة • ففتت التربة ثم جرف التراب بيده الى الخارج وكدسه جانبا فى كومة صغيرة • وعندما فرغ من الحفر اخرج الاوراق المالية من جيبه فى بطء وأخذ يمزقها احداها تلو الاخرى فتساقطت قصاصاتها فى الحفرة • واكتشف ان ثمة شعورا عميقا بالكراهية كان يراوده قبل نقوده ـ تلك الكراهية التى يحس بها المرء نحو طاغية تمرد عليه • وكان مما زاد فى كراهيته اعتقاده ان النقود موضع احترام عميق للغاية عند والديه وانه هو نفسه قد مرت به اعوام عدة وهو يتلو صلواته أمام خزانة مملوءة بالنقود دون ان يدرى ذلك • فأحس أثناء تمزيقه الاوراق انه ينتقم لصلواته وانه يؤدى عملا يبغى منه اصلاح ما فات • غير ان النقود ايضا كانت مقدسة ـ ولكن بطريقة تختلف تماما عن قدس الصورة التى كانت تختفى خلفها اثناء صلاته • كانت مقدسة بسبب ما عليها من صور ملكية ورموز تضمن قيمتها • كما انها مقدسة لانها ربما كانت تعنى السعادة للكثيرين من الناس ـ لذلك الرجل الفقير مثلا الذى كان فى كل صباح يمد له يده عند ناصية الشارع وهو فى طريقه الى المدرسة ولكن اعطاءه اياها لرجل فقير كان يعنى اساسا انه يحترمها ويعترف بقيمتها فى حين ان لوقا كان يريد بدلا من ذلك ان

يحطمها حقا لا رغبة منه فى ان يفعل ذلك فحسب بل فى الواقع والحقيقة ـ ولما كان يحس انها معبود بغيض لم يجد سبيلا الى تدنيسه كلية سوى تمزيقه اربا اربا كفرا به .

وعندما انتهى من تمزيق الاوراق خلط القصاصات معا ثم اخرج من جيبه ظرفا مليئا بالقطع الفضية ودفــع به الى قاع الحفرة فوق الاوراق ـ أخذ يؤدى هذه الاعمال وقــد راوده احساس بالقسوة كان رغم امتزاجه بالحزن المميت جــادا مدركا . وعندئذ عاودته من جديد ذكرى الرجل الميت الذى قتل ودفن هناك فاجتاحه مرة اخرى ذلك الشعور الغــريب بالرثاء لنفسه . وكان فى تلك الاثناء يملأ الحفرة بالتراب . وما ان فرغ من ذلك حتى سوى التربة وغطى كل شيء ببساط من الاوراق الذابلة .

نهض وهو ينفض التراب عن سراويله عند الركبتين وقد علاهما البلل والقذارة . ثم تذكر الزجاجة الزرقاء وقصــة ادجار آلان بو ـ ولكنه الآن كانت تعوزه الشجاعة لتنفيذ هذا الجزء من الخطة . فقد راوده شعور بالانقباض المذهول الحزين وأدرك ان الامر لم يكن لعبة قبل كل شيء . ووجد انه لم يكن ذلك القرصان الصلب الملوث بالدماء فى ختام حيــاة الحرية والمغامرات . وان هذا المكان المكشوف لم يكن شاطئا مهجورا فى بلاد همجية وان احدا لن يفرح فى الواقع باكتشاف كنزه الصغير المسكين الذى يتألف من الاوراق المالية الممزقة وقطع النقود الصغيرة . وبدت له فى الحال صورته العادية المألوفة التى لايعزيه عنها شيء كما بدت له صورة المكان وصورةالكنز بطابعهما العادى خير دليل على جديته العنيدة فيما كان يقوم به وخير دليل على استحالة خداع نفسه باعتبار ما حدث لعبة فحسب . فأخرج الزجاجة من جيبه وفضها ثم سحب منهــا القرطاس الصغير الملفوف ومزقه اربا . كما سحق الزجاجــة بعقبه . وبدا له عند رحيله انه تصرف كالمجنون . ومع ذلك فلا بد ان جنونه ينطوى على بعض المعنى . ولكنه لم يمكنه بعد ان يكتشف ذلك .

- ٦ -

ومنذ ذلك اليوم فصاعدا بدا لوقا وكأنه قد اســتغرق فى

سبات شبيه بالموت كما لو كان جسده ـ وقد حل به الانهاك بعد ما ابدى من دلائل قوة الارادة ـ أخذ يسترد نشاطه لبذل مجهود نهائي حاسم . فكثيرا ما كان يستغرق في النوم اثناء أدائه الواجب المنزلى . وكثيرا ما كان يستسلم لنوبات الشرود في المدرسة مما يجعل أصوات الاساتذة تبدو له وكأنها تدور من حوله في سكون مستمر خاو كصوت حاك مكسور لا يفتأ يردد نفس العبارة الى مالانهاية . ومالبث الشتاء أن عاد سيرته الاولى بعد بضعة أيام جميلة ولم يكد بعد ذلك ينقطع المطر الذى كان يبدو قاتما أسود اللون وهو يسقط من سماء حالكة الظلمة وكأنه قد خلط بالطين ناشرا الظلام فى كل مكان مما حبب الى لوقا ان ينطوى على نفسه ويستغرق فى النوم الى الأبد . وكان أحيانا اثناء أدائه دروسه يرفع عينيه تجاه النافذة حيث يخيل له ان السماء تصفو رويدا رويدا فيستغرق من جديد فى عمله وبعد مضى نصف الساعة يشخص اليها ببصره مرة اخرى فتأخذه الدهشة لمنظر المطر الرمادى الغزير وهو يتدفق فى موجات ساكنة على زجاج النافذه . كانت السماء أشبه بشخص يبكى من حزن عميق لايكاد يبدو بين آونة واخرى أنه قد هدأ قليلا وصفا بعض الشيء حتى ينتابه الحزن من جديد وتنهمر الدموع من عينيه فى غزارة وعنف لم يسبق لهما مثيل . ولشد ما كان يحب تلك الساعة التى تفصل النهار عن الليل حين يروقه ان يجلس متكئا الى منضدته امام النافذه التى يتدفق عليها المطر فى خطوط وهو يكره نفسه على القراءة او الكتابة وسط الظلمة الزاحفة حتى تأتى فى أوائل الشتاء تلك اللحظة التى يسقط فيها ضوء الشفق على صفحة كتابه على شكل غبار غير محسوس عندئذ ينهض عن المائدة ويذهب ليرتمى على الفراش حيث لايلبث أن ينام فى الحال دون ان يتم واجبه .

حينئذ كان لوقا قد شرع فى تنفيذ آخر جزء من خطته ـ الموت الجسمانى . ولكنه بدأ تلك التجربة على غير وعى منه وعلى صورة غير مباشرة وذلك بملاحظة نهمه في تناول الطعام لكى يصل بالتالى الى قراره بقمعه تماما كما قمع من قبل كبرياءه فى العمل بالمدرسة وتعلقه بممتلكاته . كان لا يفتأ يستمتع

بتناول الطعام وخاصة فى وقت الغداء عند عودته من المدرسة . فقد كان يبدو حينئذ وهو ينقض على الطعام فى شراهة كأنه يقر بكامل كيانه كل ما أداه من أعمال وكل ما كان عليه قبل جلوسه الى المائده . وفضلا عن ذلك فقد كان بغض النظر عن الشـــهية كما يحدث دائما يؤثر الوانا من الطعام بعينها كالحلوى والكعك ولذا فانه عند تشغيل جهاز « لعبتـــه » المعتادة حرص عـــلى ألا يأكل سوى كمية صغيرة من ألوان الطعام العادية وأن يتجنب تماما كل الالوان التى يؤثرها على غيرها .. ففى أول الامـــر أنقص من طعامه ربع الكمية التى يتناولها ثم خفضها الى النصف وكان ينهض عن المائدة جائعا ولكن ذلك الاحساس كان لايلبث أن يختفى .. حقا انه كان يعاوده مرة أخرى قرب المساء ولكنه حينئذ كان يحاول أن ينام وينجح بذلك فى اسكات جوعه .. وعلى أية حال فقد بدا له أنه كلما قلل من كمية طعامه صـــار النوم أيسر منالا .. وخيل له حينئذ أن الموت له قواعد شأنه فى ذلك شـــأن الحياة .. فان كانت الحيـــاة تعنى التحمس لدروسه وحبه لوالديه وادخاره للنقود وتعلقه بممتلكاته وتناوله الطعام فان المـــوت بالتالى يعنى بلا ريب الامتنـــاع عن الطعام والتخلص من كل حب للاشياء والناس كمـــا كان يعنى النوم قبل كل شيء .

ولم يبد أن والديه قد لاحظا فقدانه الغريب لشهيته .. أو الاحرى أنهمـــا ربما لاحظـــاه فعلا ـ كما خيل له ـ ولكنهما لم يعلقا عليه أهمية ما لتعودهما على تقلب أهوائه فيمـــا يخص الطعام وكثيرا ما كان يحدث ذلك .. ومع هذا فان والدته قالت له يوما ما فى لهجة صارمة ـ لم لاتأكل ؟ .. ففى مثل سنك يحتاج جسمك الى الغذاء .. ينبغى ان ترغم نفسك على تناول الطعام حتى وان كنت لاتشعر بالجوع .. فان لم تأكل فكيف يمكنك أن تؤدى دروسك ؟ .. فحدث لوقا نفســـه قائلا فى سرور : نعم .. كيف يمكننى أن أؤدى دروسى ؟ .. كان يسر لاعتقاده أن والديه لايدوران بخلدهما قط أنه يمتنع عمدا عـــن الطعام بغض النظر عن شهيته التى كانت لا تفتأ تحفزه عـــلى تناول الغذاء .. ولقد أدرك فى الحال أن من بين جميع أشكال

التمرد كان الامتناع عن الطعام اخطرها طرا وأكثرها أهمية .. فلشـد مايدمر هـذا التمرد السـلطة الابوية .. اذ أن ابويه ما وجدا الا ليطعماه .. فقد ارضعته أمه اللبن من ثديهـا .. وكان أبوه في كل صـباح يغادر المنزل بحثا عن النقود التي يعوله بها كما يفعل الصياد البدائى الذى يترك كهفه عندالفجر مسلحا بقوس وسهم ليقتل حيوانا يطعم به اسرته .. انه يبلغ الحد الاقصى للتمرد وأنه وصل الى جو قليل الكثافة تعسرت فيه لعبته واشتدت خطورتهـا .. كان أبواه يريدان منه أن يأكل حتى يقوى ويعيش .. أما هو فقد استحوذ عليه احساس بالثورة العارمة فعاف الطعام ورغب فى المـوت .. وكـانت اللعبة لاتزال مستمرة .. ولكنه كان عاجزا تماما عند التكهن بمدى قدرته على متابعتها وذلك لان الموت لم يبد له بعد هدفـا محددا مع ان كل عمل من أعماله كان يؤدى اليه .

وذات يوم وضعه والده في موقف حرج لا بمناشدة شـهيته بل بمناشدة شعور أعمق كان لايدرى أنه يكنه فى نفسـه .. وكانت قد مضت فترة وجيزة على انقاصه كمية الطعـام التى يتناولها .. ولكنه كان من الواضح أن والديه لايعلقان أهمية كبيرة على فقدانه الشـهية .. يومئذ لاحظ لوقا وجود حزمة بيضاء الى جانب صحفة والده .. وعندما انتهى الغداء رأى والده يتناول الحزمة ويحل وثاقها فى مهابة .

وكانت تحوى كعكة من ذلك الصنف الذى لشد ما كان يهواه لوقا فى وقت من الاوقات .. ونحى أبوه الورقة والخيط جانبا ثم وضع الكعكة على احدى الصحاف قائلا بصوته البطىء الذى ينبىء بالطيبة « لقد ابتعت كعكة .. كنت مارا بمحل الحلوى فعرجت عليه واشتريتها .. لاريب انها ممتازة »

فقالت الأم : ان كنت قد ابتعتها لى فأنت تعلم تمـاما اننى لا أحب الكعك .

فقال الاب : الواقع أننى اشتريتها للوقا .. فانه كان يؤثرها فى وقت من الاوقات .. ولكنه ربمـا ـ ثم غمز بعينـه غمـزة مدركة ، وأردف قائلا : ربما تغيرت آراؤه الآن وقد كبر ..

وفيما هو يتكلم دفع الصفحة تجاه لوقا .

فقال لوقا خافضا عينه ــ لم أعد احس بالجوع ٠
فقال له أبوه : هيا ٠٠ لابد انهناك حيزا صغيرا يتسع لها ٠
كان يتكلم دائما بلهجة متوســلة ٠٠ ولكن صــوته الذى لاتفارقه مطلقا نبرة التوسل بدا للوقا يومئذ وكأنه على عــلم بشىء ٠٠ وأعاد لوقا كلامه قائلا :

ــ كلا حقا ، فأنا لست جائعا ٠٠

فردد والده حديثه قائلا :

ــ هيا ٠٠ هيا ٠٠ هيا يالوقا ٠٠ خذ منها قطعة صغيرة ٠٠

وأضاف قائلا فى لهجة مازحة :

ــ وعلى أية حال فلتأكل منها ما يكفى فقط لارضاء أبيك ٠٠

ثم تحول نحو زوجته وهو يختتم حديثه قائلا :

ــ أتذكرين أنه ماكان عليك الا ان تقولى له هذا ليأكل عندما كان طفلا ؟ ٠

فقالت الام :

ــ دعه وشأنه ٠٠ فان لم يكن جائعا الان فسوف يأكلها هذا المساء أو غدا ٠٠ فهى لاتفسد ٠

ولكن لوقا بدا له ان والده ــ وهو يتوسل اليه بهذه الطريقة ٠٠ كان لايقول له كل ٠٠ بل ٠٠ عش ٠٠ وأحس فى الحال بالحب له والرثاء لنفسه فى الوقت ذاته ٠٠ وخيل له أنوالده لاريب قد خمن سره لاعن طريق ذكائه الذى لم يكن معدا لمثل هذه الامور بل عن طــريق ما فى نفســه من الخير ــ ذلك الخير نفســـه الذى جعلـــه فى وقت من الاوقات يبدو كاملا معبودا والذى بدا لعينى لوقا على الرغم من الاحداث التى أزالت عنــه الوهم أنه مابرح يحتفظ ببعض اثاره ٠٠ واجتاحه اغراء قــوى بقبول الكعكة والتهامها وبقبول الحياة معها ٠٠ ولكنه ادرك فى نفس اللحظة أن قبوله الحياة فى صورة قطعة من الكعك حتى ولو كان أبوه هو الذى يقدمها اليه بما أوتى من خير يصير فى نظره سقطة تعسة بعد ما حطم حياته المدرسية وبعد ما تخلص من كل ماكانت تهواه نفسه ٠٠ فجز على نواجذه وطأطأ رأســه فوق صحفته وسمع أباه يلح قائلا له :

ــ حسنا ؟ ٠٠ الا تريد شيئا منها حقا ؟

فردد لوقا قائلا : لست جائعا .

وجلس فى سكون تام حانى الرأس .

وساد الصمت لحظة .. ثم قال أبوه دون ان يظهر عليه ماذا كان رفض لوقا قد كدره فعلا : لقد ابتعتها خصيصا لك .. ولذلك فسأضعها لك على البوفيه .. وعندما تهفو نفسك اليها وتطمئن الى غيبة الرقباء فستأكلها أليس كذلك ؟ .

وأحس لوقا فى نفس اللحظة بلمسة من يده على وجنته .. فسرت فى بدنه القشعريرة .

وترك هذا الحادث فى نفسه احساسا بالالم العميق .. اذن فانه مازال موثوقا لابقيود لم يتخلص منها بعد بل بأشياء كان يخيل له أنه قد حطمها الى الابد كحبه البنوى .. ومنذ ذلك اليوم فصاعدا اشتدت فى نفسه اكثر من ذى قبل رغبته فى اعتزال الحياة .

- ٧ -

حينئذ مرضت احدى خالاته ولكى يوفر لها الهدوء التام اتفقت الاسرتان على أن يقضى أطفالها نهارهم في منزل خالتهم وكانوا فتاتين توأمين وغلاما صغيرا يناهز الثامنة من عمره وفى صحبتهم مربيتهم وهى امرأة عزب من أسرة طيبة كانت تعمل من قبل مدرسة للغة الفرنسية .. وكانت تناهز الخامسة والثلاثين من عمرها .. وربما زاد من ضآلة قوامها ذلك التفاوت بين كتفيها الضامرتين وبين رأسها الكبير يعلوه عقيصة شعرها .. لم تكن جميلة بل كانت عيناها البليدتان الخاليتان من كل تعبير فى مستوى وجهها وكان السواد لايفتأ يظللهما فتبدوان وكأنهما مكدومتان .. كما كان الزغب الاسود يظلل وجنتيها المتقعتين المترهلتين الى حد ما وفمها البارز المسترخى .. ولكن حيويتها الخارجة عن المألوف وشخصيتها المرحة كانتا تعوضان الى حد ما عن مظهرها العليل وافتقارها الى الجاذبية .. فلم يبد فقط أنها تؤدى فى اقبال تام واجبها الحقير الممل كمربية للاطفال بل كانت باللهو مع تلاميذها الثلاثة تبدو وكأنها هى نفسها طفلة مثلهم .. كما كانت بوضع نفسها على قدم المساواة معهم تضفى على ذلك العمل شيئا من حماسها

الهوائى حتى أنها كانت تتشاجر معهم احيانا أو تنخرط فعلا فى نوبة من البكاء اذا ما تطاول عليها أحدهم ·· ولشد ما تناقضت تلك الطفولة مع ما يبدو عليها من شهوانية مكبوتة لاتتناسب الا مع المرأة ناضجة بلا شك · وتتضح هذه الشهوانية فيما يعلو عينيها من ارهاق وفيما تتميز به يدها من جمال مثير الى حد ما وفى رقة حقويها ·· وكانت لاتنقطع عن الثرثرة بصوت صارخ واضح تتخلله حدة شكسة ·· وكثيرا ماكانت تتخلل حديثها نوبات من الضحك ذى الرنين الفضى · وقد خصصت لها وللاطفال غرفة الجلوس المجاورة لغرفة لوقا مما أضاف الى خموله والى رؤاه العقيمة وسيلة جديدة هى ضوضاء الاطفال الثلاثة مع مربيتهم لتشتيت ذهنه عن العمل ·

وفى الصباح كانت المربية تصحب الاطفال فى نزهة الى الحدائق العامة ·· أما فى ساعات القيلولة فكانت تحتبس معهم فى غرفة الجلوس الصغيرة ·· ومنذ تلك اللحظة فصاعدا لاتنقطع الضوضاء حتى المساء ·· وكانت صرخات الاطفال وهم يركضون هنا وهناك طيلة المساء تبلغ سمع لوقا من غرفة الجلوس المجاورة وهو جالس الى منضدته يثقل رأسه خموله المعهود كما يبلغ سمعه صياح المرأة وهى تجرى معهم فى اضطراب وحيوية لانهاية لهما ولايتطرق اليهما التعب ·· ولشد ما كان سكونه يبدو كئيبا ثقيلا لتناقضه مع مرحهم ·· وكان يجفل من حين لاخر عند سماعه الاصوات الغامضة لارتطام الاشياء كانقلاب قطع الاثاث وسقوط الاجسام على الارض ثم يعقب ذلك ضحك مرح مكتوم ·· أو يسمع المربية وهى ترفع صوتها عاليا بوضوح فى سطوة عابثة محذرة الأطفال من الضوضاء التى لاتلبث بعد فترة صمت وجيزة ان تنفجر من جديد أكثر دويا وتركيزا من اى وقت مضى · كان الأطفال بطبيعتهم صاخبين وكانت المرأة الشابة تستثير صخبهم بسرعة بديهتها وحيوية مزاجها · وكانت المربية احيانا عندما تبلغ الضجة ذروتها تفتح باب غرفة لوقا دافسة رأسها الى الداخل وهى تسأله بطريقة هى مزيج من الادراك والرياء عما ان كانوا

يزعجونه .. كان سؤالا عقيما لامعنى له وقد بدا انه لايعدو أن يكون جزءا من خطة عامة وضعت للحيلولة بينه وبين العمل .. فيجيبها لوقا دون أن يستدير نحوها بأن الامر لايهم وانهم في حل من أن يحدثوا ما شاءوا من ضوضاء .. فلم يكن متحمسا قط للعمل .. وكان هذا النشاط الطفولى ذريعة اخرى لتجنبه .

ولكنه كان احيانا تكاد تراوده الرغبة في مشاركتهم لهوهم الذى لشد ما تنوع ولشد ما اختلف عن « لعبته » الحزينة التى لم يكن يشاركه فيها أحد .. فينهض عن المنضدة ويفتح باب غرفة الجلوس حيث يتطلع الى الداخل . وعندئذ يقع بصره على مشهد من الفوضى والمرح الطفولى ـ فيرى مقاعد مقلوبة وموائد نحيت جانبا كما يرى المربية وهى تمشى على أربع فوق السجادة وقد اعتلى ظهرها أحد الاطفال فيقف مشدوها فى مدخل الباب وهو يراقبهم بينما يواصلون هم لهوهم وكأنه لاوجود له .. وبينما كانت المربية تدور هنا وهناك على الارض زاحفة على يديها وركبتيها وقد اعتلى ظهرها الفارس الصغير اذ بها تتطلع اليه بوجه ضاحك من تحت شعرها الاشعث الذى تهدل فوق انفها وتسأله بطريقتها المعهودة عما ان كانوا يزعجونه دون قصد .. فيجيبها لوقا قائلا فى ارتباك :

ـ كلا .. كلا .. استمروا .. انى ألقى نظرة فحسب .. طلبا للراحة ..

ولكن المربية لم تعدتنصت اليه .. وبهزة قوية من جسدها تتخلص من فارسها الذى يتدحرج ضاحكا على الارض .. ثم تنهض واقفة وقد تغضن ثوبها واضطرب هندامها معلنة فى صوت ذى سطوة : «والآن فلتنصتوا جميعا الى . . فسوف تبدأ لعبة مختلفة تماما .. ولكن انصتوا الى فلن أعيدشرحها» .

وأحس لوقا بميل نحو المربية لانها بدت شفوقا مرحة بسيطة .. ولشد ماكانت تختلف عن أمه التى ماكان يمكن قط ان تحلم باللهو مع الاطفال على هذه الصورة رغم امتلاء ذهنها بالنظريات التربوية الجامدة .. وجاء يوم أحس فيه لوقا بميله هذا وقد تعقد فجأة بشعور من نوع اخر .. فقد حدث ذات

مساء أن لاحظ لوقا على الرغم منه بينما كان يراقبها وهى تدور عبر الغرفة تارةالى اليمين وتارة الى اليسار وقد اعتلى ظهرها الغلام الصغير استدارة اردافها التي ارتفعت في الهواء عـلى صورة حيوانية .. وما ان اتت حركة وهى تستدير نحوه حتى شدت عينيه رغم ارادته تقريبا الى صدرها الذى كان وهى فى وضعها هذا واضحا تماما للعيان من خلال فتحة سترتها كما وضحت الحدود الخارجية الكاملة لثدييها الرقيقين ببياضهما الناصع . وقد تدلى هذان الثديان تماما كثديى الحيوان وأخذا يتأرجحان مع كل حركة تصدر منها .. ولم يستطع لوقا مطلقا أن يحول عنهما بصره رغمأنه كانيحدث نفسه قائلا انه من التهورالشديد أن يركز عليها عينيه .. وعندئذ رفعت وجهها نحوه فالتقت عيناها بنظرته فى صراحة وبحركة غريزية رفعت يدها الى صدرها .. ولكن بدا ان خاطرا ما طرأ فجأة على ذهنها فأوقف حركتها الاولى التلقائية المتواضعة .. ولم تزد على أن أرقدت شعرها الى الخلف ثم واصلت عرضها عبر الغرفة صائحة ضاحكة .. وما ان لاحظ لوقا هذه الحركة حتى تأكد أنها قد غيرت منها وعدلتها على سبيل الدلال فأحس فى الحال باضطراب عميق .. عندئذ كانت متجهة صوب ركن بعيد من الغرفة وهى مازالت تمشى على أربع بينما كان لوقا يراقبها وقد اعتلى ظهرها هذا الفارس الصغير ولاول مرة لم يسعه الا ان يستنكر تصرف الصبى وهو يصفعها بيديه على أردافها معتليا ظهرها تماما كما يصفع الحصان على ثغره .. ولعلها لاحظت نظرته تلك فقد هزت اردافها فجأة على صورة بدت له مثيرة . ولكن هذه الحركة جعلت الطفل يتدحرج على الارض .. وارتطم رأسه بزاوية الخزانة فانفجر باكيا .. وسرعان ماتحولت على الفور من حيوان الى امرأة فنهضت واقفة وأمسكت بيد الطفل ثم قادته الى أسفل المصباح وهى تسأله عن موضع اصابته . وعاد لوقا الى غرفته .

وفي خلال الايام التالية لاحظ أنه أكثر من نهوضه عن المنضدة متذرعا بحجة أو أخرى أو بدون حجة على الاطلاق ليتجه الى باب غرفة الجلوس حيث يتطلع الى الداخل .. وكان

يتمنى لو اختلق اكذوبة يخفى بها حقيقة انجذابه ـ ارضاء لنفسه قبل ان يكون ذلك ارضاء للمرأة التى خيل له أنها مسرورة لفضوله ‥ ولكنه لم يكن الكذب على نفسه ليس من عادته فلم يمكنه أن يفعل ذلك ‥ واعترف أمام نفسه فى صراحة تامة أنه كان يتطلع الى الداخل عند باب غرفة الجلوس ليرى المربية ‥ وأنه عندئذ كان يأمل أن يراها مرة أخرى فى ذلك الوضع الحيوانى نفسه وهى تزحف عـى اربع وقد ارتفع ردفاها فى الهواء وتدلى ثدياها فى اهتزاز ‥ ومع ذلك فقد كان الاحساس بلذة ما فى نظر لوقا وقتئذ معناه كراهيته اياه فى الحال ‥ ولذا فانه سرعان ما كرس جهوده لتحطيم هذا القيد الجديد بنفس الحماس الذى راوده وهو يقوم بتضحيته بكتبه ونقوده وبالقضاء على حياته المدرسية ٠

وحاول فى أول الامر ان يسيطر على نفسه وينحى عنها الرغبة ‥ ولكنه سرعان مالاحظ بعد مقاومته اياها تسع مرات أنه قضى على كل ماحققه من نجاح بذهابه فى المرة العاشرة وتطلعه الى الداخل عند باب غرفة الجلوس على طريقة أكثر وضوحا وارتباكا مما تعود أن يفعل ‥ وعندئذ جرب بغريزته طريقة أخرى ‥ فكان يذهب الى هناك ويتطلع الى الداخل ماشاء له ذلك ولكنه سعى الى تغيير طبيعة متعته بمراقبة المرأة فى دقة ٠ فقد كانت متعته فى أول الامر أصيلة رغم اختلاسها ـ مرحة غير مبالية شأن من أوحى بها رغم تحريمها ‥ أما الان فكان هدفه أن يدخل فيها نكهة جديدة وهى النفور البدنى والادبى ـ فاستغل على غير وعى منه نفس الدهاء الذى انتفع به فى حالتى النقود والكتب ـ ذلك أنه أحبهما وأفرط فى حبهما حتى وفق الى اكتشاف مرارة الشبع المقيتة والعبودية الضارة المؤذية فى أعماق هذا الحب الحلو اللذيذ ‥ ولشد ما ساعدته هذه المرارة على التخلص منهما ‥ وهكذا فانه بتطلعه الى المرأة فى غير ما تحفظ ـ تحدوه قسوة أحس أنها لاتجد مطلقا مايبررها وأنها أشد بأسا منها فى أى وقت مضى ـ انما كان يسعى الى الوقوف على مايشوب هذه المتعة الجديدة ‥ ولكنه على خلاف ماحدث فى حالتى الكتب والنقود ما ان وقف عندئذ على مايشوبها حتى

اكتشف لدهشته أن القيد بدلا من أن ينفصم زاد فى الواقـع قوة ووثوقا .

وقد انحصرت هذه الشائبة بصفة رئيسية فى طبيعة تأملـه المحرمة المختلسـة غير المشروعـة كما أحس بذلك منذ البداية ولكنه لم يعلق عليها أهمية كبيرة .. غير أن المتعة التى كـان يستمدها من تأمله ربما لم تزل أقوى مبرر لتصميمه على التخلى عنها .. لم تكن جميلة كما أدرك ذلك على الفور .. وقد خيل له فى أول الامر ان تجردها من الجمال قد يخلصه بسهولة من قيوده الجديدة ـ ذلك الجمال الذى لو وجد لكان من المحتمل ان يخلق عـلى صورة ما توازنا مع رغبته المكبوتة عـن طـريق مجاهرته باعجابه البرىء الخالى من الغرض .. فكيف يمكنـه فى الواقع أن يعجب بساقيها القصيرتين البدينتين اللتين كانتا عند ممارستها لعبة العدو فى ارجاء الغرفة تبدوان للعيان حتى فخذيها المضيئتين البيضاوين الباردتين فوق جوربيها المتدليين ؟ كيف يمكنه أن يعجب بثدييها الرقيقين المتدلين ؟ وأردافهـا الكبيرة التى لاتتناسب مطلقا مع هيكلها . كما كانت عند وقوفها تبدو منبعجة وكأن ثيابها فى هذا الوضع لاتسـتر جـزءا من جسدها بل صرة ثقيلة لاشكل لها ؟ .. وأحس بنوع من الراحة لهذه الخواطر .. فقد كانت قبيحة المنظر حقا وقد فارقهـا شبابها وأخذ جسدها يترهل فعلا .. وكان يأمل ان يضـيف قبحهـا وذبولها وترهلها عنصر النفور الى متعته وهو ما كـان يحدث بالفعل فينتهى الامر بكبح جماحها والوقوف دون تقدمها .. ولكن هذا لم يدم طويلا .. فما كاد يتأملها لوقا مرة اخرى وكان يخيل له عندئذ أنه يمكنه ان يفعل ذلك دون ان يراوده الاضطراب حتى اكتشف أنها كانت تجذبه اليها بطريقة غامضة لالسبب الا لترهلها وقبحها وعريها من الشباب .. لاشك ان متعته كانت لاتزال تحتفظ بنكهة النفور المرير التى شاء عمـدا أن يضيفها اليها .. ولكنه لم يعد نفورا بل الاحرى انه اصبح سببا جديدا أكثر اثارة من أسباب جاذبيتها .. ولم يسـعه الا أن يرى ان كل ذلك قد حدث دون ان يلاحظه بطريقة أشبه بالتحول الكيميائى فى أعمق أغوار الغريزة .. كما أدرك أيضا

أنه لو تمكن بمعجزة ما من أن يهبها الشباب والجمال لكان من المحتمل الا يحس نحوها بهذه الرغبة القوية ·· وهكذا فقد أثبتت رغبة حواسه أنها أقوى من رغبته في الموت ·· أما وقد صار القبح جذابا فقد اعاده ذلك على الرغم منه الى الحياة التى لشد ماكان يرغب فى اعتزالها ·

ودفعه هذا الاكتشاف الى اليأس . كما أدرك أن هذه النظرات المشتاقة الى أرداف المرأة وصدرها ان كانت خليقة بتقويض ذلك الصرح الشامخ الشاق الذى شيدته تضحياته فأنها بالطبع لا تكفى لان تجعله يحيا على صورة ايجابية . وخيل له عندئذ أن الوقت قد فات وأنه قد فصم الخيوط التى كانت تشده الى الحياة . من المستحيل عليه الآن أن يبدأ الحياة من جديد . فكيف يمكن أن تكون الحياة بلا عواطف أو التزامات والا يدعمها شيء سوى بضع لحظات من الشهوة المختلسة ؟

وعندئذ كانت المرأة نفسها هى البادئة وكأنها قد تكهنت بما كان يدور بخلده . فأصبحت الآن تقتحم غرفة لوقا ساحبة خلفها أحد الاطفال حيث تتهاوى الى الخلف على الفراش رافعة ساقيها فى الهواء أثناء مبارياتهم المرحة المألوفة فى المصارعة . كما أصبحت تأتى مستطلعة عند باب غرفته لتعتذر عن ضوضائهم عندما تبلغ ذروتها . كانت تأتى هذه الاعمال فى وقاحة صاخبة ضاحكة مازحة ولكنها بدت فى نظر لوقا أنها لم تعد تلقائية كما كانت من قبل . ثم اخترعت « لعبة » جديدة كان يتحتم فيها أن يغادر أحد اللاعبين غرفة الجلوس فترة وجيزة ·· وبدلا من أن تذهب الى الدهليز قصدت الى غرفة لوقا متعللة ببرودة الدهليز . وتركت الباب مواربا واقتربت منه دون أن تحدث ضجة ما . وفجأة مالت فوق كتفه فتلامست وجنتاهما وقالت له :

ـــ « ماذا تدرس ؟ اللاتينية ؟ »

ـــ « كلا . الفرنسية . »

« كنت اقـــوم بتدريس الفرنســـــية .. دعنى أرى ماذا تقرأ .... « كورناى ــ Corneille ؟ »[1]

وبدا صـــوتها فى أذنى لوقا خاليـا من التعبير، ـــلى صورة غريبة على الرغم من مرحه . وعنـــدما استدار قليلا ليجيبها وجد وجهها يوشك أن يلامس وجهه كما وجد عينيها الكبيرتين المستويتين تنعمان النظر اليه وقد ارتسمت فيهما ابتسامة . ولاحظ لوقا أن وجنتيها كانتا غائرتين قليلا وقد علاهما شيء من المسحوق الاحمر وأنهما كانتا تلمعان تحت ذرات المسحوق كما لاحظ أيضا أن هذه الســـمة الدقيقة كانت كالعادة تروقه لانها تنفره . وربما أحست أن نظرته كانت ثاقبة على صورة قاسية . اذ أنها قالت له ضاحكة ــ « استمر فى عملك ! » ثم دارت عـــــلى عقبيها وانطلقت نحو الباب . وسمعها تصيح قائلة ــ « أيمكننى الدخول الآن ؟ » فصاح الأطفال مستجيبين لطلبها ثم اختفت .

وفى اليوم التالى لم تكد تأخذه سنة من النوم على الفراش حتى أحس فجأة أثناء نعاسه المضطرب بثلاثة أجسام متحركة متماســـــكة تسقط فوقه بعنف بغيض . لقد جـــاءت المربية وتلاميذها الثلاثة وارتموا فوقه أثناء مطاردتهم بعضهم البعض دون أن يخلو ذلك من بعض التعمد . وأخـــذ الأطفال الثلاثة والمرأة يتصارعون معا ضاحكين صائحين كما أشـــترك لوقا أيضا فى هذا الصراع ليخلص نفسه . ولكنه لاحظ انه كان على الرغم منه تقريبا وقـــد اشتبكت يداه فى هـــذا الصراع ينشد بغريزته جسد المرأة كما بدا له أنها بدورها كانت تنشده هو فى الوقت الذى أخذ فيه الأطفال يتصارعون بكل ما أوتوا من عنف واندفاع كما أنها بدلا من أن تحاول تخليص نفسها بدت راغبة فى اطالة العراك . وعندما أتت حركة لتخلص نفسها من الاطفال وجد لوقا نفسه راقدا عـــلى الفراش ، وقد امتدت على وجهه احدى ساقيها . وعندئذ تأكد لديه أنها فعلت ذلك عمدا . كانت ربلة ساقها ترتفع ثم تهبط عـــــلى فمه كهراوة رشيقة من اللحم الخفيف اللين وكانت شفتاه تحسان عند كل حركة من ساقها باختلاج عضلاتها التى شـــدتها حتى لاتصيبه

---

١ ــ كورناى (١٦٠٦ ــ ١٦٨٤) شاعر وكاتب مسرحي فرنسي .

بأذى . وأخيرا وثبت من الفراش صـــائحة ـ « أنصتوا جميعا ! يكفى هذا الآن .. وقد فكرت الآن فى لعبة جديدة » .

فهدأ الاطفال فى الحال وقالت المربية ـ « والآن هذه هى اللعبة . سـنطفىء جميع الأضواء ثم نجـرى قرعة .. وسيختبىء الجميع عدا شخص واحـــد عليه أن يبحث عن الباقين فى الظلام ويتعرف عليهم .. ولكنه يجب أن يخمن من يكون الشخص الآخر فى الظلام عن طريق اللمس فقط .. دون ان يتحدث اليه » ثم اردفت قائلة وهى تسـتدير نحو لوقـا «وبالطبع يجب أن نطفىء الضوء فى غرفتك انت أيضا .. كما أرجو اذا كنت لا تمل اللعب مع الأطفال أن تأتى وتلعب معنا هذه المرة فحسب » .

فقال لوقا وهو يسـوى الى الخلف شـعره الأشعث « حسنا » واختتمت المربية حـديثها قائلة : اياكم ان يحتبس أحدكم فى مكان .. كما يحظر الاختفاء فى خزائن الملابس .

فسألها الغلام الصغير قائلا : « وهل يمكننـا أن نختبىء تحت الأسرة ؟ »

ـ « تحت الاسرة ؟ .. نعم لامانع من ذلك » .

وغادر الجميع غرفة لوقا عائدين الى غرفة الجلوس حيث دونت المربية أسماءهم على قصاصات صـغيرة من الورق وخلطتها جميعا ثم أمرت احدى التوأمين بسـحب القرعة .. وأعلنت قـائلة وهى تفض الورقة ـ « لوقا ! » ورأى لوقا أطفال خالته ينظرون اليه فى حسد . ثم قالت المربية ـ « يجب أن تبقى هنا فى هذه الغرفة بينما نذهب نحن لنختبىء . »

فأومأ لوقا برأسه موافقا واتجه الى مقعد كبير جلس فيـه بالقرب من المدفأة .

خرجت هى والأطفال بعد أن أطفأت ضوء غرفة الجلوس وضوء الدهليز أيضا . وكان لوقا ينصت بانتباه وهو جالس فى الظلام فأمكنه أن يسـمع وقع خطى تغدو وتروح وأبوابا تفتح وهمسات وضحكات مكتومة وأصوات صرير وارتطام . ولشد ما استغرقت اللعبة انتباهه عندئذ فأخذ يحاول أن يتبين أين كان يختبىء الباقون . وبين الحين والحين كانت تمر

www.library4arab.com/vb

فى الطريق سيارة ما فتلقى على الحائط مستطيلا من خطوط الضوء كان يتجه فى بطء نحو السقف ثم يختفى . فيلمح برهة الغرفة بأسرها فى ضوء الشفق المخطط بنور ساطع . وحدث فى احدى لحظات الاضـــاءة المتقطعة أن لمح شـــبحا واقفا باعتدال فى احـــد أركان الغرفة وكان ذلك فى الفراغ الكائن بين رف الكتب وخزانة الخزف فأدرك أنه شبح المربية . ولشد ما ظن بها الدهاء والمكر لاختفائها فعلا فى غرفة الجلوس التى كانت اخر مكان يخطر بباله لا لسبب الا لانه اكثرها وضوحا ، ومالبث أن قرر بعـــد لحظة من التفكير أن يتظاهر بالبحث الدقيق عنها فى الدهليز فى حين أنه كان فى الحقيقة لا يبحث عنها مطلقا . ثم يذهب رأسا بعد ذلك الى الركن الذى تختبىء فيه هاتفا باسمها فى صوت عال . وقد سره هذا القرار . فبهذه الطريقة سوف يظهر انه اكثر منها دهـــاء . وفى تلك الاثناء انبعث من الظلام صوت فضى لاحدى التوأمين معلنا .. « نحن على استعداد .. ويمكنك أن تبدأ »

فعبر غرفة الجلوس وخرج الى الردهة وهـو يتحســـس طريقه فى حرص ولكن فى سرعة .. وهناك وقف منصـــتا ، لم يشأ ان يخاطر بالعثور على احد اطفال خالتـــه . وبايثاره العثور على المربية أحس لاول مرة بنيته التى لم يكن لها شأن باللعبة ــ فاتجه الى حمالة المظلات وتظـــاهر بالتفتيش بين العصى والمظلات .. وبلغ سمعه من بعيد صوت صبيانى خافت يردد قائلا ــ « أنت بارد .. بارد .. » وابتعد لوقا بضـــع خطوات متعثرا عن عمد بقائمة احد المقاعد ثم عاد الى غرفـــة الجلوس متجها بذراعيه الممدوتين صوب الركن الذى كانت تقف فيه المربية . كان فى نيته ان يثب عليها ويمسك بها ثم يصيح قائلا فى الحال ــ « السنيورينا » The signorina ، ولكنه فى اللحظة الاخيرة بدا له دون ان يخلو ذلك من بعض الرياء انه بهذا سوف ينهى اللعبة بأسرع مما ينبغى . وذلك لان ثمة جزءا غير قليل الاهمية من اللعبـــة كان ينحصر فى أن يتحسس بعناية وجه الشخص الذى يمسك به قبل أن يتعرف عليه نهائيا . وعندئذ كان قد بلغ ذلك الركن من الغرفة فمد

يديه فى الفضاء وما لبثت اصابعه ان لامست فى الحال المعالم الخارجية لوجنتها • فلم تتحرك أو تتنفس ، مما دل على أنها كانت تقوم بدورها فى اللعبة • وجالت اصابعه حول وجنتها ثم هبطت الى ذقنها تجاه عنقها • ولكنه ما كاد يلمس عندئذ غمازة ذقنها حتى ادرك فجأة ان لعبة اخرى قد حلت محل الاولى وان هذه اللعبة لم تكن فى الحقيقة لعبة على الاطلاق بل تلك الرغبة المعهودة التى كانت تدفعه كل يوم الى مغادرة منضدته والتطلع الى داخل غرفة الجلوس • وما ان خطر له ذلك حتى تولاه شعور قوى بالاضطراب ذهب بأنفاسه وألهب وجهه • وفى نفس الوقت ظل يتحسس وجهها بأصابعه وكأنه يتعذر عليه ان يتعرف عليها • ولشد ما أحس عندئذ بنفاقه •

وكان يجد متعة فى دغدغة وجنتيها رغم ما يحسه فيها من الترهل الى حد ما • بل الواقع انه يجد المتعة لهذا السبب بعينه تماما كما كان يطيب له فضلا عن ذلك الشعور المشترك بالاثم الذى يضمهما معا رغم احساسه بما فيه من نذالة الى حدما •• وهكذا فقد تذكر مرة اخرى ان النفور الذى كان يراوده نحوها لم يكن له من اثر الا تقوية رغبته وزيادة تعقيدها كالنار يغذيها الماء الذى ينبغى ان يطفئها • ثم تابع بأصابعه الشكل الخارجى لفمها فكان تارة يحس تحت انامله بذلك الزغب الذى يظلل شفتيها وهو يقاوم اصابعه فى رقة وتارة بما فى مساحيق زينتها الشحمة من لزوجة • كما كان هذا التلامس محببا وبغيضا فى نفس الوقت • ثم هبطت اصابعه عن وجهها الى عنقها وتذكر لوقا ان ثمة طيات ثلاثا صغيرة كالقلائد كانت تعلو عنقها مما جعله يبدو ضامرا هزيلا • ولم تتحرك فانتقل لوقا من عنقها الى اعلى صدرها • عندئذ ربما ضاقت المربية بدغدغته التى لشد ما تردد فيها ولشد ما حرص فيها على ما تتميز به اللعبة من طبيعة غامضة رغم الظلام ورغم سكوتها المشجع • فأمسكت بيده ووضعتها على صدرها • فأحس لوقا بثديها اللين المستدير الذى بدا تحت ضغطه وكأنه قد تغير شكله كما بدا وكأنه يحاول الافلات من يده التى ضمتها المربية الى صدرها فى جنون • وعندئذ اذا به يهتف قائلا

بحماس فجائى كان وليد احتجاجه الذى طال كبته ـ « السنيورينا ! » فأسقطت يده فى الحال •• وحدثت ضجة شديدة وأضيئت الانوار كما اوقد مصباح غرفة الجلوس مرة اخرى وعاد أطفال خالته الثلاثة فقالت المربية وهى تخرج من ركنها ـ « حسنا فعلت يا لوقا ! لقد عثر على فى الحال تقريبا » • فخاب رجاء الاطفال وأخذوا يتفاخرون بالاماكن العجيبة التى اختبأوا فيها وذلك لكى يعزوا انفسهم عن عدم العثور عليهم • فقال أصغرهم ـ « لقد اختبأت فى الصوان حيث اودعت المكانس •• ولكن رائحة الشمع كانت تفوح هناك حتى اوشكت على العطس • » فأنذرتهم المربية قائلة فى لهجة صارمة « والان لاتخبرونا بالاماكن التى اختبأتم فيها والا انتهت اللعبة فى الحال • »

ولبثوا يتحدثون قليلا عن مفاجآت اللعبة • ثم اعلنت المربية قائله ـ « والآن جاء دورى •• ولكن حذار • فلتخفوا أنفسكم تماما •• وذلك لأننى اعرفكم وسأعثر عليكم فى الحال • » كانت تبدو كعادتها شديدة المرح غير مبالية وقد استغرقت اللعبة انتباهها تماما • ولم يسع لوقا وهو ينظر اليها الا أن يعجب لازدواج شخصيتها الذى بدا وكأنه لا يقتصر على موقفها منه فحسب بل شمل ملابسها ـ سترتها الحريرية البيضاء التى جعلته من خلالها يتحسس ثديها ومع ذلك فلم يبد عليها اقل اثر للتغضن من جراء ذلك العناق العنيف • واضافت قائلة وهى تتجه نحو مفتاح النور ـ « انى ذاهبة الآن لاطفاء الضوء •• فلتركضوا الآن بسرعة ولتختفوا • »

وساد الظلام مرة اخرى • وتردد لوقا لحظة بين اللعبتين • فاما ان يختبىء فى جد كأطفال خالته ـ وهذه هى اللعبة الاولى واما ان ينتظر فى الركن بين رف الكتب وخزانة الخزف الى ان تعثر عليه ـ وهذه هى اللعبة الثانية التى لشد ما انجذب نحوها لأنها كانت تتألف كلها من أشياء بغيضه • وكانت اللعبة الاولى تتلاءم مع لعبته الخاصة الدائمة وتتضمن نبذ هذا القيد الاخير وهو احساسه بالانجذاب وبالنفور البدنى معا مما يشده الى الحياة • اما الثانية فكانت تتضمن قبوله هذا القيد

وبحركة آلية تقريبا انطلق يمشى على أطراف أصابعه صوب الركن الكائن بالقرب من رف الكتب • ومرت سيارة أخرى في الطريق فخططت الجدران والسقف بأشرطة متحركة من الضياء • وتأكد لديه ان المربية لاريب قد رأته اذ انها لم تكن قد غادرت الغرفة بعد •

وحذت حذوه بالضبط ، فخرجت الى الدهليز وتظاهرت بالهروله هنا وهناك والتفتيش في كل مكان ثم عادت الى غرفة الجلوس حيث عرف لوقا انها قادمة نحوه من الطرف المتوهج للدخينة التى كانت تضعها بين شفتيها • واخذت هذه النقطة الحمراء ككوكب المريخ في سماء الشتاء القاتمة تدنو منه رويدا رويدا وهي تتمايل معلقة في فمها على ارتفاع محاذ لمستوى وجهها • وعندما اقتربت منه تماما تحرك الى اليسار ذلك النجم الصغير الاحمر بلون الدم بحركة فجائية دلت على انها تخرج الدخينة من فمها • فتابعها لوقا بعينيه ورآها تهبط مسافة كبيرة • فقد اسقطت المربية ذراعها الى جانبها • ولكن ثمة يدا تسللت في نفس الوقت الى خلف عنقه بحركة بطيئة هادئة كالحية في تمددها • ثم شعر بنفس دافىء على وجهه اختلطت فيه رائحة التبغ بعطر أحمر الشفاه • وما لبث بعد ذلك ان احس في الحال بشفتين تعتصران شفتيه •

حتى في تلك القبلة ــ وهي أول قبلة يتلقاها في حياته ــ بدا وكأنه يحس بشىء غامض كان محببا وبغيضا في نفس الوقت • فقد تمددت شفتا المرأة الغليظتان الرقيقتان على شفتيه بحركة دائرية مطوقة لم تشمل فاه فحسب بل أيضا ذقنه واسفل منخريه وكأنهما تبغيان السيطرة عليهما • وقد بدت هاتان الشفتان جامدتين عديمتى الحياة كشفرى جرح عميق أرغما على التمدد لا بحركة ارادية بل بضغط الوجهين احدهما على الآخر • ولكن اذا بشىء عضلى مدبب عظيم القوة ينبعث من اعماق ما خلف الشفتين ويندفع بين اسنان لوقا فارجا ما بينهما ونافذا في عنقه الى داخل فمه • أخذت تقبض لسانها وتبسطه وكأنها بذلك لا تبغي ان تستكشف فم لوقا بكل مجاهله وتعقيداته فحسب بل جسده بأجمعه ولم يمنعها من

ذلك سوى قصر الأداة التى تستخدمها . وذكرته خشونة لسانها المبلل بملمس قوقعة ضخمة تبرز من محارتها . وما ان عاود التفكير فيه حتى قرر انه كذلك فعلا . نعم . قوقعة ولكنها قوقعة جن جنونها وكانت على الرغم من غشاها لا تعرف التعب . كما انها اوتيت حيوية مختلجة ذاتية الارادة كتلك التى يؤتاها الحيوان دون سواه . وفى تلك الاثناء بينما اتصلت قبلتهما انبعث اللعاب من فميهما المختلطين وأخذ يتساقط على ذقنه فى قطرات .

كان لوقا يتوقع منها ان تنادى اسمه كما نادى هو اسمها وهكذا تنتهى اللعبة والقبلة معا . ولكنها دون ان ترفع فمها عن فمه تقدمت مقتربة منه بحركة نشطة من جسدها كله فأدرك انها كانت تنوى ان تواصل التقبيل رغم بلوغه الحد الذى تمنى عنده وقد غلبه الارتباك لو توقف عنه . وعندئذ بلغ سمعه من الطرف الآخر للشقة صوت ابن خالته الحاد وهو يصيح قائلا – « انك لا تبحثين عنا .. فقد تواطأت مع لوقا . وليس هذا من العدل . ليس هذا من العدل . » وخيل له أنه يسمع فى هذه الصيحة صوت براءته فى نفس اللحظة التى صارت فيها هشيما لنيران الشهوانية . عندئذ تركته المربيه فجأة وسارت تتعثر فى خطاها عبر الغرفة وهى تقول فى صوت مرح – « ولم ليس من العدل ؟ فأنا ما زلت أبحث . » وأخرج لوقا منديله من جيبه وهو ما زال يلهث ثم مسح ذقنه المبلل .

ولم يطل بحث المربية عن الأطفال . فما لبث لوقا ان سمع قعقعة مرحة فأدرك انها قد عثرت على احد الأطفال . ثم أضيئت الانوار مرة أخرى كما حدث من قبل وعادت المرأة والاطفال الثلاثة الى غرفة الجلوس . . ولشد ما حار لوقا عندئذ بين احساساته المتنافرة . ففى اثناء القبلة كان احساسه بالنفور بعينه هو الذى اشعل فى دمائه لهيب الرغبة الدنسه المحرقة . فأحس انه يريد تقبيلها من جديد حتى سار بثبات الى خارج غرفة الجلوس فى تلقائية أثارت دهشة . وذهب ليختبىء فى المطبخ خلف الموقد .

ومن هناك امكنه ان يســمع خطى فى الدهليز لأكثــر من شخص واحد . فلا ريب ان المربية كانت تبحث عنه فضلا عن انشغال احدى الفتاتين بالبحث عن المختفين . وأحس بألم حاد وكأنه تولد عن تحطيم شيء حى محبب الى نفسه كان يعتز به اكثر من الحياة ذاتها . ومضى الوقت دون ان ينقطع الاضطراب فى الدهليز . فقد اخذت تبحث عنــه بينما اختبأ هــو خلف الموقد تراوده رغبة عارمة فى أن يذهــب اليهــا ويضــمها بين ذراعيه . وفتح باب المطبخ فامتلأت نفسه بالفرحة حتى خيل له وكأنه أحس فعلا بيدها على وجنته . ولكن اذا بتلك القعقعة المرحة المعهودة تنفجر فى نفس اللحظة . فقد عثرت الفتــاة الصغيرة على أخيها وقالت المربية وهى تشعل الضوء ، « آه لقد اختبأت هنا . » ثم نظرت اليه من المدخل يعلو وجههــا تعبير جمع بين المكر وخيبة الامل فى نفس الوقت .

ومع ذلك ففى هذه المرة انتهت اللعبة على صورة غير متوقعة كما تنتهى عادة العاب الاطفال فى ملل واضطراب فجائيين .. كان الغلام الصغير يشكو من ارتطام رأسه باحــدى الخزائن ونشب شجار بين التوأمين فانفجرت احداهما باكية . ولبث لوقا فترة وجيزة يراقب المربية التى كانت رغم تجاهلها اياه مرحة نشطة طيلة الوقت تناشد تلاميذها النظام والهــدوء . وعندما رأى ان اللعبة قد انتهت حقا ذهب الى غرفته وارتمى على فراشه فى الظلام .

وظل يسمعهم فترة وجيزة وهم يتضاحكون ويتراكضــون ويحركون قطع الأثاث فى غرفة الجلوس . وفى النهاية استغرق فى النوم . ولكن ما ان ساد الصمت فجأة حتى استيقظ مــرة أخرى ورأى الباب يفتح ويتسلل من خلاله خيط من الضوء . ثم دلفت المربية الى داخل الغرفة بينما ظل الأطفال فى غرفة الجلوس يتحدثون فى هدوء مما دل على انهم كانوا يرتــدون ملابسهم استعدادا للرحيل . واقتربت المرأة نحو الفراش ثم مالت فوقه قائله ــ « اكنت نائما ؟ »

فأجابها لوقا قائلا وهو ينهض قليلا ــ «نعم» .

فأردفت تقول فى صوت خافت ـ « لم لا تأتى لزيارتى فى منزلى ؟ فأنا لا أذهب يوم الأحد الى منزل خالتك .. فلتأت لزيارتى يوم الأحد القادم .»

فسألها لوقا قائلا فى آلية : « وأين منزلك ؟ »

فأدلت اليه بعنوانها فى هدوء وبصوت هامس لم يبق فيه اثر لمرحها المعهود . ثم انحنت فوقه لحظة وسرعان ما تلامست الشفاه فعاودت لوقا جميع الاحساسات التى صاحبت تلك القبلة الطويلة السابقة . وهتفت قائلة وهى تندفع نحو الباب « انى قادمة ـ انى قادمة .» وتهاوى لوقا الى الخلف فوق الفراش .

- ٨ -

كان ذلك فى يوم الخميس . وظل لوقا خلال الايام الثلاثة التالية يقرر الذهاب ثم يعدل عن قراره اكثر من مرة فى اليوم الواحد ـ ويقرر الاستسلام للحب ثم يعود فينبذه . وثمة أسباب كثيرة ـ بل كل الاسباب فى الواقع كانت تحبذ قبوله اياه . ولم يكن هناك من سبب على الاطلاق يحبذ نبذه اياه سوى رغبته اليائسة فى تحطيم كل مايشده الى الحياة ، ولكن هذا لم يكن سببا بقدر ما كاد ان يكون امرا يتعلق بالشرف استبطن اعماق روحه التى لشد ما كانت سرية خفية حيث نشأ وترعرع فى غموض .. ومع ذلك فقد لاحظ ان المربية بحبها اياه كانت تريده أن يحيا بقدر ماكان يريده والداه عندما يغدقان عليه الهدايا ومدرسوه عندما يكلفونه بالواجبات . وكان هذا الحب يرضى حواسه كما كانت هدايا والديه ترضى طعمه وواجبات مدرسيه ترضى طموحه . كانوا جميعا فى مستوى واحد ـ أمه وأبوه ومدرسوه والمربية ـ كانوا جميعا يحاولون شده الى معترك الحياة وفرضها عليه والتوفيق بينه وبينها . ولا يهم ان اختلفت السبل وان استنكر ابواه ومدرسوه اساليب المربية .

ولشد ما ثار غضبه ان يتوض جوع حواسه بكل هذه السهولة رغبته فى التحرر والموت . وحينئذ كان قطبا المنزل وهما ذكر وانثى يمران بموسم الحب . وقد حدث هذا من قبل

ولكن لوقا بغض النظر عن التلهى بمراقبتهما لم يعرهما انتباها كبيرا . ولكنه يخيل له عندئذ بعد ما حدث بينه وبين المربية أنه قد تعرف على نفسه فى الذكر وعليها فى الانثى . فتماما كما كان هذان الحيوانان يتعقب احدهما الآخر هنا وهناك ويتشمم كلاهما الآخر اسفل ذيله ثم يثب احدهما على الآخر ويطبق الذكر بأسنانه على عنق الانثى التى تخر على وجهها تحت الذكر ، كذلك كان سلوكه نحو المرأة مستجيبا لما تمليه عليه غريزته على غير وعى منه . فماذا كان كل هذا الغدو والرواح فيما بين غرفته الخاصة وغرفة الجلوس وكل هذا التلامس واختلاق المعاذير التى تؤدى اليه ؟ ماذا كانت كلها سوى تلك المطاردة المتبادلة بين حيوانين اثارت فيهما الرغبة اضطرابا غامضا ؟ بفارق واحد هو ان القطين لا يمكنهما ان يتمردا على الطبيعة اذ انهما من صنع الطبيعة وحدها ، فى حين أنه هو نفسه كان يبغض الاذعان للطبيعة ويعده سلبية مذلة .. كما كان يعد القوة التى تفرضه عليه بغيا وطغيانا .. وفضلا عن ذلك فلو انه انصاع لحواسه فماذا يمكن ان تكون حجته فى اهماله دروسه ونبذه متع التملك والزهو ، وفى انكاره العاطفة بل عدم استقرار رأيه فى الواقع بصفة نهائية على القيام بدور فى ذلك العالم المعد الذى ادخلته فيه أمه بانجابها اياه ؟ .

وعندما جاء يوم الأحد كان لا يزال مترددا . فقد قرر لوقا فى الصباح الا يزور المربية . ولكنه ما ان انتهى من تناوله الغذاء حتى عدل عن قراره . واعلن أمه بأنه ذاهب الى السينما ثم غادر المنزل وهو يحس بشعور غامض من احتقار الذات ولكنه ما لبث ان ادرك بعد بضع خطوات ان ساقيه تحملانه فى الاتجاه الخاطىء . فعلى قارعة الطريق كانت تقوم بوابة الحدائق العامة ذات النقوش الزخرفية ومن خلفها الأشجار وكانت تختال فى ابتهاجها أول أفواج المتنزهين يوم الأحد فى ضوء الأصيل الرقيق فى بواكير الشتاء . فانقاد على الرغم من ارادته لمنظر البوابة ودخل الحديقة .

لم يقصد ذلك المكان منذ اليوم الذى دفن فيه النقود • وقد مر شهر تقريبا على هذا الحادث • وكان عرى الشتاء وسكونه قد استبدا بالمكان تماما • فلم يكن يحتفظ بورقه ذى الخضرة الداكنة والملمس البارد سوى شجر السنديان مما يذكر الانسان بالمعدن القديم • اما الاشجار الاخرى جميعا فكانت ترتفع منها نحو السماء شواش من الفروع الرمادية المستقيمة الشبيهة بالمكانس • ولم يكن يرى بها سوى قليل من الاوراق الصغيرة الصفراء المتناثرة هنا وهناك وقد بقيت معلقة على الاشجار بقوة الجمود فحسب • كما تعرت المروج واشتد جفافها فلم تبق عليها ورقة واحدة من العشب واقفرت المقاعد وامتصت تماثيل الرخام مياه المطر فكشفت الرطوبة القاتمة عن المفاصل التى تربط بين قطعها المتعددة • وثمة طفح اخضر كان يكسو صفحة الماء فى احواض النافورات التى لم تعد تشقها قوارب الاطفال الصغيرة • سار لوقا فى احد ممرات الحديقة فوق الحصباء الترابية التى لم تعد تصر تحت قدمية • ثم عبر المرجة الكبيرة وكانت تغمرها عندئذ الى حد ما برك واسعة من الماء انعكست السماء على صفحتها • ثم اخترق دغلا من الاشجار أفضى الى الساحة المكشوفة • وهناك وقع بصره مرة أخرى على الحائط المزخرف بكواه واعمدته ونقوشه • كما وقع بصره على البقعة الظليلة حيث دفن نقوده وقد لمعت بأوراق الشجر الذابلة • وجلس على تاج عمود مقلوب ثم نظر حوله •

واحس بنفسه فريسة للقلق والضيق ولكنه لم يؤسفه ذلك الشعور اذ خيل له انه يحول بينه وبين التفكير فى المربية ويصد عنه اغراء الذهاب لرؤيتها • كان قلقه وهميا وليد التردد وهو يغالى فى تجسيم وجوه الخيار للمشكلة ولكنه يجعلها فى نفس الوقت تبدو غامضة لا يمكن تحقيقها دون ان يزيد فى ذلك على تصويرها فحسب حتى يبدو وكأنه يكتفى بجمود لا شأن له بالخيار • لا شك انه كان يبغى الذهاب لرؤية المربية ولاشك أيضا انه كان لا يبغى ذلك • ولكنه لم يحس بالرضا عن كلا الوجهين بل لشد ما كان يرضيه الحل الوسط بينهما ، ألا وهو هذا السكون وتلك البلادة وذلك الهدوء المعتم

الخفى • كان يعلم انه لو واجه الاغراء فى صراحة وايجابية فانه سوف يستغل قدرته نفسـها على المقاومة ويحولها لمصلحته الخاصة • ولذا فلم يكن أمامه سـوى تهدئة أى صراع ممكن ليظل خامدا •

ولكنه كان يعلم ماذا دعاه الى العودة الى تلك البقعة المكشوفة فى الحدائق • فكما يعود المؤمن الى معبد ديانته ليقوى ايمانه كذلك اراد بعـودته الى زيارة المكان الذى ادى فيـه اقـدس تضحياته ان يقنع نفسه باستحالة النكوص عن تلك التضحية ، وكانت تلك البقعة المكشوفة التى تقدست بتضحيته بل ذلك المعبد الطبيعى لعقيدة لا يؤمن بها سواه دون ان يعرف عنها شيئا ـ كانت تلك البقعة بلا ريب ذات تأثير على ذهنه • وفى الواقع فانه بعد فترة صمت طويلة خيل له على صورة غامضة أنه يرى شبح المربية يبدو له عن بعد وكأنه محطة للاستراحة خلفها حينئذ وراءه على مسافة بعيدة فى طريق واضح للعيان • كيف يمكنه على الاطلاق من أجل قبلة أو اثنتين ان يخاطر بكل مكونات مبدئه اليائس فى تلك الفترة الأخيرة من حياته ؟ ثم فكر فى نقوده ولشد ما احس بالنفور عنـدما خطر له امكان الذهاب اليها واستخراجها من الارض فى جشع ثم وضعها فى جيبه مرة أخرى وانفاقها فى شراء حلوى أو سجائر • ولكنه لو ذهب لرؤية المرأة لارتكب هذه الخيانة بذاتها فى حق نفسه فقد كانت تنتظره فى منزلها كما ينتظره ابـواه فى مواعيـد الوجبات وكما ينتظره زملاؤه ومدرسوه فى المدرسة • كانوا جميعا يتآمرون على نصرة ضعفه • فماذا بقى له سوى تخييب رجائهم ان كان عليه ان يحتفظ بنزاهته ؟

وفى تلك الأثناء كان الوقت يمضى • وقد لاحظ ذلك حين بدا الضوء يخبو بصورة محسوسة • وعندئذ بلغ سـمعه من خلال نوافذ الحائط خلف ظهره زئير بعيد تردد صداه مرتين أو ثلاثا فتذكر انه كان موعد اطعام الاسود • وخيل له على صوت هذا الزئير انه يمكنـه ان يرى اقفاص الاسـود الرمادية بقضبانها السوداء المتقاربة نظيفة ولكنها كريهة الرائحة على صورة غريبة ومن خلفها ترقد الأسود فى تحفز كأنهـا كتل

ضخمة خشنة الفراء شعثاؤه • كما تراءى له الباب الصغير مفتوحا فى نهاية الدهليز الطويل بجانب القفص وتراءى له الحارس فى زيه الرمادى المخطط وهو يدخل من خلاله دافعا امامه عربة صغيرة من مقبضيها وقد ملئت بشرائح ضخمة من اللحم الدامى • فيرفع احداها بخطاف فى طرف عمود طويل ثم يلقى بها من فوق السياج الى الوحش الذى يكون فى أثناء ذلك قد نهض واقفا على ارجله وهو يزأر • وتسقط الجيفة الحمراء على ارض القفص فينقض عليها الأسد فى الحال قابضا عليها بمخالبه • ثم يمزقها اربا وهو يقرش العظام بأسنانه متوقفا بين آونة واخرى اثناء وجبته ليلعق الجيفة فى عشق بلسانه المبردى وكأنه يقبلها • واقشعر بدنه عندما خطر له ان تلك القطعة من اللحم التى صارت الآن كتلة ميتة لاشكل لها كانت فى وقت من الاوقات جزءا من حيوان حى ، ثم تذكر كيف قيل له ذات مرة ان الموت بين فكى وحش مفترس لا يكاد يحس له الم بسبب تلك الشفقة الغريبة غير الواعية من جانب الوحش نفسه الذى يحرص على كسر العمود الفقرى للفريسة وخيل له انه يود لو مات بهذه الطريقة ـ حيث يمسك به ثم يقتل ويلتهم • وقد أعجب بهذه الميتة التى تتم فى براءة وبلا وعى لأنها تتميز عن اية ميتة اخرى على يدى انسان بوحشية تامة فاتنة • كما يتحول فيها الانسان الى شىء آخر • اذ يصير طعاما يقتات به وحش جائع • وهذا الجوع الأعمى المجهول قبر يليق بجسد منبوذ • قبر لا تربطه بالعالم أو الجنس البشرى صلة ما ولا حتى من خلال الشفقة التى ترين على لحد بللته الدموع •

ولكنه لشد ما سرته قبل كل شىء فكرة تحقير الكرامة البشرية بجعل الجسم البشرى طعاما يقتات به • وتذكر ان اطعام الاسود فى حديقة الحيوان لم يفتأ يرتبط فى خياله بذلك الشعور المضطرب الذى توحى به فى نفسه قراءة روايات معينة تدور حول موضوع الاستشهاد وعلى الأخص « فابيولا Fabiola وكوفاديس Qus Vadis وليس أشد انكارا لهذه الكرامة البشرية التى تتألف كلها من امجاد تافهة

وواجبات منفرة كان يبغضها كل البغض من وضع الجسم البشرى فى مستوى اللحم عند القصاب . وتذكر تلك العذراء الشابة ذات الحسن والجمال والمحتد النبيل التى قرأ عنها فى احدى هذه الروايات وكيف تعرضت عارية للوحوش المفترسة وبعد ان بقيت بمعجزة من السماء فترة طويلة دون ان يلحقها اذى هاجمها احد الأسود وبضربة واحدة من مخالبه مزق ذراعها ثم التهمتها الوحوش الجائعه وهى ما زالت حية . وعندئذ عاوده شعوره بالشفقة الذى سبق ان راوده عند قراءة هذه القصة . ولكن اشفاقه حينئذ كان منصبا على نفسه وقد القى به على الأرض بدلا من المرأة الشابة ومزق اربا . انه نفس الشعور بالشفقة الذى حرك عواطفه عندما تخيل نفسه قتيلا دفن فى الحدائق العامة . وبالايحاء له بهذه الصورة الجديدة لموته وضحت له تلك القصة معناها وأكدته ـ فبدت وكأنها تضحية طقسية مقدسة ضرورية ولا محيص عنها .

وما أن رأى أن الليل قد خيم فعلا حتى جفل . وأحس أنه تجمد من البرد من أعلى رأسه الى أخمص قدمه . كما أحس فجأة أنه لايعدو فى الحقيقة أن يكون صبيا تأخر به الوقت عن موعده المعتاد فى خارج الدار . وبينما كان يسير تحت الاشجار فى ممرات الحديقة المعتمة فى ضوء الشفق بلغ سمعه صياح الحارس وهو يردد قائلا ـ « موعد الاغلاق ... موعد الاغلاق » بدت له هذه الصيحة فى نغمتها الحزينة الخافتة وكأنها اخطار بالعودة الى عالم بيته ومدرسته الذى لشد ما كان يمقته . وفكر لحظة فى البقاء هناك وانفاق الليل فى البقعة المكشوفة حيث يخلو الى نفسه والى ظلال الشجر . ولكن خانته شجاعته وغادر الحديقة من خلال البوابة . ومع ذلك فانه كان يخشى عندئذ ألا يمكنه مقاومة اغراء المربية فى اليوم التالى عندما يراها مرة أخرى فتستثيره بحيلها من جديد .

- ٩ -

ولكن المربية لم تأت فى اليوم التالى لأن خالته كما علم من أمه فى ذلك المساء نفسه كانت قد استردت صحتها ولم يعد هناك داع لابعاد الأطفال عن المنزل . وأحس لوقا بشىء من

خيبة الرجاء عزاه فى أول الامر الى المفاجأة ـ المفاجأة التى يتلقاها رجل أعد نفسه لخوض المعركة ثم وجد فى اللحظة الاخيرة أنه لن تكون هناك معركة قبل كل شيء ولكنه أدرك فيما بعد أن خيبة الرجاء التى اصابته كانت ذات طابع مختلف وأنه كان فى الحقيقة يبغى أن يراها مرة أخرى • وقد أفزعته تلك الرغبة لانها أثبتت له بطريقة بسيطة مباشرة كالشهية الطبيعية أنه مازال متشبثا بالحياة وبهباتها المريبة •

وبعد ما أبلغته أمه النبأ مرت خمسة أيام كان يأمل فى أثنائها أن ينسى المربية • ولكنه فى صباح يوم الاحد أثناء مروره بالتليفون توقف وأدار رقمها فيمايشبه الآلية • فردت عليه فى الحال وكأنها كانت فى انتظاره كل هذه الايام على الطرف الآخر من سلك التليفون • قالت له ـ « انك لم تأت يوم الأحد الماضى • »

فأجابها لوقا قائلا ـ « لم يمكنى ذلك • هل انتظرتنى ؟ »

ـ « نعم • ولكنى لم انتظر طويلا • »

وبدا له ان صوتها لم يكن مرحا كالعادة • وعندئذ لم يعد يفكر فى مقاومة الاغراء • فسألها قائلا فى صوت خافت ـ «هل يمكننى المجىء اليوم ؟ » •

فبدت وكأنها تفكر لحظة ثم أجابت قائلة ـ « لا • ليس اليوم فأنا لست مطلقا على مايرام • »

فقال لوقا بلهجة غاضبة غير مصدقة ـ « لقد فهمت • »

فلم تلبث أن أردفت قائلة فى الحال وكأنها مذعورة ـ « انى أصدقك القول تماما •• فأنا لست بخير •• ولكن فلتأت يوم الأحد القادم ـ هل يمكنك ذلك ؟ »

فقال لوقا ـ « نعم • »

ـ « حسنا • الى اللقاء يوم الاحد القادم اذن • »

وظل لوقا طوال الاسبوع منحيا عن نفسه تماما كل ميل لمقاومة الاغراء واعتزال الحياة • ولم يكن له من هم سوى التفكير فى المربية • أخذ يفكر فيها باضطراب عميق اختلطت فيه رغبة حواسه الحادة بالحيرة الغاضبة من أثر الهزيمة • لاشك أنه لم يعد يفكر فى الموت ، أو حتى فى الحياة اللهم الا

اذا كانت الحياة هى هذه الحال من السخط والعذاب • كانت شهوته تحذيرا بعيدا عن قراراته السابقة كما يحول السيل الموحل الدوام دون السباحة أو الوقوف على أرض جافة • كان كل شىء يبدو له وكأنه قد فقد مادته وأهميته فيما عدا المرأة التى لم يفتأ خياله يعرضها أمامه فى ألوان شتى لا نهاية لها من المظاهر المثيرة المتملقة • وكان مايحدث الآن هو أخشى ما يخشاه وذلك أن يعود اهتمامه بالحياة من جديد • ولكن الحياة فى هذه الحال بعد كل ما حدث من تقويض لن تكون سوى لدغة من الشهوة بلا أمل فى التطور الى شعور أرحب وأكثر ايجابية • فقد أدرك أنه لم يكن يحب تلك المرأة ولن يحبها لعلمه ان الغريزة الحيوانية الخالصة وحدها بنطاقها المحدود هى مبعث رغبته فيها • ولشد ما كان عندئذ فى معزل عن وضوح الرؤية الذى اتيح له أثناء زيارته الاخيرة للبقعة المكشوفة فى الحدائق ! أخذ ينتظر بصبر نافد مرور تلك الايام السبعة مهملا عمله فانى النفس مضطرب الحواس على صورة دائمة لايحظى من الطعام أو النوم الا بالنزر اليسير •• وفى يوم الاحد غادر المنزل فى ساعة مبكرة بعد ما أبلغ أمه كذبا كالعادة أنه ذاهب الى السينما •

كانت المربية تقيم فى حى قديم من البلدة يقع بين المحطة والثكنات • فكانت ترى فى نهايات الشوارع الطويلة مظلات سوداء وبيضاء للحراس وبوابات حديدية لمشتملات الثكنات وفيما وراء تلك البوابات كانت ترى ساحات فسيحة تكتنفها أشجار الكافور المغبرة ومن فوقها تمتد السماء البيضاء • وثمة أبواق بعيدة محزنة كانت تدوى داعية الى تناول الطعام دون أن يكون لها صدى ملحوظ • ومن خلال البوابات الحديدية كان ينتشر نحو الخارج هواء مثقل بالملل المطلق ثم يرتفع كالضباب فوق الشوارع المقفرة التى تتقاطع فى زوايا قائمة وبينما كان يهرول خلال هذه الشوارع بحذاء المبانى الشاهقة التى تحدها من الجانبين أحس بساقيه تنوءان بحمله وكره تلك الرغبة التى دفعته الى القيام بتلك الزيارة • وبدا له هذا الحى الذى تقوم به مساكن الموظفين وقد ساده دفعة واحدة جو من

النفاق • فكم من امرأة اخرى كانت تختفى خلف هذه الواجهات المزخرفة المغبرة فى انتظار عشيقها أو تمسك به فى قوة وهى تضمه بين ذراعيها ؟ لقد أحس على الرغم من اضــطرابه أنه بذهابه لرؤية المربيــــة كان يقوم بعمل طبيعى للغاية ، نفس العمل فى الواقع الذى خيل له أن هذا الحى ذا المظهـــر الوقور الزائف كان يوحى به اليه وأن هزيمته بأسرها كانت تنحصر فى قبوله القيام بهذا العمل الطبيعى الحقير • وخطر له أنه كان من الطبيعى أن يحفظ دروسه وأن يدخر بعض النقـــود وأن يقتنى مجموعة من الطوابع وأخيرا أن يذهب لزيارة خليلتـــه فى حى كهذا عند بلوغه السن المناسبة ثم عثر على المنزل الذى كان يبحث عنه غير بعيد من بوابات الثكنات • كان البـــاب الرئيسى مفتوحا وقد قامت فى الطرف القصى من ردهة المدخل نافذة زجاجية ملونة على الطراز القديم تعلوها مربعـــات من اللونين الأحمر والأزرق • أخذ يصعد الدرج وقد غثت نفســه بالنفور وارتعدت فرائصه •

وصعد الى الطابق الثانى ثم الثالث ثم الرابع وهو يتوقف عند كل بسطة من الدرج ليفحص لوحات الاسماء • وكان كلما فكر فى منزل المربية وقد تذكر أن أباها الذى مات منذ سنين كان موظفا رسميا ذا حيثية ـ لايفتأ يتصور أن منزلها يتألف من سلسلة من الغرف الصغيرة الضيقة المزدحمة بقطع الاثاث الخفيفة الأنيقة حيث تستدرجه المــــرأة الى أريكة رثة فى ركن بعيد من احدى هذه الغرف الصغيرة • فيذكره لســانها الذى لا يكل ولا يمل بالقوقعة الهائجة عند قبلتها الاولى • ثم يتلقى الحلوى والسجائر والنظرات المسترخية والفكاهات • وأخــيرا يرقد فوقها بينما يخالجه فى نفس الوقت صدود وارتباك وقد ألقيت ملابسهما جانبا فى فوضى كزبد الماء المضـــطرب الذى يشير الى غرق السفينة • ثم تودعه بقبلة أخيرة فى ظلام الردهة الضيقة حيث تكدست المعاطف • وبعد ذلك يعــود الى المنزل خائنا مخونا • وقد ملأه كل ذلك بالنفور ولكنه كان يجـــذبه كالمغناد لا لسبب الا لأنه ينفره •

وما ان فتحت الخادم الباب حتى دهش لتلك الرائحـــــة

اللاذعة الخانقة التى هبت من الردهة فى عنف على وجهه كالنفحة الساخنة ـ وأدخلته الخادم ثم تركته واقفا هناك وفى الطرف القصى من الردهة انبعث ضوء مائل الى الحمرة من مصباح بدا له ملفوفا فى قماش بنفس اللون • وكان الدهليز الذى تفضى اليه الردهة من الناحية الاخرى غارقا فى الظلام • وخيل له أنه يسمع شهقات مكتومة منبعثة من ذلك الاتجاه • وبدا المنزل كله وقد شاع فيه اضطراب حزين لايدرى كنهه ـ فبلغت سمعه خطى مهرولة وأنات وحفيف ثياب وصرير أبواب • بل أمكنه أيضا أن يميز عن بعد صوتا رتيبا يرتل الصلاة • أما تلك الرائحة التى لشد ما كانت لاذعة فى منخريه فكانت رائحة المطهرات والنوم والعرق • فقد تذكر تلك الرائحة نفسها التى كانت منذ سنين تملأ غرفة أمه اثناء مرضها • وجفل فجأة عند سماعه صوتا باكيا قريبا منه يقول له ـ « من أنت ؟ وماذا تريد ؟ »

وقفت أمامه فى الظلام عجوز بدينة متشحة بالسواد وقد انعكست على وجهها وصدرها من ضوء المصباح لمعة حمراء بلون الدم • وارتفعت فوق جبهتها خصلة كبيرة من الشعر الابيض أشبه بالريشة الكبيرة مما أضفى عليها مظهرا يكاد يكون مضحكا • وأنعم لوقا النظر اليها فوجد ان وجهها بأجمعه كان يبدو حتى تحت لمعة المصباح الحمراء محتقنا بحمرة أخرى أكثر توهجا • أعادت سؤالها مرة أخرى وهى تتقدم خطوة الى خارج دائرة الضوء المنبعث من المصباح • فرأى لوقا فى ذلك الضوء الخافت المريب أن وجهها لم تزل تعلوه تلك الحمرة فأدرك أنها من أثر الدموع التى ذرفتها فى يأس وانتشرت على وجهها كله من منديل صغير شديد البلل •

فنطق باسمه وقد ماتت رغبته ثم أسرع يكذب قائلا انه انما جاء ليستطلع الانباء • فتمتمت العجوز باجابة لم يفهمها لوقا ختمتها بقولها ـ « انها مريضة ـ مريضة للغاية • » ثم هزت رأسها واختفت فى الظلام الذى جاءت منه • ولأول مرة لاحظ لوقا خلف العجوز شبحا أبيض بدا أنه كان يعاونها على السير ـ انها الممرضة • وجذب الباب خلفه دون أن يغلقه ثم خرج الى بسطة الدرج •

وهرول عائدا الى المنزل حيث ركض الى غرفته وارتمى على الفراش . لم يكن شعوره عندئذ شفقة على المربية التى لم يحس نحوها بالحب والتى لم تزد على أن تكون الحركة لرغبته بقدر ما كان احساسا بالكراهية نحو نفسه وعلى الاقل نحو ذلك الجزء من نفسه الذى ألحق به المهانة عن طريق تلك المطاردة الشائنة عبر البلدة والتى انتهت على صورة لشد ماكانت مهينة مذلة فقد وجد حالة احتضار حيث كان يتوقع لقاء عاشقين وهكذا فانه لم يسعه الا أن يرى أن هذا هو ما كانت تعنيه الحياة ومواصلة الحياة ــ أن يأتي المرء فى حماس وعزم أعمالا سخيفة لا معنى لها يستحيل عليه أن يجد لها مبررا ما وهى لاتفتأ تجعله فى حال العبودية والتبكيت والنفاق . وعندئذ أدرك حكمة تفكيره قبل ذلك بأسبوعين عند تواجده فى البقعة المكشوفة فى الحدائق . ولعلها كانت حكمة يائسة ولكن لم يكن فى الامكان سواها . ففيما خلا تلك الحكمة التى تطالبه بالتضحية بحياته كان كل شيء غامضا متناقضا .

أحس عندئذ أن حقائق الحياة قد لقنته فى صمت درسا ما ووجهته مرة اخرى الى الطريق الصحيح الذى أضلته عنه رغائبه . كان مشهد الاضطراب والموت فى منزل المربية أشبه بالقطعة الموسيقية بل بموضوع لحن قطعته لفترة وجيزة أصوات متضادة ثم ما لبث أن عاد بعد ذلك فى مزيد من العنف بنغمة أعلى وأقوى . كان هو نفس الموضوع الذى يرن فى أذنيه زمنا طويلا والذى أخطأ بنسيانه . كان موضوعا عميقا رخيما جنائزيا مترعا بالحزن ولكنه خلاب فى نفس الوقت وخاص به على صورة غريبة مميزة .

وتساءل قائلا فى فضول تجريبى ــ « ولنفرض أن المربية لم تمت ؟ » . وما أن لاحظ يقظة حواسه من جديد لمجرد ذكره مثل هذا الرجاء حتى انتابته مرة أخرى كراهيته لنفسه على صورة أقوى من أى وقت مضى . فانه لم يجد فى نفسه القدرة على طلب الحياة للمربية من أجلها . بل ينبغى أن تحيا وتموت من أجله هو وحده . وخطر له أن هذا أيضا هو ما كانت تعنيه

الحياة وبهذه الصورة كان أبواه ومدرسوه وجميع الناس يفهمون الحياة • واذا به يحس فجأة أنه يريد لها أن تموت • ولم يمكنه أن يحس بهذا الشعور الا على أساس رغبته هو فى الموت على صورة أشد الحاحا •

- ١٠ -

وبعد مضى يومين على زيارته لمنزل المربية أبلغ لوقا نبأ وفاتها بعبارات الشفقة التقليدية أثناء حديث عارض بين أبويه وهما جالسان الى المائدة • فقد قالت أمه ـ « كانت مخلوقة طيبة شديدة المرح •• من كان يتصور هذا ؟ » وأمن والده أيضا على حديثها قائلا انه ماكان يتخيل قط ان شخصا فى مثل حيويتها يمكن أن تعاجله المنية فى وقت مبكر • وما لبث الحديث أن انتقل الى موضوع آخر بعد بضعة تعليقات أخرى على نفس النمط •

وكان لوقا يأمل أن موتها ان لم يوح اليه بالشفقة فسوف يشعره على الأقل بالتحرر • ولكنه اكتشف بدلا من ذلك أنه مازال يفكر فيها برغبة وحنين تماما كما كان يفعل أثناء حياتها وبقدر فهمه للامور بدا له أن احساساته التى أثارتها تلك المرأة قد ادخرتها ذاكرته الحسية فى نهم حتى يمكنها عندما يستعيد ذكرياته شيئا فشيئا أن تتصدق بها عليه فى تقتير شديد الى أن تحل فى قلبه امرأة أخرى على أية حال محل المرأة الميتة • ثم تذكر كيف أنه ذات مرة فى طفولته قد حبس عظاية حية فى صندوق ولكنها ماتت فأصر على الاحتفاظ بجثتها عدة أيام حتى غثت أمه من الرائحة فأخذتها منه وقذفت بها بعيدا مما أثار نفوره الشديد لاعتقاده أنه كان يملك كنزا عجيبا • وهكذا احتفظت ذاكرته بنفس ذلك الحرص الغيور الضنين بما خلفته له المربية من أحاسيس غرامية لاتتجاوز اثنين أو ثلاثة صارت تفوح منها عندئذ رائحة الموت • وهكذا فقد أضيف الآن الى اللون الجنائزى الكئيب الذى يصبغ حياته بأسرها ذلك الظل الأسود لحب الموتى • ولم يكن ثمة

سبيل الى مقاومته • ومما جعل حبه للمربية أسوأ من غيره من ألوان حب الموتى المماثلة له أنه لم يكن يتمثل جسدها بأكمله في حبه الخيالى بل كان يتمثل بطريقة حسية جزءا معينا بالذات فحسب من جسدها ــ ذلك الجزء الذى كان وحده في نظره حيا فعالا ــ ألا وهو فمها الذى بات عندئذ كما كان يتخيله أحيانا وقد ملأه التراب بلا ريب كما لم يعد هناك وجه للشبه بينه وبين الفم • وفى الواقع فانه لم يكن يذكر شيئا أو يدرى شيئا عنها فيما خلا تلك القبلة التى تلقاها منها ، وكانت كالرائحة أو المذاق تبعث الى الحياة من جديد لاقل دعوة من ذاكرته ففى كل لحظة كانت لاتفتأ تعاوده لا كفكرة ثابتة تجثم على ذهنه بقدر ما كانت شيئا تعوده فعلا فى انتظام خبيث يتميز به أشد أنواع التفكير آلية • كانت كنزا تعسا كئيبا ولكنه أخذ يتهيأ لأن يعيش أعواما على دخله منه . فكان أحيانا يستيقظ فجأة من نومه أثناء الليل يراوده احساس بأن فاها كان يبرز له من وسادته فى بطء ولكن فى ثقة كما تنبت الزهرة من بطن الأرض وقد استحال الكتان الى لحم بشرى بينما احتفظ اللحم مع ذلك بخصائص القماش على نحو ما . فكان يعض وسادته فى قسوة ويظل مطبقا بأسنانه على القماش البارد المبلل باللعاب ومتشبثا بكل قواه بتلك الرؤية التى كانت فى نفس الوقت رغم بعد احتمالها على نحو لا أمل فيه ملموسة محسوسة على صورة عنيفة • ويظل كذلك الى أن يفيق من نومه تماما . وهكذا فقد استمر احساسه القديم المزدوج بالنفور والرضا . ومع ذلك فان نفوره عندئذ لم يعد مبعثه حب دنس مختلس بل كانت تبرره الى حد ما المشاركة الحماسية من جانب المرأة . كان مبعثه تعلقه الكئيب ببقايا ذكريات بالية لم يلبث أن قطعها الموت . وقد ملأت تلك الذكرى خواطره جميعا بفتور موحش كئيب كما أصابت فى نفس الوقت حواسه التى لم تفتأ تتذبذب بانحراف تدريجى بين الرغبة والنفور . وصار احساسه بالقبلة مختلطا بفكرة الموت وممزوجا بها فى انفعال واحد غامض بدا أنه يستمد قوته من ظلام الاستحالة والتدنيس •

وهكذا استمر صراعه مع الأشياء التى كانت تشده الى الحياة • وعندئذ شاءت الصدفة أن تصير هذه الاشياء ذكرى بتراء شوهاء لشخص قضي نحبه . وكان يخيل له أحيانا أن هذه الذكرى سوف تمر بمضى الزمن بعملية التحلل شأن البدن الذى أوجدها . وهكذا فانها سوف تتحول فى ذهنه ببطء شديد للغاية الى رواسب موحلة شديدة السواد كما يحدث للبدن فى الارض التى دفن فيها . ولكن ذلك لم يتم قبل أن يغذى حياته بتلك الذكرى عدة سنوات فيستحضرها ويتلذذ بها مرارا وتكرارا مادام ذلك فى امكانه . ولكى يفصم ذلك الرباط ويخرج نفسه الى الابد من فلك تلك الذكرى فقد استقل الترام ذات صباح واتجه الى المقابر بدلا من ذهابه الى المدرسة .

وفكر فى غموض أن يشترى بعض الزهور لينثرها على قبر المربية ، بغية استرضائها حتى تتركه نهائيا ليعيش فى هدوء ولكنه ما ان رأى أشجار السرو ترتفع فوق السور الرمادى للمقابر فى ذلك الصباح البارد المضبب حتى أحس على الفور أنه مكان تقاليد ومظاهر ينتقص منه مقدما كل سر وغموض وقد فتحت البوابات الحديدية المؤدية الى داخل المقبرة عن طريق أرض فضاء محاطة بأكشاك الزهور . وفيما وراء البوابات بدت أرض المدافن كحديقة عامة زرعت بها الصلبان بدلا من الزهور على سبيل السخرية . وقد بدت له تلك الصلبان عندما تأملها حالما من الارض الفضاء فى خارج البوابات وكأنها تتحرك مختلطة فى زخرف هندسى دوار لا أثر فيه لفكرة الموت • ومن حوله كان الناس يهبطون من عربات الترام المزدحمة متجهين فى حشود صوب الارض الفضاء حيث يشترون الزهور ثم يسيرون الهوينى فى خطى وئيدة تجاه البوابات . كما بدت له كنيسة المدافن الصغيرة التى تقوم الى جانب المقبرة على صورة مناسبة وقد بنى مقصمها وظلتها من الفسيفساء الملونة وكأنها تدعو الناس الى اتيان اشارات تنبىء بنفى خلا من الغموض واعد لتلك المناسبة . ولم يسعه الا أن يرى أن ذلك المكان ليس مكانا

للموتى بقدر ما هو مكان للأحياء يؤدون فيه شعائرهم فى سهولة ولياقة متكلفة . ثم لاحظ أن الارض أسفل السور كانت تنحدر فى وعورة وقد تشققت واصفر لونها فى سمرة . كما لاحظ فى أعلى هذا المنحدر وجود ثلاثة من الأفاقين تجمعوا حول نار مشتعلة طلبا للدفء — فخيل له فى الحال لسبب ما أن النار مشتعلة فى نفاية المقابر من بقايا العظام وخرق الثياب العطنة وشظايا التوابيت . وكانت ألسنة اللهب ترتعش حمراء فى الهواء البارد المضبب ويرتفع من وسطها الى أعلى السور عمود من الدخان ذو لوالب صفراء يبلغ أعالى أشجار السرو المائلة الساكنة . كما بدا ذلك الدخان ذا رائحة خبيثة نفاذة . وما ان رأى ذلك اللهب حتى عاودته فكرة الموت مجردة من الشعائر والرثاء — كألوان الموت التى تمثلها ذات مرة على يدى قاتل سفاح أو بين فكى وحش مفترس — فأخذ يفكر فى ميتة تصلح لتدفئة أيدى ثلاثة من الشحاذين المعدمين على مرأى من مساكن الضواحى وبجانب خطوط الترام . وأدرك أنه من العبث دخول المقابر فان المرأة لم تكن تحت الرخامة التى تحمل اسمها بل فى ذاكرته وحواسه . ولو أنه واجه تلك اللوحة الحجرية التذكارية لأتى باشارات جوفاء لا معنى لها كما يفعل غيره من الناس أو لكان عليه من الناحية الاخرى أن يستحضر فى ذهنه نفس الذكريات التى يبغى طردها . ورأى من ركن عينه تراما يظهر له فى الطرف القصى من الممر فركض بأقصى سرعة نحو رصيف المحطة . وما هى الا بضع دقائق حتى كان فى المنزل .

وتهاوى فى غرفته على الفراش لينام كعادته ولكنه مالبث أن استيقظ فجأة فى جفول عنيف أعاد الى ذاكرته صدمة أخرى مماثلة أصابته بها المربية عندما سقطت فوقه فى عمد أثناء تظاهرها باللعب مع تلاميذها . كانت هى بلاشك .. وفى الواقع فان احساسه بتلك القبلة بدا وكأنه يبرز له من قماش الوسادة فى عنف أشد منه فى أى وقت مضى . بدا له أن الليل بأسره الذى احتواه كان يعبر عن فمها . وأن الظلام كان يصنع من نفسه شفتين ولسانا وسط سكون خانق تقطعه

أصوات خافتة متفرقة ويملؤه وجود لا سبيل الى الهرب منه . ان ثمة احتقارا خبيثا قد شاب عـــــودة المربية عقب رحلته الفاشلة الى المقابر . فبدت وكأنها تريد أن تبلغه بكل ما أوتيت أثناء حياتها من مرح وصخب أنه لا جـدوى من محـــاولاته للتخلص منها . بدت وكأنها تبغى أن تقول له بأسلوبها المرح وهى تســقط فوقه مقبلة اياه ــ « لقد خلتنى ميتة .. ولكن هيهات .. فأنا أكثر حياة مما كنت فى أى وقت مضى .. وعليك أن تحيا ــ من أجلى ! » فنهض متكئا على مرفقه مســتمتعا بنكهة ذلك الاحساس يراوده تفكير عميق . وبدا له فى وضوح أنه منذ تلك اللحظة فصاعدا لن يفتأ يغوص كل يوم فى أعماق ظلام لا مهرب منه . ولكنه أدرك أن ذلك لم يكن يغضبــه فى شيء . فقد كانت كل خطوة فى الواقع تحمله نحو التضحيــة الطقسية بنفسه ــ تلك التضحية التى راوده بها احســاس داخلى أثناء وجوده فى البقعة المكشوفة بين أشجار السنديان فى يوم الاحد الذى لشد ما بعد به العهد . بهذه التضحية التى تعبر عن عقيدته التلقائية الغامضة فى الحياة يتحرر من قيوده وليس ببضع زهور تنثر فوق قبرها وانحنائه فى خشـــوع وصلاته فى طقس دينى مبتذل . عندئذ كان كل شيء على أهبة الاستعداد . وما كان عليه الا انتظار الفرصـــة التى تمده بلاريب بالظروف الملائمة والنضوج الروحى الذى تقتضــيه تلك التضحية .

- ١١ -

وذات صباح بينما كان يهرول خارجا من المنزل فى طريقه الى المدرسة بدا له أنه يكتشف فى نفسه احساسا داخليا بأن مصيبة ما كانت وشيكة الوقوع . واتخذ ذلك الاحساس شكل توقف فى مجرى تفكيره واستنتاجاته المضيئة كما اتخذ شكل التوجس القلق من حـــدث ما كان يواجهه بالفعل ومع أنه لم يكن قد وقع بعد فقد كان ثابتا مستقرا ولا سبيل الى تجنبه ، وكان يخالجه انفعال مرضى طفيف . فقد أحس وكأنه لم يعـد

موحدا غير قابل للتجزئة بل مقسما الى أجزاء طافية هنا وهناك لم تفتأ تهبط وترتفع بعضها الى جانب بعض وقد تجمعت كلها فى سكون خامد كحطام السفينة أثناء الهدوء الذى يعقب العاصفة . ولاحظ أنه بات يرى الأشياء بعينين اختلفت طبيعتهما ، أو الاحرى أنه كان لايراها بل يسيطر عليها عن طريق حاسة جديدة تماما بدت موزعة على جميع أجزاء جسده .. ولم يمكنه أن يحدد مكانها . ومع ذلك فقد أحس فى نفس الوقت بحزن مرير ولكنه معقول — حزن الاستسلام الذى جعل كل عمل من أعماله جهيدا مدركا كما لو كان كل منها خطوة لا سبيل الى التراجع فيها فى طريق مهلك مشؤم .

كان الطقس رديئا ولكنه لم يزل متقلبا لا يستقر على حال . فلقد اكفهرت السماء وتلبدت بالغيوم ولكنها لا تسقط المطر الذى يثقل كاهلها . وثمة ريح رطبة كانت تهب بين آن وآخر فتثير الهواء الساكن اللطيف . وعندئذ يرى لوقا أوراق الشجر فى الحدائق وهى تتقلب كلها فى نفس الوقت وقد انبعث منها وميض فضى . بينما ترتفع من أحجار الارصفة الجافة حوايا من الغبار الرمادى فيسمع لها فحيح على نواصى الطريق . ولكن الريح لا تلبث أن تهدأ مرة أخرى فى الحال . وتظل أحجار الرصف على جفافها . كانت حالة الطقس تشبه حالته النفسية . وبدا له أن الحالتين متماثلتان تماما فيما يخص انتظارهما حدثا ما . فربما أمطرت السماء فى النهاية وربما وصل هوأخيرا الى قرار . ولكنهخيل له أنمنأجله تلبدتالسماء بالغيوم على هذه الصورة المنذرة المهددة وأنه ينبغى أن يرقبها كما يرقب الممثل زميله حتى لا تفوته اللحظة التى يجب أن يظهر فيها على المسرح .

ولشد ما استلفت نظره ذلك الشعور الجديد الذى كانت تبثه فى نفسه أبسط فعاله المألوفة مثل السير فى الطرقات ودفع ثمن بطاقة الترام وهبوطه منه . انها نفس الفعال التى ظل سنين عديدة يؤديها كل صباح وهو فى طريقه الى المدرسة غير أنه كان فى الماضى يؤديها دون أن يلاحظها ، وكان لايفتأ يحمله أثناء ادائها تيار لا ينقطع من المشاغل والخواطر

المختلفة فى حين انه اليوم وقد تجردت حياته تماما من كل شىء صار يركز عليها وعيه كله لافتقاده الى غيرها من الاشياء . وخيل له أن فى طبيعتها العادية غرابة سخيفة مستبدة . وكان هذا الوعى لا يهمه الهدف النهائى من تلك الفعال ـــ كالذهاب الى المدرسة مثلا وقد بدا له ذلك سخيفا منذ أمد بعيد ـــ بقدر ما تهمه الفعال نفسها كل على حدة . وكان هذا هو الجديد فى الامر . لماذا يحرك ساقيه ؟ ولماذا يتجنب أن تصدمه مركبة الاتوبيس ؟ ولماذا يتوقف عن السير ليرتب من جديد حزمة الكتب التى يضعها تحت ذراعه ؟ ولماذا يجذب قبعته فوق جبهته ؟ كان يخيل له عندئذ وكأن حياته المألوفة قد صارت بعد اختزالها غلافا رقيقا من العادات التى أضحت آلية . ولشد ما باتت مملة لهذا السبب بالذات ـــ كان يخيل له وكأن حياته هذه كادت أن تفلت منه الى غير عودة كما تنضو الحية جلدها فى فصل الربيع . ولقد لاحظ عن طريق هذا الاحساس بالسخف الشامل لكل ما لم يكن سخيفا قط حتى ذلك الوقت أن أزمته الطويلة أخذت تدنو من نهايتها وانه لم يبق أمامه الآن سوى أن ينفض عن نفسه بهزة طفيفة ذلك الغلاف الممل فيسقط عنه . وتكهن أن احساسه الداخلى كان هدفه هذه الهزة ولا شىء سواها .

ثمة حشد أسود من الطلبة أمام مبنى المدرسة أخذ يتضاءل كل لحظة على صورة واضحة بينما تمتصه البوابة الكبيرة فى سرعة بين فكيها الرماديين العتيقين . ولم يسعه الا أن يرى أن وصوله هناك كان فى الموعد المحدد بالضبط . وبدا له ذلك الخاطر أيضا عاديا للغاية ـــ أو بعبارة اخرى كريها مستبدا . وفى الداخل كاد الظلام أن يخيم على المدرسة وقد بدا له سيل الفتيان الذى سرعان ما امتلأت به الردهة وهو يتفرع الى جداول صغيرة كثيرة يتدفق كل منها فى دهليز ـــ بدا له هذا السبيل وقد امتلأ مرحا مصبيا مخبولا ، وكأن زملاءه كان يخالجهم نفس احساسه الداخلى . وبلغ باب غرفة فرقته ثم دخل الغرفة نفسها فرأى فى الطرف القصى منها مقعد الاستاذ وقد وضع بين خريطتين كبيرتين .. وكما صور له المقعد منظر الاستاذ وهو يلقى الدرس ،

www.library4arab.com/vb

كذلك أوحت اليه الصفوف الثلاثة من القماطر المتقاربة بصفوف الطلبة وهم يصغون اليه فى انتباه . كان كل شىء معينا من قبل : فكان جالسا بالفعل الى قمطره رغم خلوه منه . كما كان زملاؤه جالسين بالفعل رغم تزاحمهم حوله وكان الاستاذ قد صعد بالفعل الى المنصة رغم أنه لم يصل بعد . وكانت الانوار مضاءة فلشد ما أظلمت الدنيا بسبب رداءة الطقس وانعكست خيوط الضوء الصفراء الرفيعة على الواح الزجاج القذرة فى النوافذ الكبيرة . فاتجه لوقا الى قمطره وانتظم من حوله بقية الطلبة كل فى مكانه . وعندئذ عاوده احساسه بآلية أعماله السخيفة . وراودته رغبة صادقة فى أن يأتى تلك الهزة الطفيفة ليرى ماذا يحدث . ودخل الغرفة استاذ اللغة الايطالية وهو رجل ضئيل أنيق الهندام ذو وجه أبيض ممتلىء وسار عبر الغرفة ناشرا من حوله الهدوء والانتباه أثناء سيره . ثم اعتلى المنصة واستدار ليواجه طلبة الفرقة الذين وقفوا جميعا . وعندئذ انبعث صوت الاستاذ قائلا ــ « جلوس » ولكن لوقا ظل واقفا يرواده احساس المغامر عندما يقرر البدء فى لعبة ما .

وفى أثناء ذلك كان الاستاذ نفسه قد اتخذ مكانه حيث فرك يديه وأخرج من جيبه منديلا نظيفا نشره وتمخط فيه ثم أعاده الى جيبه مستقرا فى جلسته فى مزيد من الراحة ــ فعل كل هذا دون أن يرفع بصره عن سجل المدرسة الذى وضع مفتوحا على مكتبه . ولم يسع لوقا الا أن يتخيل أنه لو كان فى مكان الاستاذ لعد حركاته تلك التى تتكرر كل صباح طغيانا لا يحتمل . وكانت هذه الحركات تمهيدا لحركات اخرى كانت أيضا لا تفتأ تتكرر . وفى تلك الاثناء كان لوقا لا يزال واقفا . وبعد مافحص الاستاذ السجل رفع بصره نحو الفرقة حيث رأى لوقا واقفا فسأله قائلا فى هدوء ــ « ماذا هناك يا مانسى ؟ »

فتساءل لوقا قائلا ــ « هل أجيبه أم لا ؟ » ثم قال بصوت واضح ــ « لا شىء » فقال الاستاذ ــ « اذا لم يكن هناك شىء اذن فلتجلس » وكان الاستاذ يتميز بصوت قبيح

بارد اللهجة محكم النبرات ، ومع ذلك فقد كان من الواضح أنه مغرم بالاستماع الى نفسه .

عندئذ لم يفتح لوقا فاه بل ظل واقفا . فدهش الاستاذ قليلا ثم نظر اليه وردد كلامه قائلا ــ « هل سمعت ما قلته ؟ اجلس »

وساد الصمت مرة اخرى ــ عندئذ كان الطلبة جميعا ينظرون الى لوقا فى دهشة لاهثة . فحملق فيه الاستاذ وأردف قائلا فى صوت رقيق ــ « هل هناك ما تريد أن تقوله ؟ »

فأجابه لوقا قائلا ــ « ليس لدى ما أريد أن أقوله » ثم جلس فى مكانه فجأة . وتنهد الطلبة جميعا فى ارتياح . أما الاستاذ فقد رماه بنظرة فاحصة ثم مالبث أن التفت مرة اخرى الى سجله دون أن ينبس بكلمة . وكان الدرس فى قصيدة (المطهر Purgatorio لدانتى (١) وكانت طريقة الاستاذ المألوفة أن يختار أحد التلاميذ ممن يمتازون بحسن الالقاء ويكلفه بقراءة فصل من القصيدة أو جزء من فصل بصوت عال . ثم يعقب ذلك تعليقه عليه . ومر الاستاذ بأصبعه على قائمة الاسماء فى السجل وكاد لوقا أن يقطع بأنه سوف يختاره هو للقراءة فى تلك المناسبة . وكانت لذلك أسباب ثلاثة : أولا أنه يجيد القراءة للغاية وثانيا أنه لم يكلف بذلك منذ بعض الوقت وثالثا وهو السبب الرئيسى أن الحادث الصغير الذى تسبب فيه ببقائه واقفا ان جاز لنا هذا التعبير قد ميزه عن باقى زملائه وجذب اليه انتباه الاستاذ .

وامكنه ان يرى أصبع الاستاذ وهو يمربها على العمود الاول من الأسماء ثم اذا بها تتوقف عند رأس العمود الثانى وهو يقول ــ « مانسى . »

---

(١) Alighieri Hanté (١٢٦٥ ــ ١٣٢١) شاعر ايطالى كتب الكوميديا الالهية وهى تحكى رحلة المؤلف الخيالية خلال الجحيم والمطهر والفردوس .

وبدا للوقا ان أى استاذ آخر فى نفس الموقف ربما اضاف الى دعوته للقراءة بصوت عال ملحة ما او ملاحظة المعية تتعلق بالحادث ــ كأن يقول مثلا « لما كنت شديد الكلف بالوقوف اذن فيحسن بك ان تأتى الى هنا وتقرأ » ولكن ذلك الاستاذ كان جادا ولا يعرف المزاح • فقد كان من بين اولئك المدرسين الذين يحتقرون مهنتهم ويعلمون التلاميذ بطريقة تتسم بالتنازل والانعزال رغم ما فيها من عناية ودقة وكأنهم يريدون ان يفهم الناس عنهم أنهم لو شاءوا لاجادوا •• ومع ذلك فان لوقا الآن عليه ان يحزم امره هل يستجيب لهذه الدعوة أم لا •

وكان جاره فى القمطر يناوله فى قلق كتاب الكوميديا الالهية Divina Commedia وقد فتح فعلا عند الصفحة المطلوبة بينما أخذ الاستاذ يقلب فى هدوء صفحات نسخته الخاصة • وخطر للوقا ان مدرسيه وزملاءه جميعا كانوا يريدون له ان يحيا ويواصل الحياة • وطرأت على ذهنه ذكرى المربية فأحس بقوة فى عزمه وتصميمه • فسوف يطيعه مؤقتا ولكنه ما ان يعاوده الشعور بطبيعة اعماله العادية حتى يتمرد • وادرك انه لن يقوى على التمرد الا اذا اكسبه ذلك الطابع الآلى المدقق الذى تتميز به الألعاب • فتناول الكتاب وغادر قمطره الذى كان من بين القماطر الاخيرة فى نهاية الغرفة • ثم سار نحو المنصة •

ولاحظ ان الغرفة قد عتمت على صورة واضحة • كما اخذت أولى قطرات المطر تصطدم بزجاج النوافذ حيث تنتشر فى رقاع عريضة سائلة تتساقط منها قطرات اخرى صغيرة فى خطوط لامعة • وفجأة وجد نفسه يسير فى هدوء نحو المنصة ممسكا بالكتاب فى يده • واذا به يتوقف فى نفس اللحظة •

وقف ساكنا وقطرات المطر تتدفق على زجاج النوافذ بينما كان الاستاذ والطلبة ينظرون اليه • واخيرا سأله الاستاذ قائلا :
« ماذا تفعل بوقوفك هناك كالعمود » ؟ •

عندئذ كان لوقا يتسأل كم يمكن ان يطول وقوفه هناك

دون ان ينزل به عقاب ما • بل لقد بدا له ان العقاب افضل من الطاعة الآلية المألوفة • فهو على الأقل يكشف تماما عما فى الحياة من طبيعة قهرية عميقة عارية من المظاهر الكاذبة الخداعة ثم سمع الاستاذ يردد مرة اخرى وسط السكون قائلا له : « انى اتحدث اليك • اجبنى • هل انت مريض ؟ »

وسرت فى ارجاء الغرفة تمتمة مختلطة لم يلبث الاستاذ ان قطعها فى الحال بطرقات مسطرته على مكتبه وهو يصيح قائلا ـ « أصمتوا » • ولكن الوقت عندئذ قد حان • فقال لوقا فى جهد ـ « لاشيء » وأحس ان ساقيه كانتا تحملانه الى الأمام تجاه المنصة • ثم سرت همهمة أخرى من الاصوات الخافتة وللمرة الثانية أمر الاستاذ التلاميذ بالصمت ولكن فى لهجة أرق دون أن يطرق المكتب بمسطرته • ثم التفت نحو لوقا وقال له فى ايجاز ـ «اقرأ ابتداء من السطر الخامس بعد الثمانين من الفصل الخامس » فخفض لوقا عينيه نحو كتابه وبدأ يقرأ قائلا : (١)

Poi disse un altro: Deh se quel disio
si compia ehe ti tragge all'altro monte
Con buona pietate aiuta il mis
Io fui di montefeltrs, is son Buonconte

كان لوقا يمتاز دائما بالالقاء الرائع • وبدا الاستاذ وقد عاوده هدوءه عند سماعه صوته وهو يقرأ بطريقة هادئة معبرة • كما سرت بين الطلبة فى الهواء المعتم نسمة ارتياح • وواصل لوقا قراءته فى صوت قوى واضح • ومع ذلك فقد وثب عقله فى نفس الوقت خارجا من رأسه ـ ان جاز لنا هذا التعبير ـ وكأنه قد وهب حاسة التواجد فى كل مكان فى نفس اللحظة ثم اتجه الى الطرف الآخر من غرفة الدرس حيث

---

١ ـ وقال آخر « لو تحققت رغبتك فى صعود الجبل فهلا اشفقت على وساعدتنى على تحقيق أمنيتى أنا بونكونتى من مونت فولترو »

علقت على الحائط سترات وقبعات • وأخذ ينظر اليه من هناك • فأثار هذا فى نفسه مرة أخرى ذلك الشعور « بالعادية » وقد توارت له خلف مظهر من الغرابة والقهر وكان شعورا أليما وسارا فى نفس الوقت • ولكنه بدا فى نفس الوقت انه يقرأ بقوة متتبعا معانى الالفاظ التى كانت تتفق مع احساسه على صورة غريبة • فتذكر تلك المرات العديدة التى كان يرغب فيها بل يتودد الى ميتة خفية مجهولة وحيدة غامضة • وما أن بلغ الاسطر التالية : (١)

Dove il vocabol sus diventa vans,
Arriva'is' ferats nella gola
Fuggends a piede e sanguinands il pians
Quivr perdei la vista, e la parola
Nel nome di maria fini, equivi
Caddi, erimase la mia carne sola.

حتى فاجأه شعور بالشفقة الغامضة الشوهاء فأحس بالاختناق • انها شفقته على نفسه التى حركت عواطفه عندما خطر له لأول مرة أن يموت قتيلا ثم يدفن فى الحدائق العامة • وارتفع شعوره هذا الى سطح وعيه فى صورة نداء لأداء واجب يتسم بالجدية والكآبة ولكنه لا معدى عنه • واستمر فى قراءته بصوت أقل ثباتا ولكنه عميق وجياش بالعاطفة • وألح عليه اعتقاده انها لعبة فى صورة رغبة فى العناد والعصيان • ولكنه امتزج عندئذ على صورة غريبة بذلك الاحساس الحاد

---

(١) ذلك النبع الذى تغير اسمه عما كان عليه
اليه وصلت وفى عنقى جرح غائر .
هاربا على قدمى وملوثا العشب بالدماء
هناك نقطت بصرى ولم أعد أستطيع النطق
وكان اسم مريم هو آخر ما نطقت به •
هناك أسلمت الروح ولم يبق منى سوى الجسد .

المفاجىء بالشفقة • وما ان قرأ بعد ذلك بضعة سطور حتى أخذ يتساءل عما اذا كان يستمر في قراءته وهو يعلم جيدا أن تساؤله هذا كان يعني توقفه عن القراءة • وفي الواقع فانه ماكاد يصل الى البيت الذي يقول : (١) Indi la valle come il di fu spento حتى انقطع عن القراءة •

وساد الصمت لحظة • فسأله الاستاذ قائلا : « ثم ماذا ؟» وران على الغرفة ذلك السكون الذى تنقطع معه الانفاس انتظارا لحدث خارج عن المألوف • كان الجميع فضلا عن الاستاذ ينظرون اليه• ولكن لوقا لم يعد يرى او يسمع شيئا فقد خيل له أنه (بوكونتي – الح Buoncente وقدرقدميتا عند ملتقى النهرين • كما تراءت له السحب المحملة بالامطار تسوقها نفحة من ريح مثلجة وهي تهبط من قمة الجبل الخفية نحو المكان الذى رقد فيه على صورة سنابك رمادية هادئة تلف جسده في سكون وضباب • ومن خلال هذا الضباب بدأ المطر يتساقط فوقه ومن حوله وهو يثقب الارض المبللة وينتشر على شكل دوامات فوارة ليصب في بحيرة ارتفعت مياهها الجياشة واختلطت بدورها بمياه النهر الفياض فارتفعت ورفعت معها جسده الذى أوشك أن يغمره ثم جرفه بعيدا • وبينما كان المطر الغزير ينهمر أخذ ينزلق خلال المياه الثائرة وقد رقد على ظهره باسطا ذراعيه • وفجأة أحس بألم حاد • وما أن سمع اسمه حتى رفع عينيه فاذا بدمعتين تنحدران على وجنتيه •

كان الاستاذ ينظر اليه في دهشة واحتقار • وسأله قائلا: « أتسمح لنا بأن نعرف ماذا دهاك ؟ هل تنوى القراءة أم لا؟»

وخطر للوقا انه كان من الواضح عندئذ وجوب استمراره في الدراسة حتى النهاية حتى ولو كان يرغب في الموت • فانتظر لحظة ثم سأل قائلا : « هل استمر ؟ »

(١) « وعندما انقضى النهار كان الوادى الذى انتشر فوقه • • • • »

وسرت فى أرجاء الغرفة المعتمة ثرثرة عنيفة من النقـــد • فأشار الاستاذ لطلبة الفرقة بالتزام الصمت والتفت الى لوقا قائلا : « أين تتخيل نفسك اذن ؟ عليك أن تستمر بالطبع • » وألحت عليه عاطفتــه • وتوقفت الدمـــوع فى منتصف الطريق على وجنتيه حيث كانت تدغدغه على صورة بغيضة • وحدث لوقا نفسه قائلا : « سأقرأ حتى نهاية قصة بوكونتى

لانها قصتى ••• ثم أتوقف • » واستجمع شـــجاعته ثم بدأ يقرأ مرة أخرى فى صوت زاد من وضوحه وقوته انه كان يعلم بينه وبين نفسه علم اليقين ان مايقرؤه لم يكن وصــفا لموت احدى شخصيات دانتى بل لموته هو • وخيل له عنــدئذ أن الاستاذ لم يكن ينصت اليه بقدر ماكان يراقبه فى فضول • وكذلك فان بقية الطلبــة عندئذ بدوا وكأنهم يتوقعــون منه تصرفا غريبا جديدا • وقرأ بعد ذلك فقرتين جديدتين دون أن يتعثر لسانه • ثم توقف مرة أخرى كما تنبأ تماما عنــد السطر القائل : Poi di sua preda mi coperse e cinse (١)

وعندئذ انفجر الطلبة جميعا فى ثرثرة مختلطة تكاد البهجة أن تشيع فيها رغم مايشـــوبها من انزعاج فى نفس الوقت • ولم يحاول الاستاذ ان يهدىء الضجة بل التفت الى لوقا قائلا فى صوته الطبيعى : « انك لست على مايرام •• خذ حاجياتك وامض الى المنزل••وبعد بضعة ايام سوف نتحدث فى الامر• »

وود لوقا لو أجابه قائلا : «انى بخـير • » ولــكنه أحس برجفة تسرى فى بدنه أعقبتها موجة من الســخونة الرطبــة المحمومة فاعتقد ان الاســتاذ ربما كان على حق • ومــع ذلك فقد حدث نفسه قائلا انه اذا ما أبى ان يكون كمايريده الناس أو كما يعتقدون انه كذلك فاما ان ينزل به العقاب أو يظن به المرض • وقد استغرق تفكيره ذلك الخاطر وهو يجمع الكتب

---

١ — ثم غمرنى بكل ما أحرز من أسلاب

التى أخذ جاره يخرجها له من داخل القمطر فى جزع مشفق مذعور ويناوله اياها واحدا بعد الآخر • كان الجميع ينظرون اليه فى صمت •• وعندئذ أخذ المطر يتدفق على زجاج

النافذة • ولم يستبع لوقا الا أن يقول لنفسه انه ذلك المطر نفسه الذى سبق ان تراءى لمخيلته وهو يغطى جثته ويجرفها معه • وضع كتبه تحت ذراعه واتجه نحو نهاية الغرفة • فاستدار ثلاثون رأسا لمراقبته أثناء خروجه • وقال الاستاذ مناديا تلميذا آخر من الفرقة : « لوياكونو • » تناول لوقا معطفه وفتح الباب ثم غادر غرفة الدرس •

وهرول خلال الدهاليز المقفرة حيث أمكنه أن يرى من خلال أبواب الغرف الاخرى المفتوحة صفوف القماطر وقد جلس اليها الطلبة فى انتباه كما أمكنه ان يسمع وسط السكون المحيط أصوات الاساتذة المنفردة وهم يحاضرون • كانت أشبه بأصوات الكهنة وهم يرتلون الصلاة على صورة آلية فى كنيسة ما • وكان رجع الصدى فى الغرف الكبيرة يجعل من المستحيل عليه ان يميز معانى الالفاظ • هبط الدرج ووقف يتطلع الى الطريق بانتعاش مفاجىء وقد ابتلت ملابسه بالماء • وأخذ المطر يهطل بغزارة بينما يسمع خريره على الارصفة • كما ارتسم فى الهواء بياض مخطط بالمطر • ومن خلال ذلك البياض وتلك الخطوط المائية كانت ترتعش بين الفينة والفينة لمعة قوية من وميض البرق • وسمع عن بعد هزيم الرعد وعلى مسافة أقرب قعقعة مدوية كصوت انهيار صخور مقلقلة انتهت بانفجار حاد بدا وكأنه يؤذن بانهمار المطر من جديد • ثم خطا الى خارج الباب وبدأ يسير عارى الرأس خلال الطوفان •

وخيل له أن المطر قد أحال البلدة كلها الى ماء • فبدت المنازل وكأنها أعمدة منتصبة من المياه الرمادية وبدت الافاريز وكأنها مسطحات من الماء الخرافى المائل الى الصفرة •

كما بدت أشباح المارة المعتمة المبهمة وهم يركضون ليحتموا

من المطر بمداخل الدور — بدت أشباحهم أيضا وكأنها مائية . وكذلك بدت أعمدة المصابيح التى أخذت تموج كالحيات السوداء النحيلة وكتل عربات الترام المائلة الى الخضرة التى أخذ يتضخم حجمها وهى تدنو نحوه من الطرف القصى للشارع . كان المطر ينهمر فى اتجاه معين ثم لايلبث أن يغيره عندما يتغير اتجاه الريح حتى تخاله يسير طبقا لنظام معين . وأحس لوقا بالماء يتدفق من شعره الى خلف عنقه ثم يتسلل الى داخل قميصه حيث ينحدر على ظهره . وابتلت الكتب تحت ذراعه . ثم خطا فى بركة من الماء وخاض فيها حتى بلغ الماء رسغيه .. وبعد ذلك أخذ يراوده فى كل خطوة ذلك الشعور البغيض بأن قدميه تفرزان الماء وهما محتبستان فى حذائه الزلق المنتفخ . وهكذا فقد بلغ منزله وهو يسير ببطء فى الماء وخلال الماء .

وما أن وصل الى غرفته حتى ارتمى على الفراش وانتابته الرجفة فى جميع أجزاء بدنه . وكانت تهزه من أعلى رأسه الى أخمص قدمه دون أن يستطيع السيطرة عليها . وفى داخل فمه كانت أسنانه تصطك فى قعقعة مدوية وكأن له فى جمجمته صفين من النرد بدلا من الاسنان . وكان يحس بالالم فى جسده كله . وفى بعض اللحظات كانت تسرى فى بدنه وتستحوز على وجهه سخونة عنيفة بدت وكأنها محفوفة بالجليد .

ثم سمع الباب يفتح ولم يتحرك . كان مضطجعا على ظهره . ورأسه فى طرف الفراش وقدماه على الوسادة : وسمع أمه تسأله قائلة : «ماذا تفعل ؟ وما خطبك ؟ ولم لم تذهب الى المدرسة ؟ » فأجابها قائلا على مضض : « أخالنى مريضا . ». فأحس بيد تربت على جبهته ثم سمع أمه تهتف قائلة : «انك ملتهب من السخونة ... عليك أن تلزم الفراش فى الحال .». عندئذ بدأت أجراس الكنيسة القريبة تدق معلنة انتصاف النهار .

ظل لوقا مريضا حوالى ثلاثة شهور • ولشد ماصفا ذهنه طوال الشهور الاول من مرضه رغم شدة ارتفاع درجة حرارته • ولكن ذلك الصفاء كان يبدو له أحيانا حادا على صـورة غير طبيعية بل كثيرا ماستحال الى انفعال عنيف او حديث ثائر لا لسبب الا لتلازمه مع حالة مرضـية محمومة • ولم يعـد يستعجل المنية • فقد كان على يقين من المـوت ، ورضى بذلك اليقين • ولما كان مقتنعا بدنو أجله فما كان عليه الا أن يرقب الموت وهو يقترب منه ويستمد من ذلك متعـة خفية • والآن لم يعد يكره نفسه كما كان يفعل من قبـل عندما ييأس من قدرته على متابعة سياسـة التمرد حتى نهايتها القصـــوى • وراوده بدلا من ذلك شعور بالازدراء الظافر تجاه تلك القوى الكائنة فى نفسه والتى مازالت تقاوم وما زالت تبغى ربطـه بالحياة • انها هى التى جعلته يحب دراساته وأباه والمربيـة والتى صارت الآن وقد تجردت من دعائمها السابقة تتشبث بالقشات الاخيرة قبل أن تغوص نهائيـا فى طوفان المـوت الأسود ـ وكانت تلك القشات تتمثل فى المرق الذى يرغمه الخادم على تناوله جرعة جرعـة وفى شعاع شمس الشـتاء الذى يبلغه وهو راقد فى فراشـه كما تتمثل فى عينى أمـه الحزينتين وفى تعبير أبيه القلق المنزعـج • كان راغبـا فى الموت وكان على ثقة من انه سيموت • غير انه عندما قالت له أمه بلهجة حزينة ولكنها مشجعة : « هيا • زد من طعامـك قليلا ••• فانه سيعينك عـلى الشـفاء • » عندئذ حالت تلك القوى الحقيرة فى نفسه دون أن يرد عليها كما كان يود قائلا: « ولكننى لاأبغى الشفاء بل أرغب فى المـوت • » كما أرغمته على أن يبتسم لها فاغـرا فاه • بيد انه كان يعـزى نفسـه بتصوره أن تلك تنازلات من أجـل حياة الآخرين وليس من أجل حياته هو التى كانت عندئذ قد أقلعت ورحلت بلا عودة من تلك الشواطئ التعسة التى طالما تكأدت بجانبها •

ولشدة ما قوى فى نفسه تحت تلك الظروف ذلك الازدواج

الذى تقمص حياته منذ أن بدا له الموت حلا وحيدا لمشاكل علاقاته بالعالم ـ حتى اكتسب ذلك الالتئام الحاد الذى تتميز به كوميديا الاخطاء • فكان مع والديه يلعب منقادا دور المريض المتماثل للشفاء وقد صار عنده فى دوره هذا متعززا تماما • كما كان يلعب دور الطالب الذى لن يلبث ان يعود الى دراساته ودور الفتى اليافع الذى سوف يكبر ويصير رجلا • ولكنه لايكاد يخلو الى نفسه لحظة حتى لايعدو أن يكون وهو فى كامل وعيه وتمام رضاه ذلك الرجل المحتضر الذى يترقب دنو أجله بنفس عامرة بالامل • وكان يجد متعة فى قياس درجة حرارته فى الصباح الباكر وفى مشاهدة ذلك العمود اللامع داخل ميزان الحرارة وهو يثب بسرعة مرتفعا الى أقصى الدرجات • وكان خلال ساعات الاصيل الطويلة عندما ينتابه سباته المحموم يجد متعة فى احساسه بالمرض وهو يطغى على وعيه • كما كان يمتعه أثناء الليل أن يتصور احدى سنات النوم الخاطفة المليئة بالعرق والحمى التى كان يستسلم لها من وقت لآخر ـ وقد استحالت الى موت دون أن يعى ذلك • وقد اكتسب حنينه الى الموت عندئذ حدة غريبة ومادية محسوسة حتى كاد يبدو أنه يتوق الى الموت بنفس الشهوانية التى كان يتوق بها فى وقت من الاوقات الى أحضان المربية • وأحيانا كان يخطر له أن الموت ربما كان هو المتعة الحقيقية الوحيدة التى تدخرها الحياة للجنس البشرى •

وكانت أمه أحيانا تضع الخطط لمستقبله • فقالت له ذات يوم ـ « عندما تترك المدرسة يجب أن تحصل على درجتك •• فان درست القانون أمكنك أن تعمل مع والدك وأن ترث عنه عملاءه ومكتبه •• وعندما يحين الوقت المناسب عليك أن تقترن بفتاة من أسرة طيبة •• ولكن يحسن بك قبل الزواج أن تسافر قليلا لترى جانبا من العالم • فأنا ووالدك متفقان فى ذلك • فيجب أن تذهب الى فرنسا وانجلترا ... وبهذه الطريقة تلم أيضا باللغات عن طريق التحدث بها فور الساعة •

فقال لوقا متظاهرا بأخذ برامج أمه مأخذ الجد ـ « ولكن السفر على هذه الصورة يكلف نفقات باهظة • »

فأجابته أمه قائلة في كبرياء ـ « سوف نكفلها لك • فنحن ميسورو الحال •• ولن تفتقر أبدا الى النقود مادمت تستغلها فيما يفيدك • »

وتمنى لوقا لو هتف قائلا ـ « ولكني لن أقصر فقط عن الحصول على الدرجة أو السفر الى الخارج أو الزواج • بل ان قدمي لن تلمسا الارض مرة اخرى • » ومع ذلك فقد نجح في السيطرة على نفسه رغم ما أثارته تأكيدات أمه وعدم فطنتها من سورة غضب أحس معها بقلبه وقد ضاعف من دقاته وبأسنانه وهي تطحن بعضها البعض على الرغم منه • ثم أجابها بصوت ينبيء بطمع صبياني قائلا ـ « ولكني أحب أيضا أن أسافر الى ألمانيا • »

وقد بدت له عندئذ بعض دقائق الحياة التي لشد ما كان يهتم بها في وقت من الأوقات والتي كانت محمودة في حد ذاتها وقد ألقى بها بعيدا ـ كالصحيفة التي كان يأتي بها والده ويقرؤها في غرفته عقب تناوله الوجبات مباشرة وبينما كان ينظر الى أبيه وقد تحددت معالم هيكله على النافذة من خلفه والى الجريدة المفتوحة بين يديه اذا به يمتلىء نفورا من العالم الذي نشرت فيه تلك الجريدة وبيعت وقرئت • ولم يكن ذلك راجعا الى عبث الأشياء التي تحتويها الصحيفة ـ ذلك العبث الذي كان عندئذ قد استبعده ـ بقدر ما كان راجعا الى سخف الشيء نفسه وعدم جدواه ـ تلك الورقة الرقيقة المبسوطة بما عليها من علامات سوداء تتابعها عينا والده في سرعة وصمت • ذلك هو العالم الذي كانت تحدث فيه أشياء من هذا القبيل لا حصر لها ولا مبرر بل ولا سبيل الى تبريرها ـ عالم كان يسير فيه كل شيء بلا هدف وعلى صورة آلية بقوة التصور الذاتي ، وكان يسره اعتقاده أنه لن يلبث أن يترك ذلك العالم ولم يكشف عن حقيقة تفكيره سوى مرة واحدة ولمدة لحظة واحدة صار فيها

هذا التفكير انفراديا بدلا من ازدواجه • وذلك عندما فكرت أمه في الترويح عنه فأخذت تبحث عن مجموعة طوابعه • وتركها تنقب قليلا هنا وهناك باحثة عنها دون جدوى ثم قال لها « أنها لم تعد هناك • فقد تبرعت بها • »

ولم يسع أمه الا أن تهتف قائلة في انفجار فجائي غاضب « ماذا ؟ تبرعت بها ؟ » ثم بدا عليها أنها تذكرت مرضه فأردفت قائلة في صوت أرق : « ولكن لماذا تبرعت بها ؟ •• ما الذي طرأ على ذهنك ؟ »

فأجابها لوقا قائلا في صوت يكاد ألا يسمع — « تبرعت بها لأني كنت أعلم أنني سأموت • »

لم يكن هذا الكلام صحيحا في مجموعه • فانه في الواقع لم يتبرع بمجموعة طوابعه لانه كان يعلم أنه سيموت بل لانه أراد أن يموت • ولكن أمه انزعجت • وما ان رمته بنظرة سريعة حتى قالت له فيما يشبه قسوتها القديمة — « والآن لا تتفوه بلغو فارغ •• فماذا تعني بقولك انك ستموت ؟ انك مقبل على الشفاء • »

وخيل للوقا أنه يتمثل في هذه الكلمات كل ما كافح من طغيان طوال هذا الزمن • وعندما غادرت أمه الغرفة قال بصوت عال وبلهجة متحدية — «من ذا الذي يقول انى سأشفى؟ فاني ميت لا محالة • »

ومع هذا فان حنينه للموت ذلك الوقت — كما كان بلا شك قبل مرضه — لم يظهر له قط في زى نزوة انتحارية • ولو أن أحدا حدثه عن الانتحار لانتابته الدهشة بلا شك وذلك لان هذه الكلمة — فضلا عن الفعل — لم تطرأ قط على ذهنه • حتى وهو يعاني هزال المرض كان حنينه للموت يكاد يبدو له بنفس الطريقة التي كان لايفتأ يبدو بها له كلما فكر فيه في وضوح وتصميم — كتضحية ضرورية وكنهاية لا محيص عنها لسلسلة من التضحيات الأخرى الصغيرة • واستلفت نظره أن تلك التضحية كانت مريرة • ولكن مرارتها لم تكن من ذلك النوع

الذى يوحى به قدر ظالم • بل الأحرى أنهــا كانت من ذلك النوع الذى يحس به من يشعر بضعفه ووحدته فى مواجهــة عمل ضخم ويعلم أنه لن يستطيع القيام به الا بتضحية كبيرة من جانبه ــ كانت مرارة لا سبيل الى التعبير عنها وقد اختلطت بفرحة لايمكن وصفها وكأنه يدرك أنه بموته ســوف يحقق هدفا كان يسعى اليه طيلة حياته • ولو انه سئل عن ذلك الهدف لما أمكنه أن يجيب • ولكنه كان يعلم على وجه اليقين أنه مظهر من مظاهر الحب حتى ولو كان ذلك لانه يدفعــه الى البغض الشديد •

وذات ليلة خيل له أنه يموت حقا أو بالاحرى أنه أدرك حقا مايعنيه حنينه للموت • فقد كان نائما ثم استيقظ فجأة عــلى صدمة مؤلمة وهو يحس بجسده كله ــ الذى خف وزنه الآن لهزاله ــ يجفل فى عنف الى أعلى تماما كما تبرز الشجيرة الذابلة الى خارج التربة عندما تجذبها اليد التى أتت لتجتثها • نظــر حوله فتراءت له الغرفة على ضوء المصباح المشتعل طيلة الليل على المنضدة الصغيرة بجانب فراشه وقد اكتسى مظهرها العــام بحدة أليمة جديدة • فقد بدت وكأن ذبذبة كثيرة متزايدة قد أخرجت كل ما فيها من أشياء عن حدوده المألوفة كما بدا الهواء مخلخلا تملؤه ومضات من الضوء • ومع أن قطـــع الاثاث والاشياء الاخرى مازالت بأشكالها غير أنها بدت مشـــحونة بالمعانى واكتست بتعبير عدائى منذر • لم تكن تتحدث ولكنها بدت وكأنها تتهامس فيما بينها بأصوات خفيضة شريرة • وكان من تأثير تلك الحدة التى تذكر المرء بما يكون عليه الساخطون من الناس وهم يتيحون لمشاعرهم المنذرة التى تترع بهـــا نفوسهم أن تنضج على صورة ملحوظة دون أن يأتوا حركة أو ينبسوا بكلمة ــ كان من تأثيرها أن نقلت الحقيقة على بعــد مؤلم كما أوحت اليه لاول مرة بفكرة الموت فى صورة عملية سحرية تتيح له أن يخلق عالما أقل سخفا وأكثر حبا الى النفس وقربا منها حيث يبرر الحب كل شىء • وأدرك أن فكرة الموت لم تكن تنبع من نفسه بقدر ما كانت تنبع من الحقيقة فى خارج نفسه وذلك لكى يضفى الانسجام على تلك الحقيقة ويعيدها الى

الحياة • فذلك الصوان وتلك الخزانة وذلك الرف الذى يحمل الكتب بل تلك الغرفة بأسرها ـ وكذلك والداه ومدرسته ومدرسوه وزملاؤه وهو نفسه راقدا هناك في فراشه ـ كل ذلك كان شيئا عاشه في حلم خلال سنوات حياته جميعا كما يعيش الانسان حلما مخيفا غامضا مزعجا ولايمكنه مهما بذل من جهود أن يدخل عليه شيئا من النظام أو المعنى • فهو فى الواقع لم يبدأ حياته عند مولده بل الأحرى أنه بدأ يرى أحلاما مخيفة سخيفة • وخيل له أن موته كان بلا شك أمرا جوهريا وأنه يجب أن ينتهز فرصة بلوغ حلمه المزعج أقصى درجات العنف ليصرخ مرة واحدة ثم يستيقظ •

وتذكر أنه سبق أن راوده نفس الاحساس بالحلم المزعج فى تلك الليلة البعيدة عندما رأى والديه من مدخل غرفتهما وهما بملابس النوم وقد امتلأت أذرعتهما بالنقود وكانا ينزلان عن الحائط صورة العذراء فكشفا عن الخزانة المصنوعة من الصلب • وأدرك فجأة أنه من أجلهما كان يبغى الموت ومن أجل العالم الذى يشكلان جزءا منه وذلك لكى يتخلص مما كان يوحيان به اليه من شعور بالكراهية والسخف حال دون أن يحبهما كما كان يتمنى أن يفعل • وبدا له فجأة أن عملية الموت كانت فى الواقع تتوقف عليه وحده ولشد ماتيسر عندئذ القيام بها وقد علم أنه لايموت من أجل نفسه بل من أجل غيره من الناس • وارتسمت على شفتيه ابتسامة واهنة راضية عندئذ أمكنه أن يحس بالحمى المرتفعة وهى تلف أطرافه بغلالة ملتهبة من العرق وهو راقد تحت كومة من البطاطين المحكمة • وبينما كان يراوده احساس بالاستسلام للموت وابتسامته مازالت مرتسمة على شفتيه أغمض عينيه واستغرق فى النوم •

ـ ١٣ ـ

ولكنه بدلا من أن يغشاه الموت انتابه الهذيان • فجلست حول فراشه فى وقار مجموعة من الحيوانات البدائية ذوات الخراطيم الطويلة وكأنها جمع كبير من الاطباء الجالسين الى جانب

فراش رجل يحتضر . أخذت هذه الحيوانات تميل برءوسها الى الأمام والى الخلف ثم ارتمت كلها جاثية حول الفـــراش مادة خراطيمها فوق أغطيته كما تتجمع الكلاب حول عظمة • ولشد ما أفزعت لوقا هذه الخراطيم الرمادية الطـــويلة المرنة الجافة المشققة وقد نبتت بها هنا وهناك شعرات قصيرة متصــــلبة انتصبت واقفة كالدبابيس • وفي طرف كل شعرة مصاصـة تحيط بها أهداب مرتعشة تتلألأ فى وسطها كالماســـة عين محملقة فيه • وكان أضخم هذه الحيوانات الهائلة وأهمهـــا جالسا عند اسفل الفراش مادا خرطومه بين ساقى لوقا • وأخذ الخرطوم يطول ويطول ملتويا متموجا حتى امتد نحو بطنه • فأمسكه بكلتا يديه وهو يبكى ويصيح محاولا أن ينحيه جانبا • ولكن الخرطوم كان صلبا رغم مرونته ولم يفتأ حجمه يتضخم وهو ممسك به بين يديه حتى امتد نحو وجهـــه • وفى تلك الاثناء أخذت تظهر على الحائط بالقرب من الباب زوائد خضراء على شكل أصابع ملتوية سرعان ماتكاثرت حتى تكون فى النهاية شلالا متموجا من النباتات المعروفة باسم « مخالب الساحرات » ولها أسلاك ملتوية الى أعلى كالمخالب • وكان النبات معلقا على الحائط فى نفس المكان الذى كانت تقوم فيه عادة حمـــــالة الملابس • وقد بدا وكأنه خرج من شق واسع أسود على شكل أذن ظهر فى الحائط • عندئذ أخذت تطير فى الهواء هنا وهناك قبعة سوداء عريضة الحاشية اتجهت نحو الحائط حيث تعلقت باحدى الزوائد المخلبية فى ذلك النبات • وتبعتها قبعـــات أخرى أخذت تطير خلال الهواء الشاحب وكأن يدا ماهرة كانت تقذف بها ــ قبعات رجالية كبيرة سوداء مستديرة وقبعـــات نسائية صغيرة تتلألأ « بالترتر » وتزدان بالريش من مختلف الألوان وقبعات على أشكال غريبة لم يسبق له أن رآهـا قط فى حياته • أخذت كل هذه القبعات تتساقط على النبات حتى غطته وأخفته تماما • ثم اذا بالنبات المحمل بالقبعــات ينتزع نفسه فجاة من شق الحائط متحركا عليه بسرعة هنا وهنـاك صاعدا هابطا كسحلية ضخمة اكتست بالدروع من رأسها الى

ذنبها • بدت وكأنها تحاول أن تهبط الى الارض لتلقى بنفسها على فراش لوقا ولكن الغرفة لحسن الحظ كان يغمرها ماء أسود ساكن حتى نصفها • وكان ذلك المخلوق كلما بلغ الماء انسحب الى الخلف فى نفور واضح ثم أسرع متجها نحو السقف مرة أخرى • وثمة حيات طويلة سوداء نحيلة ورشيقة كانت فى أثناء ذلك تبرز من الماء وتتمايل رؤوسها المسطحة فى هذا الاتجاه وذاك • ومن وفوقها يحوم فى ثقل طائر أحمر كبير أخذ يطير من احدى زوايا السقف ويهوى الى سطح الماء ثم يرتفع مرة أخرى نحو الزاوية المقابلة • وكثيرا ما كان الطائر يمرق فوق سطح الفراش فاستطاع لوقا أن يرى رأسه وكانت به عين مستديرة بيضاء بدت وكأنها من الزجاج ومنقار أقنى ضخم • وانقض الطائر على أحدى الحيات فأمسك بها بطرف منقاره ثم جذبها الى خارج الماء وما لبث أن طار بها فى الحال نحو أعلى مرة أخرى • فأخذت الحية تدور وتتلوى كشريط يرفرف فى الهواء بينما يجذبها الطائر هنا وهناك ويجرها معه فى أرجاء الغرفة • ولكن ثمة شرخا عميقا كان عندئذ قد حدث فى الحائط من مكان الشق الذى خرج منه النبات حامل القبعات وأخذ يتلوى الى أعلى عبر الحائط ثم واصل طريقه عبر السقف وما لبث أن ظهر فى داخل هذا الشرخ سرب كثيف للغاية من حشرات بنية لامعة سقطت احداها من السقف على الفراش بين ساقى لوقا ثم تلتها حشرة أخرى وثالثة • وبعد ذلك سقطت مجموعة بأسرها ثم مئات منها وآلاف حتى أظلمت الدنيا • وعندئذ اكتسى الفراش كله ببساط لم يفتأ يموج بها بينما انطلقت صرخات لوقا مستغيثا ليأتى من يبعدها عنه وعندما بدا له أنه يصعد نحو بطنه أخذ يدفعه الى الخلف بكلتا يديه • وما ان دوت صرخاته حتى انطوى البساط عند أسفل الفراش وهناك بقى ساكنا كاسطوانة هائلة حاشدة • وحينئذ جذب انتباهه خطر جديد • فقد احتبس فى داخل قنانى العقاقير التى ازدحمت بها المنضدة الصغيرة المجاورة لفراشه عدد من الأقزام الصغار البشعين صلع الرؤوس حدب الظهور وقد امتدت رؤوسهم التى حال لونها الى الخارج وكذلك أذرعتهم

النحيلة وأيديهم المخلبية الطويلة • وثمة قزم آخر صغير خرج من بيضة وضعت في احدى الصحاف وقد انشقت عنه البيضة من أحد طرفيها فبرز رأسه الى الخروج من خلال الشق كالفرخ المنفر • ومن الطرف الآخر برزت ساقاه النحيلتان ثم أخذ القزم يترنح هنا وهناك مرتديا محارة البيضة كما لو كانت قميصا • وثمة قزم آخر كان يمتطي البصيلة المطاطية لقطارة من الزجاج • وبالضغط على هذه البصيلة اذا بمادة سوداء تتحرك صاعدة هابطة داخل الانبوبة الزجاجية • وماان زاد ضغطه عليها حتى برز له قزم ثالث لم يلبث في الحال أن أخرج له لسانه • ثم راح يرقص هنا وهناك ضاحكا في استهزاء وقد أمسك بكلتا يديه كرشه المنتفخ المائل الى البياض وكان يحاكي بطن الذبابة التي تحمل البيض • وقد أخذ عدد كبير من هؤلاء الاقزام يطارد بعضهم البعض بين زجاجات العقاقير وهم يلوحون بأسلحتهم التي تبين أنها شوكات وملاعق كان يستخدمها لوقا • حقا ان هذه المخلوقات لم تكن تنفره بل كادت أن ترفه عنه بالفعل - غير أنها بدت قذرة في نظره • وخيل له بعد ما رآها تخرج من القناني وتمسك بالملاعق والشوكات أنها ستلوث العقاقير والطعام جميعا • فأبعدهما ضاحكا باكيا وقد بدت عليه دلائل النفور • واستراح الى حركات الاستحسان التي كان يأتيها من الحائط راهب قديس هذه الصورة بطن أبيض منتفخ كان مشدودا كالطبلة لامرأة عارية وقد ركبت في كلا جانبيه اذنان حمراوان كبيرتان واكتسى الركب في أسفله بلحية سوداء صغيرة مثلثة • ولكنه لم يلتفت اليه بل تعلقت عيناه فقط بوجه الراهب الذي لشد ما كان عطوفا مطمئنا • واذا بابتسامة ترتسم فجأة على وجه ذو لحية • حقا لقد برز له من الحائط المواجه في تناقض مع الرجل المسن الذي فغر فاه وأخرج لسانه بحركة غير متوقعة • فاذا به لسان المربية وكان أسود خشنا وفي طرفه قرنان رفيعان يرتعشان كقرني القوقعة • وأخذت هذه القوقعة في أول الأمر تلوح في الهواء قليلا هنا وهناك مادة قرنيها وقد برزت من فيه بطول خارج عن المألوف • ثم مالبثت أن انطوت

على نفسها الى الخلف وبدأت تتحسس فى رفق وجـه الراهب ممتدة الى أعلى حتى بلغت أنفه وجبهته • وكانت قوقعة ضخمة بحول لم تفتأ تخرج من فمه وتتحسس جبينـه والوقور الذى أحاط به الشيب ثم تمتد الى ما بين عينيه اللتين مازالتـا تحملقان فى لوقا بهدوء وعطف • وفى نفس الوقت كان بطن المرأة على الحائط الآخر قد بقر عند السرة وظهرت ركبـة من فتحة الجرح العميق وكأن شخصا ما محتبسا فى جـوف البطن كان يناضل عبثا للخروج منه • ثم اختفت الركبـة وبرزت من الجرح فى حرص وحذر ساق كاملة عارية امتدت قدمها الى أسفل تجاه الأرض ••

لم يفتأ يتوسل الى والديه أن ينقذاه من تلك الاشباح التى لا طاقة له على احتمالها • ولكن والديه كانا بعيدين عنه • ثم بلغت سمعه أصوات تهسهس فى عنف وكأنها أصوات مخبولة لحشد كبير من ملقنى المسارح وهم يهمسون فى أذنه على عجل بألفاظ لا معنى لها • أو يبلغ سمعه دوى أجراس عال مفاجىء منقطع فتصطدم ذبذباته الجوفاء فى الهواء المرتعش كما لم يفتـأ يسمع فى ركن قصى من الغرفة صفيرا حادا جافا كصـوت البخار المضغوط الذى يتسرب من منفذ ماء • وأخـذ لوقا يستصرخ أهل الدار أن يغلقوا صمام الغاز ليوقفوا تسربه والا اختنقوا جميعا •

ولكنه حتى وهو يرقد عاجزا تنتابه أحلام الهذيان لم يفتأ يحس طيلةالوقت انه كان يتقدم بعض الشيء خلال تلك الهواجس كما يتقدم المسافر نحو فتحة لم يعيه العثور عليها بين جذوع الشجر وظلال الغابة • وذات يوم رأى امرأة لم يعرفها ولكن كان من الواضح أنها ليست من تلك الاشباح الخيالية التى كانت تتراءى له فى هذيانه بل شخصا حيا من لحم ودم • كانت جالسة الى جواره تسند جبهته باحدى يديها وتناوله الطعـام بالاخرى • بدا له رأسها معصوبا بعمامة بيضاء ومن تحتهـا ظهر وجهها نحيلا اسمر اللون ولكنه محتفظ بشبابه كوجـه امرأة نصف اتخذ زينته فى دقة شديدة • وقد استوى منتصبا

فى خيلاء الطير فوق عنق طويل ممتلىء • وعندما تلعثم قائلا لها بعض كلمات الشكر المختلطة بدا بصيص من العطف فى عينيها المزججتين فى عناية وقد احتوتها الغضون والتساحيق بينما انفرج فمها فى ابتسامة حانية متألقة كاشفا عن أسنان ذات بياض مريب وقد صيغت من الذهب اثنتان منها • وفيما بعد علم انها الممرضة التى استخدمها أبواه لتسهر على راحته ليل نهار عندما انتابهما الخوف لهذيانه • أما غطاء الرأس الذى حسبه عمامة فى أول الامر فانه لم يكن سوى لباس الرأس الخاص بالممرضات • ومن خلال النافذة كان يتدفق ضوء ابيض أدرك انه بلا ريب ضوء الظهيرة • وثمة حاجز بجانب فراشه يوجد عادة فى غرفة الجلوس بدا له أنه يحجب عن ناظريه فراشا آخر • وأتى حركة ما أراد بها أن تفهم أن الضوء يجهد عينيه • فنهضت المرأة فى الحال واتجهت صوب النافذة • وكانت تتزيا من أعلى الى أسفل بالملابس البيضاء • كما رأى لوقا أن رأسها الصغير المحتفظ بشبابه كرأس طائر شرقى قد استوى على جسد ضخم كشفت بوضوح عن معالمه الغليظة نظافة ردائها المفرطة • وأنزلت الستار فسادت الغرفة ظلمة خفيفة مستحبة ثم عادت لتجلس بالقرب من الفراش مادة يدها مرة أخرى لتسند جبهته بينما قدمت اليه الملعقة بيدها الاخرى • وكانت يداها طويلتين سمراوين يابستين طليت أظافرهما ـ كما لاحظ لوقا أنها تضع حول خنصر احدى يديها خاتما صغيرا به حجر أحمر •

وبينما كان ضباب الهذيان ينقشع عنه رويدا رويدا رغم ما أصابه من هزال شديد على أثر هبوط درجة الحرارة استرعى انتباهه شيء غريب لم يعهده قط من قبل • فقد بدت له الممرضة رغم كهولتها وزوال حسنها كما بدت له الغرفة التى كان يكرهها فى وقت من الاوقات وكذلك بدا له كل شيء فى الواقع فى ضوء جديد ـ هادئا نظيفا مألوفا محببا بل ومشهيا ان جاز لنا هذا التعبير • ولاحظ فى دهشة انه لم يكن ينظر الى الاشياء بقدر ما كان يلتهمها فى نهم بعينيه تماما كما ينقض الحيوان الجائع على قليل من الطعام بعد صيام طال عهده • فعلا

كانت هناك بجانبه تلك المنضدة الصغيرة التى تغطيها القوارير والقنانى • وقد خيل له أثناء هذيانه أن الاقزام الصغار القذرين كان يطارد بعضهم البعض فيما بينها ، فاذا بها الآن قنينات بسيطة أمينة صنعت من زجاج مختلف سواء أكان ملوثا أو صافيا وبها سدادات من الفلين أو المعدن اللولبى كما زينت ببطاقات بدت عليها التعليمات وقد كتبت بخطوط الصيادلة العجلة المتدفقة حانية مطمئنة • أحس أن تلك الزجاجات بتنسيقها الجميل وما حوته من سوائل ومساحيق وما كتب على كل منها من ارشادات تبين طريقة استخدام تلك السوائل والمساحيق ـ كانت جميعها تتمنى له الشفاء • وبدا أنه كان يرد لها تمنياتها الطيبة بعطف مماثل • كما أحس بنفس الرضا والعطف عندما نقل بصره من المنضدة الصغيرة الى المرضة التى أمكنه ان يرى جانب وجهها خلف الزجاجات • كانت فى منتصف العمر وقد استبانت لعينيه غضون وجهها خلف الطلاء الذى احمرت به وجنتاها واسودت عيناها ولكنه مع ذلك لم يسعه الا أن يحب تلك الغضون وأن يشتهيها كدقائق غنية بالمعانى تماما كما يشتهى المرء فاكهة متواضعة المظهر اشتهرت بما تحتويه من عصير ، وكاد أن يمد يده منساقا ليربت بها على هاتين الوجنتين وتلكما العينين • كما كانت الخواطر التى أوحى بها اليه وجهها وأملاها عليه احساسه الجديد بالعطف محبة نفاذة • فقد خطر له أنها كانت بلا ريب على جانب كبير من الجمال فى شبابها وأنها لشد ما كانت تعانى الآن من زوال جمالها • كما خطر له انها كانت فى الماضى بالحكم على مظهرها تتمتع بلا ريب بالثراء والحرية وأنها ما اشتغلت الآن بالتمريض الا لكسب القوت • ولكنه خيل له ان احساسه نحوها لا يصدر عن شهوة ـ كذلك الاحساس الممتزج بالنفور الذى راوده فى وقت ما تجاه المربية • وفى الواقع فان الاحساس الذى خالجه الآن قبل المرأة كان هو نفس الاحساس الذى سبق أن خالجه نحو القنانى • وما ان أدار عينيه بعيدا عنها ليسرح الطرف فى ارجاء الغرفة حتى وجد نفسه وقد عاوده نفس الشعور تجاه شتى قطع الاثاث

التى لم تعد مخيفة أو سخيفة على صورة خيالية بل كانت أليفة هادئة وهى تقف ساكنة من حوله كالاصدقاء المحبين القدامى . ثم اتجه ببصره نحو حمالة الملابس التى تراءت له اثناء هذيانه وقد استحالت الى قوقعة تتحرك على الجدران صاعدة هابطة فاذا بها الآن لا تعدو أن تكون حمالة عادية ذات مشاجب ثلاثة . وسره أن يراها وقد علق عليها قميص المرضة وازارها كما سره انها كانت ثيابا بسيطة متواضعه كثياب الفقراء من الناس . وفى الواقع فقد بدا كل شيء لعينيه الجديدتين ـ ذا معنى وهو معنى بسيط متواضع حقا ولكنه ايجابى . وفضلا عن تلك الاريحية التى أضفت على الحقيقة كلها احساسا بالصداقة والزمالة فقد اضيف شعور بالنظام المستتب الذى كان رغم بساطته ضروريا . فلم يعد شيء يبدو الآن فى ظله سخيفا أو غير ذى جدوى كما كان يحدث من قبل . واذا بالقنانى لاتعدو أن تكون قنانى . واذا بحمالة الملابس لاتعدو أن تكون حمالة للملابس . ولم يعد الان ثمة خطر من رؤية رءوس الاقزام وهى تبرز من فوهات القنانى أو من رؤية حمالة الملابس وهى تتسلق الحائط .

ولكن دهشته بلغت أشدها عندما أخذت المرضة تغسل له وجهه بعد أن فرغت من اطعامه . فقد حملت الصينية بما عليها من أطباق وملاعق ووضعتها على المنضدة بالقرب من النافذة . ثم بسطت على الفراش منشفة للحمام وغادرت الغرفة، وما هى الا لحظة حتى عادت حاملة اناء كبيرا من الالمنيوم مليئا بالماء الدافيء وقطعة من الصابون ومشطا . ووضعت الاناء على الفراش ثم جلست بجانبه حيث غمست الصابون فى الماء . وما أن وضعت الصابون على وجهه بلمسة خفيفة من يدها ثم ازالته مرة أخرى فى رفق شديد بقطعة صغيرة من الاسفنج ملئت بالماء الدافيء اللذيذ حتى خيل له بالفعل أنه يشعر بنوع من الجمال والرقة فى وجنتيه . ولكنه لشد ما أدهشه احساسه الذى أوحى به اليه منظر وجهه الابيض النحيل عندما رآه فى المرآة التى كان يمسك بها كما طلبت اليه المرضة وهى تفرق له شعره . فقد بدا وجهه وقد محصه المرض كأنما قد ظهر

مطهرا من الحمى والهذيان كما ينجلى المنظر الطبيعى فى عاصفة هوجاء من وسط الضباب بعد أن تناولته طويلا عوامل التشويه والضمور وراوده احساس بالحب نحو هذا الوجه الرائق الذى كان يبادله النظرات بعينين حالمتين • حقا أنه كان نفس الحب الذى أحس به نحو الممرضة ونحو الاشياء الاخرى جميعا ولكنه ما ان تذكر الكراهية التى كان فى وقت ما يحس بها هو نفسه حتى وجد أن هذا الحب هو أهم مظاهر ذلك التغير الجديد الذى طرأ عليه •

وفرغت الممرضة من تمشيط شعره ـ على صورة لم يألفها قط من قبل ـ اذ كان شعره مفروقا على أحد جانبى رأسه : ولكن لوقا لم يشعر قط بالرغبة فى الاحتجاج • بل كان ذلك أيضا أمرا سارا وجديدا عليه حتى كاد يحس بالامتنان نحو خطئها ثم غادرت الغرفة حاملة الاناء بعد ان أبعدت المنشفة عن الفراش • وما هى الا لحظة حتى عادت لتجلس حيث بدا له أنه مكانها المعتاد وكان ذلك خلف المنضدة الصغيرة بجانب الفراش وبين يديها كتاب ما • وبدت الغرفة بأسرها وكأنها تتركز حول حركتها الهادئة المألوفة كما لو كان ذلك عن طريق السحر حتى صارت هى أيضا هادئة مألوفة • ورقد لوقا ساكنا بعض الوقت ثم قال ـ « أحب أن أستوى جالسا فى الفراش تسندنى من خلف ظهرى وسادة أو اثنتان • »

فأجابته قائلة ـ « حسنا • ولكن حذار أن تصاب بالبرد » ثم نهضت وغادرت الغرفة وعادت حاملة وسادتين • وانحنت فوق لوقا واضعة ذراعها حول خصره لتعينه على النهوض ثم دست الوسادتين خلف ظهره • وكان من أثر ذلك الجهد أن أحس بالدم يهرب من وجهه وبالنور يفارق عينيه وكأنه على وشك الاغماء • كما عاونته على ارتداء سترة سميكة ثم ذهبت لتعاود جلستها • وما لبث لوقا أن سألها قائلا ـ « كنت مريضا للغاية • أليس كذلك ؟ » •

فوضعت كتابها على ركبتيها ثم نظرت اليه قائلة ـ « نعم للغاية • »

فقال لوقا فى صدق ـ « كنت أبغى الموت . »

فنهضت الممرضة واقفة ومرت بيدها على شعره وهى تحملق فيه فى حنان وعطف . ثم قالت : « ولكنك الآن ستشفى . »

فتطلع اليها لوقا ببصره ولم ينبس بشىء . ثم انتابه انفعال مفاجىء فاغرورقت عيناه بالدموع . وأردفت الممرضة قائلة : « ستشفى اذا كنت مطيعا وفعلت كل ماينبغى عليك » فأمسك لوقا بيدها دون أن ينبس بكلمة واحدة وأخذ يقبلها فى رفق وكأنه يفكر . وفى أثناء ذلك تفجرت الدموع من عينيه وقد فتحتا على سعتهما .

ـ ١٤ ـ

وذات مساء قرب نهاية فترة النقاهة كان لوقا قد أخذ يغفو ورأسه مستند على الوسادة خلف ظهره بعد أن تعب من القراءة عندما ظهرت الممرضة فى مدخل الغرفة وعليها سيماء المهابة كمن جاء ليعلن نبأ سارا قائلة ـ « والآن يجب أن تستعد .. فالماء يجرى ولن تلبث أن تأخذ أول حمام لك . »

فسألها لوقا قائلا ـ « حمام ؟ .. ألا يصيبنى بدوار ؟ » .

فأجابته قائلة ـ « لاتقلق . فسأكون هناك لمعاونتك » .

وبدأت استعداداتها فى الحال وهى تغدو وتروح فى انحاء الغرفة وقد تميزت حركاتها بالدقة والاهتمام ـ مما دل على تمرسها فى العمل كممرضة ولشد ما كان ذلك يتناقض مع مظهرها كسيدة ولى شبابها . ومع هذا فقد بدت لعينى لوقا وكأنها فرحة بتلك الخطوة الجديدة فى طريق الشفاء والعافية . وأحس نحوها بالامتنان لانه كما كان يعلم لا يعدو أن يكون فى نظرها قبل كل شىء مريضا من بين كثيرين وليس هناك من سبب يدعوها لان تسعد لشفائه ، بل الاحرى أن يكون ذلك الى حد ما سببا فى أسفها اذ ما ان ينتهى مرضه حتى ينقطع أجرها . غادرت الغرفة ثم ما لبثت

أن عادت بعد فترة وجيزة حاملة منشفة كبيرة للحمام نشرتها فوق المشع الحرارى لتسخينها · ثم اتجهت الى خزانة الملابس وأخرجت منها عباءة منزلية من وبر الجمل كانت أمه قد ابتاعتها اخيرا ليرتديها عند مغادرته فراش المرض · ووضعت العباءة على المتكأ الكائن عند أسفل الفراش كما وضعت على الارض خفا جديدا أيضا · قالت وهى تنحنى لتعدل من وضع الخف ـ « حمام دافىء لذيذ · وسوف ترى كم تحس بعده بالانتعاش · » نطقت بهذه الكلمات فى لهجة مغرية ولكنها كادت تبدو وكأنها تحدث نفسها وقد راودها نوع من الشرود الذى أضفى على تلك الكلمات وقعا طبيعيا واحساسا بالحب والعطف كما لو كانت صادرة حقا من قلبها لا ارضاء للوقا فحسب · ثم عادت فغادرت الغرفة دون أن تغلق الباب · وكانت غرفة الحمام على الجانب الآخر من الدهليز غير بعيد من غرفته فأمكنه أن يسمع بوضوح صوت الماء المندفع فى مرح · وتلكأت المرضة بعض الوقت ولعلها كانت تنتظر أن يمتلىءالحوض بالماء · ثم اذابها تندفع فجأة وهى تلهث الى داخل الغرفة حيث تناولت العباءة وأمسكت بها مفتوحة قائلة : « هيا اسرع ·· فقد أعد الحمام ·· انهض · »

كان يمكن من قبل أن يعروه الخجل من الظهور أمام المرضة مرتديا بيجامته ولكن اللعبة كانت قد تغيرت فكل ماكان يمكن ان ينفره فى الماضى صار الان مقبولا لديه دون أن يخلو ذلك من بعض الرضا · جذبت المرضة أغطية الفراش بعيدا واستوى لوقا جالسا · فأحس فى الحال بالدوار يلم برأسه وبالدم يهرب من وجهه · وكانت المرضة تقف أمامه ممسكة بالعباءة وهى مفتوحة ولكنه لم يمكنه أن يفكر فى الوقوف · بل مكث هناك فى حزن جالسا فى الفراش وقد تدلت ساقاه واشتد امتقاع وجهه الذى مال جانبا · فأدركت الموقف وألقت بالعباءة على الارض قائلة : « انك تحس بالهزال ·· بالطبع ·· انتظر لحظة · فسأعاونك » وأحاطت خصره بذراعها القوية ثم عاونته على الوقوف · وخيل للوقا لحظة أن قدميه لا تستقران على الأرض · فقد

تمثل هزاله فى صورة هوة اتخذت شكل ساقيه فحسب دون مادتهما أو قوتهما . ثم سمع الممرضة وهى تقول له « والآن فلترتد العباءة .. هيا » فاستسلم فى اذعان وسمح لها بأن تدخل احدى ذراعيه أولا ثم الذراع الأخرى فى كمى العباءة الواسعين . ثم وقف ساكنا بينما أسرعت هى بضم العباءة حول جسده . وقالت وهى ممسكه به من حول خصره — « والآن سر ولا تخف .. فأنا هنا » .

وخطا لوقا أولى خطواته متكئا بثقله على الممرضة أثناء سيره وهى تسنده من حول خصره . وقد ارتسم على وجهها تعبير ينبىء بالعناية والاخلاص . فأحس لوقا أن قدميه كانتا فى كل خطوة تستردان ثقتهما وتنقلان الى ساقيه والى جسده بأجمعه احساسا سارا جديدا بالقوة والامان ، وكأن القوة التى يحتاج اليها كان يستمدها من رؤية ذلك التعبير مرتسما على وجهها ومن ملمس ذراعها على ظهره . فكما خيل له من قبل عندما أفاق من أحلام الهذيان المزعجة أن شهية ايجابية قد راودته تجاه أثاث الغرفة وهو ينظر اليه من حوله . كذلك أحس الآن انه يتضور جوعا الى الارض التى كان يسير عليها وانها كانت تمده بالغذاء كلما خطا فوقها . قال وقد عاودته حيويته — « لعلى أقوى مما كنت أتصور . » فأومأت الممرضة برأسها موافقة وهى تواصل معاونته على السير . وغادرا الغرفة وهما متخاصران فى قوة . وبدا المنزل مهجورا كما تكهن لوقا عندما رأى الظلام والسكون يسودان الدهليز . ودخلا غرفة الحمام حيث أجلسته الممرضة على مقعد خفيض ثم أغلقت الباب . وكان الجو فى غرفة الحمام ساخنا كالفرن .. وقد امتلأ الحوض بماء مائل الى الزرقة بدا وكأنه يغلى . كما أغلقت الممرضة الصنابير ووضعت فى الصحفة قطعة جديدة من الصابون . وفى شىء من الارتباك خلع لوقا عباءته التى تناولتها منه وعلقتها على مشجب بالقرب من الباب . ولما لم يعد يستر جسده سوى بيجامته فقد فكر لوقا لحظة فى أن يطلب اليها مغادرة الغرفة . ولكنها بدت وكأنها لا تعير وزنا لارتباكه أو

حتى تلاحظه فى الحقيقة • وقرر لوقا أن يفعل بالضبط كل ماتطلبه اليه • قالت ـ « والآن فلتخلع بيجامتك ولتدخل الحوض كى أغسل لك جسدك بالصابون » .

فنهض لوقا واقفا فى اذعان وخلع سترة بيجامته • وانحنت الممرضة وحلت له رباط سراويله بخفة ثم جذبتها الى أسفل عند قدميه • وعاودت النهوض وقد احمر وجهها قليلا • ولكن لوقا حسب أن تلك الحمرة انما كانت من تأثير ما بذلته من جهد فى الانحناء • وهكذا وقف لوقا هناك مترددا وقد تجرد تماما من ملابسه ولكنه أحس بالممرضة وهى تضع ذراعها حول خصره مرة أخرى وتقوده فى رفق نحو الحوض حيث غاص ببطء فى الماء الملتهب فوضع فيه أولا احدى قدميه ثم اتبعها بالاخرى واخيرا رقد فى الحوض شيئا فشيئا • وسألته الممرضة قائلة وقد جلست على مقعد صغير خفيض وهى تنظر اليه فى ثبات ـ « كيف حالك ؟ » فأجابها لوقا قائلا ـ «أحس بهزال شديد » وقد صدق فيما قال ، فقد عاوده وهو راقد فى الماء الساخن احساس لايمكن وصفه بالفراغ خلف عنقه مصحوبا بغثيان طفيف • فقالت الممرضة ـ « يجب ان تنهض واقفا •• وسأدلكك جيدا بالصابون •• ويمكنك بعد ذلك أن تغتسل ثم تخرج من الماء فى الحال • فلشد ما ينتابك الهزال اذا ما أطلت البقاء فيه » فنظر اليها لوقا ثم نظر الى نفسه فى الحوض • فقد كان منظر جسده المبهم وهو يموج برفق فى الماء مصطبغا بضوء خافت مائل الى الزرقة يبث فى نفسه احساسا بالحب كما سبق أن حدث عندما رأى وجهه لاول مرة فى المرآة • وكان مرأى ركبه حيث بدت شعرات عانته البنية وقد علتها فقاعات لامعة صغيرة تتمايل هنا وهناك حول عضوه التناسلى كما تتمايل أعشاب البحر حول زهرة الريح فى أعماق بركة مملوءة بماء البحر الصافى ـ كان مرآه لايبدو بذيئا لعينيه بحال من الاحوال بل منسجما للغاية مع بقية جسده الابيض العفيف النحيل • وسألته الممرضة قائلة .

« هل نهضت واقفا ؟ » فجفل • وما ان رفع عينيه نحوها حتى

أدرك انها هى ايضا كانت من فوق مقعدها الخفيض تحـــذو حذوه متأملة جسده وهو راقد فى قاع الحوض • فقال وهـــو ينهض واقفا على قدميه ـــ « حسنا » •

كان الماء يرتفع حتى منتصف ساقيه • وثمة مرآة كانت معلقة أمامه على الحائط قد انعكست عليها صـورته وهو عار تماما وصورة الممرضة وهى منحنية نحوه تدلك جســـده بالصابون وقد احمر وجهها • فدلكت ظهره أولا ثم صــدره وأخيرا بطنه • وعندئذ ادرك لوقا انه بينما كان عقله لايزال يعمل فى بطء وتراخ فان حساسيته التى ربما أرهفها المرض جعلته يلاحظ اشياء كثيرة كانت تفوته ملاحظتهـا فى وقت آخر • فقد تميزت مثلا خفة حركة الممرضة بغلو فى الحماس والمهارة المهنية مما اثاره على صورة ما رغم أن عقله الذى نال منه الضعف والاعياء كان عاجزا تماما عن اكتناه هذه الظاهرة ثم نصبت الممرضة قامتها وقد ابيضت يداها بالصابون قائلة « والآن فلتجلس مـــرة أخرى • » فتــرك لوقا نفســـــه ينزلق فى اذعان مرة أخرى فى الماء •

وغادرت الغرفة ثم مالبثت أن عادت ممسكة بالمنشفة وقد بسطت ذراعيها على سعتها وهى تصـيح قائلة : « أسرع •• أسرع وهى مازالت ساخنة » فنهض لوقا واقفا وبعد أن تردد برهة وقدمه على حافة الحوض ارتقاه رأســـا الى الخارج • وفى الحال انقضت عليه الممرضة وهى تلفه بالمنشفة الملتهبة فى قوة وحب على صــــورة ما • وســـألته قائلـة : « أليست لذيذة دافئة ؟ » ولم يسع لوقا وهو ملتحف بالمنشفة من أعلى الى أسفل الا أن يحس بوهج العافية لاول مرة منذ زمن طويل للغاية • قالت : « والان عليك ان تجفف نفســك بسرعة » فجلس لوقا على المقعد الخفيض • وجثت الممرضة على ركبتيها ثم بدأت تجفف ساقيه فى نشاط • ولشد مابذلت من جهد فى ذلك حتى أن وجهها سرعان ما صـــار فى لون القرمز • وقد تميز وضعها الجاثى بشىء من التعبد العاطـفى الغامض الذى حار له لوقا • وكانت يداها عندما تتحركان

الى أعلى فوق ساقيه تلمسان حقوه فى خفة . وفجأة تحقق لوقا وهو يرتجف رجفة غريزية مما كان حتى تلك اللحظة يرتاب فيه فحسب وكاد ذلك أن يكون على الرغم منه — وهو أن الصدفة شاءت فى ذلك المســاء أن يخلو كلاهما الى الآخر فى الشقة وأن يتكرر من جديد ما سبق أن حدث بينه وبين المربية قبل ذلك بشهور ولكن بفارق واحد وهو أن روحه بأسرها كانت قد تغيرت وانه الآن سوف يقبل ما كان يعتقد وقتذاك أن من واجبه أن يأباه .

وما ان لامسته بخفة لاول مرة بطريقة ربما كانت لا ارادية حتى بدت المرضة وكأنها قد فقدت كل نشاطها . وأحس لوقا بيديها تترددان وكأنهما بدلا من تدليكه تتنازعهمـــا الرغبة فى دغدغته والاحجام عنها فى نفس الوقت .

كانت يداها تتحركان فوق جســـده كله ولكنهمـــا بدتا حريصـــتين كل الحرص على تجنب حقوه . ومع هذا فقـــد كانتا من وقت لاخر تنزلقان نحوه رأســـا من أبعـــد نقطة فى جسده فى هجمة سريعة مفاجئة تشوبها الخشونة والارتباك بسبب العجلة وتبكيت الضمير . وقد تميزت هذه الهجمات بطابع خاص . فكانت أشبه بنقر الطائر أو عضة الحيوان تجمع فى نفس الوقت بين الخلسة والاشتياق . ومن وجوه اخرى أيضا كانت المرضـــــة — وقد احمر وجهها وانحنى رأسها على صورة أخفت عينيها — قد كشفت فى وضوح تام عن طبيعة احساسها الذى جاشت به نفسها . ونظـــر اليها لوقا فخيل له أن وجهها كان يشتد احمرارا وهى تدلك جسده . كلما ضاق قطر الدائرة التى تدور فيها يدها حول بطنه . كان كل هذا الجسد الضـــخم المائل الى الامام من فوق الركبتين يبدو وكأنه متوتر بالرغبة التى تجد تشجيعا واحباطا فى نفس الوقت . الرغبة فى تجاوز حدود التدليك والانتقال الى ملامســـــة ذات طبيعة مختلفة أكثر تحررا وانطلاقا . ولكنه على النقيض مما حدث فى وقت ما مع المربية لم يعد يحس الان بالنفور أو بالرغبة فى التراجـــع . بل أحس وكأنه لا يعدو أن يكون أداة بين يديها مســـــلوب

www.library4arab.com/vb

الارادة تماما فضـــــلا عن رغبته فى الانقياد لها والاذعان لمشيئتها . وكادت هذه الخواطر أن تنسيه المرأة وشهوتها . وأخيرا وبعد ان لمسته لمســـة اخرى فى مزيد من الايجابية والرضا نهضت واقفة على قدميها وهى تقول — « والآن يمكنك أن ترتدى ملابسك »

ولاحظ لدهشته أنه لا يحس بالخجل . وذلك أيضا شيء لم يعهده فى نفسه من قبل . كما بدا له ذلك بادرة اخرى على ثقته الجديدة بنفسه وبالعالم . وقد كـان من المستحيل عليه فى وقت ما أن يقبل فى بساطة مثل هذه الاثارة الجسدية دون مانفور أو استكبار . فانه كان يســـــتنكرها فى جميع الاحوال كنوع من التمرد ويشعر نحوها أول ما يشــــعر بالرغبة فى مقاومتها وتحطيمها . ولكنه خيل له الآن أن هذه المظاهر الغريزية جميعا — سواء أكانت من جانبه أو من جانب المرضة وسواء أكانت مظاهر رغبته أو رغبتها بل حتى عندما تحدث على صورة غير متوقعة لا يمكنه بحال من الاحوال التحكم فيها أو السيطرة عليها — هذه المظاهر جميعا ينبغى أن تلقى منه ترحيبا شأنها فى ذلك شأن الكثير من مظاهر الحقيقة المفهومة كلية والمحببة الى النفس تماما . وقف هناك عاريا أمام تلك المرأة وقد بدت على جسده دلائل الاثارة . ولكنه على الرغم من ذلك لم يشعر بالرغبة فى أن يلوذ بمكان آخر أو أن يكون شيئا آخر غير ما كان عليه . ولما كانت الدهشة قد استولت عليه تماما فقد جفل فى عنف عندما سمع صوت المرضـــة وهى تقــول له مرة اخــــرى : « هلا ارتديت ملابسك ؟ »

وسمح لها فى صـــمت بأن تلبسه بيجامته وأن تلفه مرة اخرى فى عباءته . ثم سألته قائلة وهى تفتح الباب — « كيف حالك ؟ »

— « على مايرام »

غادرا غرفة الحمام وسارا فوق أرضية الدهليز المكسوة بالسجاد . وظلت المرضة تسنده وقد عاودت الآن موقفها

المألوف منه الذى كان رغم طابعه المهنى مشـــوبا بالجزع والقلق . ومع ذلك فقد انتاب لوقا مرة اخرى وهو فى الدهليز احساس بالهزال الشـديد فغشى بصره وانتابته برودة شديدة فى جبهته وصدغيه وأسلم نفسه تماما لذراع المرضة وهو يتمتم قائلا ـــ « انى أحس بالمرض » وأدرك أنه كان بلا ريب يفيق من اغمائه عندما وجد نفسه جالسا على فراشه بينما تضـــــع لـــه المرضـــة كمـادة عـــلى جبهتـــه قائلة : « لاشىء ·· انه الحمـــام الذى اعياك » فلم يحـــر لوقـــا جوابا . وخلعت عنه المرضة عباءته وازاحت اغطية الفراش الى الخلف ثم رفعت ســـاقيه وعاونته على الدخـــول فى الفراش . كما لاحظ برودة الملاء النظيفة وعدها متعة يدين بها لها . وســـمعها تقول له ـــ « والآن عليك أن تحاول النوم » ثم اغلقت الباب وتركته وحيدا .

— ١٥ —

لم تشر المرضــــــة ايما اشارة خلال الايام التالية الى ما حدث فى غرفة الحمام . ولم يفكر لوقا من جانبه فى أن يذكرها به لا لانه ربما لم تكن لديه الرغبة فى متابعـــــة تلك المحاولات الاولى للتقرب منها بقدر ايثاره الخضـــــوع فى سلبية لارادتها مهما كانت على ممارسة ارادته الخاصة . كان يكفيه على أية حال أن يدرك معنى تلك التجربة ولم يكن يهمه بعد ذلك ان كانت تلك التجربة نفسها قد توقفت وهى لم تزل بعد فى بدايتها . ولكنه أدرك أنها كانت طيلة الوقت تفكر فيه وفيما حدث فى غرفة الحمام وكان ينتظر ما يتمخض عنه تفكيرها فى شىء من الفضول . ولو أنه ظل يحاول العثور فى ذهنه على تعريف دقيق لاحساسه للاحظ أنه لـــم يفتـــأ يكن للمرضـــة ذلك الشعور المحب المدرك المنزه عن الغرض الذى صارت تتميز به الآن نظرته الى الاشخاص والاشياء جميعا بغض النظر عن تلك الجاذبية الجنسية القوية التى كان يمكن فى الواقع أن يشعر بها تجاه أية امرأة أخرى فى

ظروف مماثلة • وفى حالة المرضة كانت تلك النظرة نفسها تتمثل فى فضوله المخلص المهذب للتعرف على شخصيتها وماضيها . فانها لم تعد الآن تمرضه بقدر ما كانت تؤنس وحدته • وعندما زادت الثقة صارت تروى له قصصا كثيرة عن حياتها • كانت كلها بالفعل أو معظمها تخص علاقاتها الغرامية بعدد كبير من الرجال فى مختلف الاعمار والظروف . وكانت فى شبابها كما تخيل لوقا تعيش فى سعة . ثم مات زوجها فاضطرت لكسب القوت أن تشتغل بأعمال مختلفة كان آخرها التمريض . وكانت فى أول الامر كتوما مترددة فى أحاديثها ولكنها عندما لاحظت أن لوقا لا يكشف عن دهشته أخذت تزداد صراحة حتى صارت فى النهاية تخلع العذار تماما على طريقتها الخاصة التى تثير الرثاء الى حد ما . وكانت حياتها عادية للغاية ملؤها الاخطاء والغرور • كما كانت هى بدورها امرأة عادية للغاية تعتنق جميع الآراء المبتسرة التى يتبناها كل من أخنى عليه الدهر . كاعتقادها مثلا أن عملها غير جدير بها . ولكن هذه الاخطاء ومظاهر الغرور لم تكن تبدو لعينى لوقا مغفورة فحسب بل محببة الى النفس أيضا بفضل نظرته الجديدة المتسامحة . ولشد ما سره قبل كل شىء توهمها أنها مازالت تتمتع بالشباب والجمال • ذلك الوهم الذى صار فى نظره الان سمة قوية من سمات شخصيتها بعد أن كان فى وقت ما يبدو له مثيرا للسخرية • وذات يوم بينما كانا يتحدثان عن الجمال الانثوى نهضت واقفة على قدميها واختالت مزهوة بنفسها فى ارجاء الغرفة وهى تجذب ثوبها فى أحكام فوق أردافها وبطنها قائلة : « انظر الى وقل لى فى أمانة كم امرأة ممن يصغرنى سنا يمكنها أن تباهى بمثل قوامى » وتألقت عيناها وهى تتحسس اردافها بكلتا يديها وترفع صدرها وتدير رأسها فى هذا الاتجاه وذاك . لم يسع لوقا الا ان يبتسم ولكنه أحس بالرضا عندما أدرك أنها ابتسامة رقيقة حانية .

كان طوال هذا الوقت يسترد قواه حتى صار فى امكانه الآن أن يستحم وحده • ففى المرات القليلة الاولى كانت الممرضة لا تفتأ تعاونه دون أن يعودا الى مثل ما حدث فى

ذلك المساء الاول من اضطراب واثارة . اذ بدت وكأنها قد يئست منه حقا ولكن دون أن يخلو ذلك من أسف ودود حزين من جانبها كما لو كانت بالتضحية برغبتها قد وجدت موضوع حب جديد ولو أنه لم يخل من الحزن . وذات يوم بينما كان لوقا راقدا فى الفراش متظاهرا بالنوم وقد أغمض عينيه حتى نصفها اذا به يدرك تلك الحقيقة عندما رآها تحملق فيه طويلا وقد ارتسم على وجهها تعبير فريد فى نوعه لم يمكنه فى الحال أن يعرف كنهه . كانت نظرة تتمثل فيها الحيرة بل والاحتقار الى حد ما . فبدت وكأنها تبحث فى وجهه هو لافى وجدانها عن أسباب تضحيتها . ولما لم تجدها هناك بدت وكأنها قد غضبت من نفسها لعدم اجترائها على تنحية شكوكها جانبا لتنال معه ما تتوق اليه من متعة .

وذات مساء جلست بجانبه على الفراش بعد ما أحضرت اليه صينية العشاء ثم قالت :

— « اعتقد أن هذا آخر يوم لى معك »

فرفع لوقا عينيه عن صحفة الطعام فى صراحة لم تخل من بعض الخبث قائلا :

— « يؤسفنى ذلك .. ومتى ترحلين ؟ »

فأجابت قائلة : « غدا مساء » .

ثم أردفت قائلة وهى تنظر اليه مباشرة :

— « كما يؤسفنى ذلك أيضا »

فتطلع اليها لوقا . وكانت جالسة على الفراش فى وضع غير مريح . اذ استدارت نحوه بوجهها ونصفها الاعلى وهى تضغط على غطاء الفراش باحدى يديها لتسند نفسها .. ولاحظ على وجنتيها تحت حمرة الزينة حمرة أخرى ساخنة كتلك التى يورثها الانفعال أو الفوران . فقد لمعت عيناها من خلال زينتهما كما حدث يومذاك فى غرفة الحمـــــام . على

صورة تثير الشفقة كحجرين كريمين متألقين يحيط بكل منهما اطار قديم كئيب . وأردفت قائلة ــ « لشد ما ألفت صحبتك »

فلم ينبس لوقا بكلمة . واستطردت تقول خافضة صوتها ــ « كما أحسبنى تعلقت بك بعض الشىء . »

وكان لوقا يتوقع كل شىء ماعدا هذا التصريح بالحب . فانه لم تمر به فى حياته سوى تجربة غرامية وحيدة هى علاقته القصيرة بالمربية . وكان يخيل له أن المرضة ستحذو حذوها فتكون هى البادئة بفرض رغبتها على سلبيته دون أن تنبس بكلمة . ولشد ما انتابته الحيرة الباردة المدهوشة لمدة لحظة عندما فوجىء بهوى ذى طابع عاطفى كان يخاله حتى ذلك الوقت شهوانيا عاتيا مستبدا . فقال فى صوت خال من التعبير ــ « حقا ؟ »

فأجابته المرضة قائلة ــ « نعم . ولكن هذا لا يهم . » ثم هزت رأسها وخفضت عينيها بحركة من فمها وكأنها تكبت شهقة باكية . فقال لوقا فى اخلاص ــ « أحسبنى أنا أيضا كنت مغرما بك الى حد ما .. ولكن الامر كان يتوقف عليك »

ونظر اليها دون أن يتم عبارته . لقد خيل له انها الحقيقة ولا شىء سوى الحقيقة . ولكن من أين جاءته تلك الثقة بالنفس التى لا تخلو من الخبث والتى لا يؤتاها سوى غاز محنك ؟ وقد سر لتلك الموهبة الجديدة التى تعينه على التأثير وتكوين علاقات اخرى مع الناس . فرفعت نحوه عينيها المتألقتين وسألته قائلة ــ « اذن فلو اننى شئت .. ؟ » فأومأ لوقا برأسه . وعندئذ خيل لها انها ستثب فوقه على صورة شبيهة الى حد ما بما سبق أن فعلته فى غرفة الحمام ولكن فى مزيد من العنف والصراحة اللذين لا تشوبهما شائبة من النفاق . وأخذ يتساءل عما ينبغى عليه أن يفعل . وكان أبواه ساعتئذ يجلسان الى مائدة الطعام ولن يأتيا اليه قبل مضى نصف ساعة على الاقل . فهل تكفيهما هذه الفترة على قصرها ؟ ثم أليس من المحتمل لسبب ما أن تدخل أمه الغرفة قبل هذا الوقت ؟ ومع ذلك فقد أحس أنه على الرغم من تلك

الشكوك والمخاوف لم يكن يخشى الحب أو عواقبه . ولم يزد على أن أردف قائلا فى حكمة :

ــ « خلتك ترغبين فى ذلك يومئذ ونحن فى غرفة الحمام .. فلم يكن بالمنزل أحد سوانا وكان ذلك ميسورا . »

ولكن المرضة على عكس ما كان يتوقع لم ترتم فوقه بل نهضت واقفة وهى ترمقه عن بعد الى حد ما ثم مدت ذراعها وأخذت تمر بيدها فى بطء حول وجهه بأكمله . ثم قالت :

ــ « لشد ما كنت هزيلا يومذاك .. وفضلا عن ذلك فأنت لا تعدو أن تكون صبيا . »

وخطر للوقا أيضا أن تلك حقيقة لا سبيل الى انكارها . فلم يزد على أن خفض عينيه ولم يقل شيئا . وأمسكت المرضة بذقنه ــ تماما كما تفعل مع الاطفال عندما تسألهم عما يريدون ــ ثم قالت ــ « اذن فان جئت اليك الليلة .. هل تريدنى أن أجىء اليك ؟ »

فرفع لوقا عينيه نحوها وأجابها قائلا فى بساطة تامة : « لا شك اننى أريدك أن تأتى » فوقفت ساكنة منتصبة القامة وهى تتأمله بعينيها اللامعتين اللتين تفيضان بالشباب وقد اختلفتا كل الاختلاف عن ذينك الجفنين الهرمين الميتين اللذين تلمعان من خلالهما . ثم أعلنت قائلة فى صوت تملؤه البشرى فى سخاء وأمومة ــ « حسنا اذن .. فان كنت حقا تريد منى ذلك .. فسأجىء اليك »

فأومأ لوقا برأسه وكأنه يقول انها خطة حكيمة . وأردفت المرضة قائلة :

ــ « انى قادمة اليك .. ولكننا يجب أن نحاذر .. فلا ينبغى أن نحدث ضجة ما . » وكانت قد أقلعت أخيرا عن النوم فى غرفة لوقا خلف الستار . وخيل للوقا أنها فى الواقع لم تكن تنصحه بذلك بقدر ما كانت تنصح نفسها . ثم ختمت حديثها قائلة ــ « اذن فموعدنا بعد ساعتين . » ونظرت اليه لحظة أخرى وكأنها ترقب تأثير وعدها عليه . ثم حملت الصينية وغادرت الغرفة .

وما أن خلا لوقا الى نفســـه حتى تناول رواية من فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للفراش وشرع فى القراءة . ولكنه مالبث أن أدرك أنه عاجز عن متابعة معانى الالفاظ. وأحس بسعير فى وجنتيه كما لو كانت نظرات المرأة المفعمة بالرغبة قد سفعته بنارها فيما بين هامته وعنقه حيث لمسته . وقد وجد ذلك الاحساس الملتهب لذيذا مثيرا اذ بث فى نفســه شعورا بالحيوية الملحة التى لم يعهدها قط فى حياته . وأخذ يفكر فيما حدث بغية ابعاد ذهنه عن ذلك الشـــعور وعمـــا صاحبه من اضطراب . وتفحص موقفه من تلك المرأة قائلا لنفسه انه ما كان يمكنه أن يكون أصدق أو أخلص مما كان . فقد كاشفته بحبها . ولكنه لم يزد على أن قال فى رده عليها انه يسره أن تأتى اليه . وكانت هذه هى الحقيقة بالضبط . فقد خيل له أنه سيجد متعة فى مجيئها كما كان لا يفتأ يجد متعة فى كل ما يحدث وفى كل ما له وجود وفى كل علاقاته منذ أن أفاق من هذيانه . وسره ألا يختلف شـــعوره نحو المرضــــــة أو يزيد قوة عما يوحى به الآخرون من الناس والاشياء كافة . وفى الواقع فانه كان يحس بالجوع نحـــو تلك المرأة مما جعلها مرغوبة فى نظره . ولكنـــه كان يحس هذا الجوع نفسه نحو ذلك الضوء الهادىء الذى يرســـله المصباح المجاور لفراشه ونحو قطع الاثاث الماثلة فى الظلام ونحو الليل ونحو السكون الذى خاله مخيما فى خارج الدار بل حتى نحو ذلك الصرير الخافت الذى تحدثه الدودة وهى تحفر سردابها فى خشب المنضدة . هذه الاشياء فضـــلا عـــن أشـــياء اخرى كثيرة صارت كلها ــ من جراء ذلك الجوع المشهى ــ محببة الى نفسه بدرجة واحدة يتألف منها معا عالم جديد فى نظره ارتضاه فى النهاية .

وبينما كانت تمر بذهنه تلك الخـــواطر بدأ النعـــاس يغالبه . ودخل عليه أبواه وهو فى تلك الحالة الوسنى كما كانا دائما يفعلان وبعد أن وجهـــا اليه وصاياهمـــا المعهودة وأسئلتهما التى أجابها فى غموض قبلاه وانصرفا . كما بدا له أيضا أن المرضة كانت منهمكة حول فراشه تدس له حواشى البطاطين تحت الحشايا ــ تلك البطاطين التى لن

تمضى ســـاعتان حتى تلقى بها بعيدا لترقد بجانبه . ولكن الشك ظل يساوره فيما أن كان ذلك نوعا من الهذيان . فلشدة ما كان النعاس يغالبه . حتى أن أبويه ما كادا يتركانه حتى غاب عن الوعى .

واستغرق بعض الوقت فى نوم هادىء عميق بدا أنه تعبير عن ذلك الجوع نفسه الذى كان أثناء يقظته يشحذ شهيته نحو الاشياء والاشخاص جميعا . وتراءى له حلم غـــريب ـــ ربما أوحى به ذلك الجوع ـــ خيل له فيه أنه شجرة وكان وهو على هذه الصورة اسود اللون عاريا من الورق مشبعـــا بالماء خدرا من البرد يقف فوق قمة تل عار يحده الصقيع مادا ذراعيه اللتين كانتا على شكل فرعين . أما أصابعه المبسوطة فكانت عــــلى شكل غصون . ومن حـــوله امتــــد منظر طبيعى فسيح يتألف من تلال وغابات وانهار وحقـــول وقد خطط الثلج هذا المنظر بأسره ونشر الظلمة فى ربوعه ضباب الشتاء . وقد انعكست صـــــورة السماء المثقلة بالسحب السوداء الساكنة على صفحة الماء فى الحقول المغمـــورة . وران فوق كل شىء سكون عميق كذلك السكون الذى يســـود عالما سرمديا لا حياة فيه . ولكن الشمس كانت تشرق بعيدا فى الافق . وكانت فى أول الامر كرة باردة حمراء . ولكنها كلما صعدت فى السماء على صـــورة تدريجية مبددة أمامها السحب زاد صفاؤها واشعاعها وأمكنه أن يحس بحرارتها حتى من خلال لحائه ذى البرودة الثلجية . وتحت أشـــعة الشمس حدثت حركة واسعة النطاق فى جميع أرجاء المنظر الطبيعى وكأن الغابات بكل ما فيها من أشجار قد نفضت عن نفسها دفعة واحدة سكون الشتاء وكأن الانهار قد ارتفعت فيها مياه الفيضان وكأن الحقول قد اضطربت بالحياة وكأن التلال قد لانت وامتلأت بالغذاء كثديى المرأة . وفجأة دوى فى الهواء صوت أجش ـــ كان جذلا ملحا محبا كالنداء المنطلق من نفير الصيد ـــ فمزق ذلك السكون البارد . وخيل له ان موجة من الجـــوع الفرح المبهج قد انتشرت الى أعلى من خلال جذعه مبتدئة من جذوره الغائرة فى الارض . ولما ضاق بفيضها غلافه اللحائى فقد انبثقت خلال فروعه على شـــكل

الوف من البراعم الخضراء المتألقة التى سرعان ما تفتحت بدورها واستحالت أوراقا وفروعا وأسلاكا . وأحس بنفسه ينمو ويتكاثر ويبرعم الى ما لانهاية فى اندفاع خيالى لايقاوم من الوفرة الغزيرة من كل جزء وفى كل اتجاه . وفجأة لم يعد شجرة بل ارتد رجلا واقفا منتصب القامة رافعا ذراعيه نحو الشمس . ثم استيقظ من نومه يخالجه فى أطرافه ذلك الاحساس بالبرعمة واندفاع الحياة . وكانت الغرفة غارقة فى الظلام فيما عدا دائرة صغيرة من الضوء فوق المنضدة المجاورة للفراش أحاطت بالمصباح الصغير ذى الكمة الحمراء . وقد أشار عقرب الساعة الى الربع بعد منتصف الليل . فلن تلبث المرضة أن تأتى بعد بضع دقائق .

وبينما كان ينظر حوله فى أرجاء الغرفة المظلمة مشغول الذهن بالمرضة خيل له أن جوعه هذا فى نوبة من الضجر والشراهة أخذ يتجاوز بخطوة واحدة حدود زمانه ومكانه فى تلك اللحظة وشرع يندفع الى الامام فى المستقبل زمانا ومكانا . وخيل له أنه يرى هناك فى الظلام ما بقى له من أيام حياته يصعد الى السطح ـــ الاماكن ووجوه البشر وتحركاته ولقاءاته . وراوده احساس غامر بالحرية العدوانية والاستكشاف الذى لايحد والرؤية فى ومضات من البرق كأن المستقبل وقد اندلعت فيه النار فصار يحترق فى لهيب خياله لم تبق منه سوى لحظة واحدة تامة حتى فى أدق تفاصيلها . رأى أن تلك هى حياته وانه لم يبق أمامه الآن سوى أن يتذرع بالصبر ليحياها حتى النهاية . واغرورقت عيناه بالدموع وسرى فى بدنه اضطراب لا سبيل الى السيطرة عليه . فبدأ يهتف بكلمات لا معنى لها وهو لا يفتأ يتقلب فى فراشه ممعنا النظر فى الظلام وكأنه يتوق الى اضاءته والى رؤية المستقبل وقد مزقت أستاره . وفيما هو فى ذروة ذلك الانفعال العميق سمع الباب يفتح .

ودخلت المرضة . وقد بدت لعينيه الحاشية المغضنة لقميص النوم القطنى الطويل من تحت معطف مزين بالفراء خيل له أنها التفته بسرعة فوق كتفيها . ورآها لوقا تأتى اشارة الصمت وقد وضعت اصبعها على شفتيها . والتمعت

عيناها ببريق أقوى من أى وقت مضى فبدتا وكأنهما على الرغم من ظلام الغرفة تضيئان وجهها بأجمعه . أغلقت الباب فى حرص وأدارت المفتاح فى القفل ببطء شديد. ثم تناولت احدى فوط المائدة من درج المنضدة المجاورة للفراش ولفت بها المصباح . فعلت كل ذلك فى اناة وتؤدة وكأنها تؤدى عملا صار لتكراره عاديا مألوفا بينما أخذ لوقا يراقبها وهو مضطجع الى الخلف على الوسائد وقد امتدت ذراعاه أمامه على الفراش دون أن يخالجه اضطراب أو ارتباك . بل كان يراوده فضول أحس أنه برىء ساذج وكأنها لم تكن تهيىء المكان لمشهد غرامى بل تؤدى حركات معينة تخص أحد طقوسها المجهولة . وعندما فرغت من استعداداتها أقبلت نحو الفراش حيث وقفت منتصبة فى جلال وهى تنظر بعينيها المتألقتين فى عينيه مباشرة . ثم رفعت كلتا يديها وتناولت المعطف من فوق كتفيها ثم وضعته على المقعد . وبينما كانت تؤدى هذه الحركة مالت جانبا فكشفت عن معالم جسدها الضخم القبيح ــ فأردافها لم تكن مستديرة بل كادت أن تكون مربعة تعلوها مسطحات عريضة من اللحم ضاق بها قميص النوم . أما ظهرها فكان عريضا سميكا وذراعاها مترهلتين . وقفت لحظة ساكنة وكأنها تتيح للوقا أن يتأملها فى اعجاب وتريث . وبحركة قوية ضجرة رفعت ذراعيها وبدأت تخلع قميص النوم من فوق رأسها . فأخذ القماش القطنى يرتفع الى أعلى وأعلى كستار المسرح ولكن فى تردد وارتباك كاشفا باهتزاز عن المنظر فى أسفله . فقد تضخمت ساقاها ولكن فى استقامة كبرجين من اللحم الاسمر الضارب الى الحمرة : ولم يكن ينزوى الى الداخل من بدنها وسط خضم وفرته المكشوفة للعيان سوى ركبها الذى اكتنفته الظلمة والغموض . وكان بطنها أشبه بوعاء يفيض بالرغبة . أما صدرها الذى انحصر فى ضيق بين تجويفى أبطيها العريضين أسفل ذراعيها المرفوعتين فكان أشبه بمساحة من الارض جبلية مظلمة يحدها من الجانبين طريقان أبيضان متقفران . وبجاذبية أخيرة كانت على الرغم من بطئها تنطق فى الوقت نفسه بقوة تصميمها العاتية تجردت تماما من ثوبها الذى ألقت به على

الارض . ووقفت عارية أمام لوقا بمظهـــرها المألوف ذى الاريحية والشـــهامة والبشرى . وخيل للوقا أنها تتصرف وكأنها مازالت تتمتع بشبابها وجمالها وكما لو كان هو ينظر اليها تلك النظرة . وقد فسر لذلك بدا له هذا الوهم كريمـا محببا . وعندما لاحظت أن لوقا قد أطال اليها النظر ازاحت الى الخلف اغطية الفراش وانسلت فى جلال مضـــطجعة الى جانبه . لم يكن عناقا ذلك الذى مارسه وقتئذ بقدر ما كان غوصا بكامل كيانه فى مساحة لا حد لها من اللحم . وخالجه شعور دقيق بأنها كانت تقوده من يده كراهب مستجد خاشع الى داخل كهف غامض أعد لاداء طقـوس دينية معينة . وخيل له أن تلك هى الحياة التى استحضرها فى ذهنه من قبل ولم يهمه كثيرا أن تمثل أمامه فى زى الخـــريف . ووجد نفسه وقد ملأه العرفان يقبل ذلك الوجه الاسمر النحيل ذا العينين المغمضتين وقد حاكى صورة العملة فى سكونه .. ولكن أكان ذلك هو وجه المرضة أم وجه الهة ما خرجت من الارض لتستحوز عليه ؟ ولا شك أن رعشة من الخشوع قد سرت ما بين يديه وجسدها الراقد تحت جســـده . وفى الوقت نفسه له يفتأ يخالجه احساسه بالراحة الذى كـان لجدته وخفته يعوض عن حماس العناق وشدته .

— ١٦ —

فى اليوم التالى رحلت المرضة كما سـبق أن أعلنت . وبقى لوقا يراوده شعور لا هو بالاسف ولا هو بالنفور بل اقرب الى العرفان بجميلها لا لانها لقنتـــه أخيرا الحب الجسدى فحسب بل لانها لقنته حبا أوســع نطاقا وأكثر شمولا للاشياء جميعا وقد استبان له أول بصيص من نوره عندما أفاق من هذيانه . وخيل له أنه وجد أخيرا طريقـة جديدة كانت شخصية للغاية للنظر الى الحقيقة ـــ طريقة قوامها العطف والترقب فى اناة وصـــبر فقد لاحظ أن تلك الطريقة فى النظر الى الامور كانت تتيح له انتظاما فى التفكير اكثر هدوءا وعمقا وصفاء مما كان عليه من قبل كما صاحبت ذلك الانتظام فى التفكير رؤيا لم تعد مباشرة أو عدوانية بل

حذرة مترددة فى ارتياب شديد على صورة تفوق الوصف وخيل له عندئذ انه سوف يرى الاشياء فى أول الامر بهاتين العينين الجديدتين اللتين فتحتا داخل نفسه فى تلك الليلة ثم يراها بعد ذلك بعينيه اللتين بهرهما مطلع النهار عند مولده . اذ أن المرضة كانت له أما ثانية أحق وأصدق من الاولى وذلك بأن ولدته من جديد عندما كان لشدة رغبته فى الموت ميتا بالفعل . ولكنه كان يعلم أنه لولا رغبته الاولى فى الموت التى لشد ما كانت مخلصة صادقة لما أمكنه أن يولد من جديد .

وفى تلك الاثناء كان الحديث يتردد فى المنزل فى الحاح متزايد حول رحيله الى الجبال . فقد حجز له والده غرفة فى مصحة للناقهين ولم يبق سوى تحديد يوم الرحيل . أما الدروس فقد امتنع ذكرها الآن الا ايماء الى يوم بعيد حين يصير لوقا قادرا على مواجهتها دون أن يلحق بنفسه أذى ما . وبينما كانت تلك الاستعدادات تجرى على قدم وساق كان لوقا وهو جالس فى متكأ بالقرب من النافذة ملتحفا بالبطاطين لا يفتأ فى وسن يتأمل السماء التى أخذت تميل تدريجيا نحو الصفو والدفء مع حلول الربيع . وكان عندئذ يستمتع بحالته السلبية وذلك منذ أن لاحظ فى الاشياء والناس نظاما كان لايزال مجهولا ولكنه خليق بأن يرفعه الى أعلى ويحمله بعيدا . ولما كان قانعا بأن يصير جزءا من ذلك النظام فقد استمد قوة جديدة من قبوله طبيعته الظاهرية الغامضة .

واخيرا جاء يوم الرحيل . وكان ذلك فى نهاية شهر مارس . ولكن أمه التى تقرر أن تصحبه الى المصحة جعلته يتدثر على الرغم من دفء الجو بعديد من السترات السميكة ومعطف ثقيل . ولاحظ لوقا انه ما ان التحف بذلك المعطف حتى شلت حركته تماما وهو مضطجع فى متكئه فى الغرفة التى بدت له عندئذ غريبة يلفها ضوء الرحيل ـ كما لو كان حقيبة للملابس أو شيئا آخر لا حياة فيه . واستمرت حالته السلبية بل الحت فى استمرارها حتى فى تلك اللحظة

التى كان ينبغى عليه فيها أن يســـهم بنصيب فيما يعده له الآخرون من ترتيبات حتى أحالته جامدا فى الوقت الذى بدا فيه الجمود ضربا من المحال . وقد أمكنه أن يسمع والديه والخادمات وهم يتحركون فى انهماك هنا وهناك أثناء نقلهم المتاع ونزولهم به الى الطريق بينما ظل هو فى مكانه ساكنا لا يتحرك وكأنه لا ينوى الرحيل . ولشد ما أحس بالدفء ــ بل ربما كان دفؤه أشد مما ينبغى ولكنه مع ذلك ربما كان مستحبا ــ وأخذ يتطلع الى سماء الصباح الشـــاحبة دون ان يفكر فى شىء على الاطلاق . وثمة عيب فى الزجاج على شكل دمعة كان اذا ما أغمض احدى عينيه يتسع فى السماء حتى يبدو وكأنه ثلمة كبيرة بيضاء . وســـمع أمه تدخل الغرفة لاهثة وهى تصيح قائلة ــ « ماذا تفعل هنا ؟ ان السيارة واقفة بالباب فى انتظارنا . » وعندئذ فقط أمكنه أن يبذل جهدا ليتحرك . أما فيما مضى فما كان يمكنه قط أن يقاوم انتقال العدوى اليه من ضجة الرحيل رغم تفاهتها حتى ولو كان ذلك باظهار فتور عدائى فحسب . ولكنه أحس عندئذ أنه لم يكن يبالى حقا سواء سافر أو لم يسافر وصـــل أو لم يصل ، اذا كانت هناك قطارات أخرى أو أن كان الامر قد بلغ هذا الحد ففى امكانهما البقاء فحســـب . وفيما بعد بينما كانت أمه تجرى فى عصبية من مكتب الى آخر للحصول على البطاقات وختمها اســـــتغرق هو من جديد فى أعماق ذلك الجمود المستحب حتى كاد ينسى وهو جالس على احدى الحقائب أسفل قبة المحطة السوداء الصاخبة وسط زحام الناس وثرثرتهم أنه على وشك القيام برحلة . كان اشتراكه فى الحياة الخارجية أشبه بالخيط الواهى الذى لا يفتأ ينقطع وكان لايعبأ بتوثيقه من جديد .

ولكن كانت هناك أمه كما كانت هناك الســـيارة وكما سيكون هناك القطار وجميع تلك الوسائل الاخرى التى يمكن بها أن ينتقل جموده خلال الفضاء . وبينما كان يمشى مذعنا فى أثر الحمال المثقل بالمتاع لم يسعه الا أن يذكر أن ذلك القطار نفسه قد قاء عليه منذ شـــهور على أثر عودته من عطلته حين كان جســـده بأكمله فى ثورة مجنونة .. وما ان

ركبه حتى اغمض عينيه فى خمول وهو يجلس ممسكا بحزمة الصحف والمجلات التى كانت قد ابتاعتها له أمه . وسمع صفير القاطرة وأحس وهو جالس هناك أن عجلات القطار قد بدأت تدور من تحته فاستمر فى نعاسه . ثم ما أن فتح عينيه مرة اخرى حتى فوجىء برؤية منازل الضواحى وهى تمضى مسرعة أمام النافذة أسفل جسر السكة الحديد . ومن خلال نوافذ الطوابق العليا أمكنه أن يرى النـــاس وهم يتحركون هنا وهناك فى أرجاء الغرف بين أسرة شعثاء كانوا قد نهضوا لتوهم من فوقها . وأخذ القطار يزيد من سرعته فى انتظام دون أن ينقطع صفيره وأخذت المنازل تقل وتقل الى أن عبر القطار جسرا ما بسرعة فائقة وفى قعقعـــة مدوية . ثم بدأت بعد ذلك مناظر الريف .

كان القطار يندفع فى طريقه فأحس أن تلك الحركة المندفعة كانت تتناقض مع جموده على صورة لذيذة مستحبة . فماذا يعنى القطار بالنسبة له ســــوى شىء ذى هدف واتجاه وارادة ـــ مثلما كان فيما مضى هوى المرضـــــة وجـــزع والديه ؟ وخطر له فجأة انه لو واصل حياته كلها على تلك الصورة لكان ذلك جميلا مستحبا . فالقطار والمرضـــــة ووالده ـــ ومن بعدهم قوى أكبر أن لم تكن أكثر غموضـــا سوف يستودعها نفســه بقدر مماثل من الثقة والابتهـــاج . وتراءى له انه جندى جريح جائع مهلهل الثياب فى جيـــش لايدرى شيئا عن أوامره أو اهدافه ، أو شحاذ يعانى تعاســـة لايد له فيها ، بل لايحس بها . أو غنى ذو ثروة لم يكتســـب منها مليما واحدا . أو مرتق الى سلطة لم يســـع اليها قط أو كاهن فى كنيسة لايدرى شيئا عن طقوسها او شخص ماتت فرحته الاخيرة الى الابد بسبب كارثة لم يتنبأ بها أو يرغب فى تجنبها . وكانت قعقعة القطار وهو يسير فوق تحويلات القضبان ووقع العجلات السريع المنتظم وصفير القاطرة وهو يمزق سكون الريف اربا اربا بل ومنظر ذلك الريف نفسه وهو يولى الأدبار متراجعا أمام نوافـــذ القطار ـــ كل هـــذه الاشياء كانت تستحث خواطره . نعم ـــ فعندئذ لم يكن سوى قشة فى وسط مجرى عريض قوى دوام حيث لايسعه الا أن

ينحرف مع التيار والامل لايكاد يراوده فى أن يظل طافيا حتى النهاية . وقد أسلم نفسه لذلك التيار مغمض العينين فى ثقة كما سبق أن أسلم نفسه لذراعى المرضة قبل ذلك ببضعة أيام .

وفى الواقع فانه أغمض عينيه بالفعل ليتفحص ذلك الخاطر فى مزيد من الامعان بينما خيل لأمه التى تسهر على راحته انه يرغب فى النوم فوضعت له وسادة خلف رأسه بيديها اللتين أحس بما فيهما من رفق وحب . وكانت المرضة حتى ذلك الحين لاتخطر له على بال الا ايماءة فى غموض الى تلك الخبرة الجديدة التى كانت هى الأداة فيها على غير وعى منها . وعندئذ حاول أن يعثر فى ذهنه على تعريف للمعنى الحقيقى العميق لتلك الخبرة الجديدة . وتذكر أنه فى لحظة المضاجعة أحس برغبة قوية مفاجئة فى أن يلج بطن المرأة بكليته وبكامل كيانه وأن ينكمش هناك حيث الظلام الدافىء الكثيف تماما كما كان يرقد منكمشا قبل مولده . ولكنه أدرك الآن أن ذلك الرحم لم يكن سوى رحم الحياة نفسها التى كان ينكرها حتى ذلك الحين فأرغمته المرأة فى استبداد على قبولها . نعم فقد خلص الى أن ذلك هو ماينبغى أن تكون عليه الحياة . فهى ليست السماء والارض والبحر . وهى ليست الكائنات البشرية ومنظماتها بل هى كهف مظلم ندى من لحم أمومى حان يمكنه أن يلجه فى طمأنينة واثقا من انه سيجد فيه الحماية كما كان يجدها وهو فى رحم أمه طوال حملها به . فالحياة معناها الانغماس فى هذا اللحم والاحساس بأن ظلامه وقدرته على الاستيعاب ورجفته أشياء حيوية خيرة . وفجأة أدرك معنى ذلك الاحساس بالراحة الذى لم يفتأ ينعشه بينما كانت المرضة تهصره فى أحضانها .

ولازمه ذلك الخاطر طوال ساعات الاصيل وبعد تناوله العشاء عندما أنزلت أسرة النوم وأوى هو وأمه الى فراشهما . ظل يلازمه شطرا طويلا من الليل الى أن استغرق فى النوم . وفيما هو نائم عبر القطار جسرا جديديا طويلا يقوم فوق نهر عريض للغاية فخيل له انه يسمع دوى الدعائم تحت ثقله .

وبعد ذلك بوقت طويل أحس بلغط أصوات حية وبوقع أقدام يتردد صداها في سكون مفاجيء فأدرك أن القطار قد بلغ محطة كبيرة حيث توقف عن السير • ولكن الوقت لم يزل في أعماق الليل فانقلب على جنبه واستغرق في النوم من جديد ولم يحس بمناورة القطار وهو يستبدل القاطرة أو بمغادرته المحطة مرةأخرى • بل استمر فيىنومه مستيقظا بين آونة وأخرى ومتنبها لحركة القطار فلا تفتأ تراوده نفس المتعة في كل مرة •• وعندما استيقظ لاخر مرة كان قدارتفع الضحى • وأدرك من وقع العجلات البطيء الجهيد أن القطار يصعد مرتقى من الارض •

وعاونتهأمه على أنيغتسل ويرتدى ملابسه ثم جاءالمحصل ورفع الأسرة • وفى النهاية جلس لوقا بجانب النافذة وأخذ يتطلع الى المنظر الطبيعى • وعندئذ كان القطار يسير تحت سفح أحد الجبال محاذيا له وهو يدور ويتلوى حول ممر ضيق أمكنه أن يرى فى قاعه سيلا مندفعا • وثمة منحدر جبلى آخر كان يرتفع فى وعورة على الجانب القصى من السيل حاجبا السماء عن الانظار • وحملق لوقا فى أمواه السيل المزبدة وفى كتل الصخر المنهارة ومن حولها تندفع المياه وتنكسر كما حملق فى غابات الصنوبر الكثيفة التى كانت تكسو سفح الجبل حتى اغتسلت جذورها بتلك الامواج الثائرة • وفى ذلك الصباح الغائم كانت مياه السيل تبدو قذرة فى ضوئه الشاحب فتراوح لونها بين البياض والزرقة الخفيفة • أما الصخور فبدت حمراء صدئة واكتستأشجار الصنوبر بخضرة قاتمة كئيبة معتمة • كما اكتنف ذلك القفر الموحش فى جبال الألب جو من الكآبة القديمة غير المبالية • وكان لوقا يرى الجبال لأول مرة فخيل له أنها لم تكن جميلة كما كان يعتقد • وأحس بخيبة الامل •

ولكن القطار أثناء دورانه حول سفح الجبل خرج الى بقعة مكشوفة حيث رأى لوقا عند الطرف القصى من الممر قمة يغطيها الثلج بدت له على ارتفاع شاهق وقد سمت فى شموخ فوق جبلين صغيرين تكسوهما الاشجار تماما • وكانت

السحب فى السماء قد تفرقت فأضاءت الشمس ذلك الثلج البعيد حتى جعلته يتلألأ • وعندئذ لم يدر لماذا تولاه فرح مفاجىء لمرأى ذلك البياض الصافى فى جلاله ووحدته • وعاوده الاعتقاد بأنه محمول نحو هدف مجهول وبأنه مستسلم لذلك فى ثقة • ولكنه حينئذ طرأ عليه شىء من التغير لاحساسه الذى لم يعهده قط من قبل بانه محمول فى استسلام من جانبه نحو تلك الثلوج التى لشد ما نصع بياضها وسمت فى علاها • وظل مركز عينيه المفتوحتين على سعتهما على قمة الجبل • وكلما انعم اليها النظر زاد احساسه بتلك الفرحة النشوى المطمئنة وهى تنمو وتترعرع بين جوانب نفسه • كان يعلم انه ليس ثمة سبب مادى لابتهاجه على تلك الصورة لمجرد رؤيته قمة ثلجية من قمم الجبال ومع ذلك فانه لم يسعه الا أن يدرك ان ذلك المنظر بالذات هو الذى حرك جهاز آماله العميقة بعد ان ظل معطلا زمنا طويلا • واستدار نحو أمه يسألها وهو لايكاد يعنى ذلك قائلا : « وماذا حدث للممرضة ؟ » •

فأجابته أمه قائلة فى دهشة : «أحسبها ترعى مريضا آخر»

وحدث لوقا نفسه قائلا :« نعم فقدعنيت بىعناية حسنة » ثم قال لأمه : « انها رائعة ••• ولولاها لما امكننى حقا أن أشفى بهذه السرعة • »

فقالت امه مستاءة الى حد مالنسيانه رعايتها التى كانت تغدقها عليه :

— « لا داعى للمبالغة • ولكن لاشك انها ممتازة • »

فردد لوقا كلامه قائلا : « نعم انها رائعة • »

فقالت أمه : « وبهذه المناسبة • فلا بد انها شغفت بك شغفا شديدا • اذ اتصلت بى تليفونيا عدة مرات للاطمئنان على صحتك • »

— « وبماذا اجبتها ؟ »

ـ « انك استعدت صحتك تماما · »

فأغمض لوقا عينيه · وفى نفس اللحظة اندفع القطار فى أحد الأنفاق وهو يطلق صفيرا طويلا محـزنا · وعندما فتـح لوقا عينيه مرة أخرى لم ير شيئا سوى الظـلام بينما هبت على وجهه من جدران النفق القاتمة ريح رطبة اختلطت برذاذ الماء الخفيف ونفحات البخار · وبدا له وقع العجلات الذى لم يفتأ يتردد صداه فى قبة النفق وكأنه صوت مرح رتيب يعيـد نفس الألفاظ مرارا وتكرارا · بل لقد خيل له انه قادر على تمييز تلك الألفاظ ـ فاذا هى نفس الالفاظ المليئة بالامـل التى صاحبته منذ أن أفاق من هذيانه يوما بعد يوم خـلال شفائه البطىء · وأدرك أن كل الاشـياء منـذ ذلك الوقت فصاعدا وليس فقط قعقعة القطار فى النفق أو بياض الثلج فوق قمة الجبل سوف تحمل له معنى ما وتتحدث اليه بلغتها الخرساء الخاصـة · ثم خرج القطار الى ضـوء النهار مطلقـا صفيرا آخر ·

انتهت

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٣/٤٢٩٩

www.library4arab.com/vb

مؤسسة روز اليوسف

الكتاب الذهبى

رئيس مجلس الإدارة

عبد الرحمن الشرقاوى

رئيسا التحرير

مصطفى محمود

جمال كامل

لجنة الكتاب

جمال كامل

لويس جريس

المشرف الفنى

محمد سليم

الاعلانات والاشتراكات يتفق عليها مع الادارة
٨٩ (أ) شارع القصر العينى تليفون ٢٠٨٨٨ ـ ٢٠٨٨٧

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

مؤسسة روز اليوسف

• الثمن [illegible] قرشا •